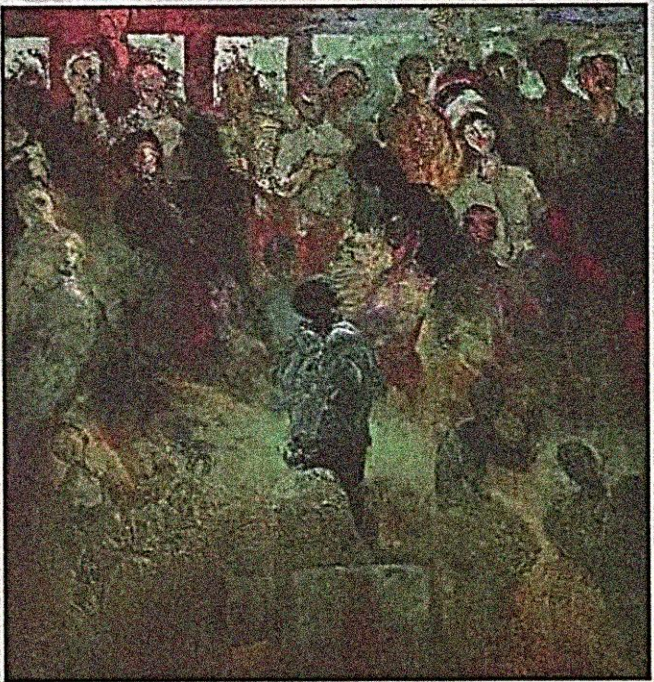
واسيني الأعرج

ذاكرة الماء

محنة الجنون العاري

رواية



واسيني الأعرج

ذاكرة الماء

«محنة الجنون العاري»

رواية

• واسيني الأعرج
• ذاكرة الماء
• جميع الحقوق محفوظة
• الطبعة الرابعة 2008
• موافقة وزارة الإعلام رقم 99275
• الناشـــــــــر: ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق ☎ 5141441
• الإشـــــراف الفني: د. مجد حيدر
• التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

واسيني الأعرج. مواليد 1954 بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. يعتبر أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

إن قوة واسيني التجريبية التجديدية تجلت أكثر في روايته الكبيرة، المبرمجة اليوم في العديد من الجامعات العالمية، الليلة السابعة بعد الألف بجزأيها: رمل الماية والمخطوطة الشرقية، التي حاور فيها ألف ليلة وليلة لا من موقع ترديد التاريخ ولكن من هاجس الرغبة في استرداد التقاليد السردية الضائعة.

- في سنة 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.

- تحصل في سنة 2001 على جائزة الرواية الجزائرية.

- اختير في سنة 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.

- تحصل في سنة 2006 على جائزة المكتبيين الكبرى.

- فاز في سنة 2007 بجائزة الآداب الكبرى (الشيخ زايد) عن رواية: كتاب الأمير.

- تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية، الدنماركية والإسبانية.

لا شيء في هذا الأفق،

لا شيء أبداً، سوى الكتابة وتوسّد رماد هذه الأرض التي صارت تتضاءل وتزداد بعداً كل يوم.

وهل للماء ذاكرة؟

هذا النصّ يجهد نفسه للإجابة عن بعض مستحيلاته بدون أن تخسر الكتابة شرطها.

كُتِبَ داخل اليأس والظلمة بالجزائر ومدنٍ أخرى على مدار سنتين من الخوف والفجيعة بدءًا من شتاء 1993، أي منذ ذلك اليوم الممطر جداً، العالق في الحلق كغصّة الموت والذي لم تستطع الذاكرة لا هضمه ولا محوه بين دهاليزها ورمادها، وأُنْهي بالجزائر في سنة 1995، ذات يوم شتوي عاصف على واجهة بحر خالٍ لم يكن به إلّا أنا وامرأة من رخام ونور ونورس مجنون كان يبحث عن سمكة مستحيلة ضاعت داخل موجة جبلية.

لكن بين سنتي البدء والإنتهاء، كان هذا النصّ يُكتبُ داخل القساوة والبرودة والحياة والسرّ والمنفى، من الجزائر العاصمة، وهران، قسنطينة، عنابة الى الرباط، طنجة، المحمدية، الدّار البيضاء إلى تونس، زغوان، قابس، المونستير إلى عمّان، الرّبدة، بترا إلى دمشق، إلى باريس، ليون، مارسيليا، أفِنيون، إلى بروكسيل إلى أمستردام إلى روما، صالرنو، ميلانو، جينوفا، باري، ألبيروبيلّو إلى الجزائر مرّة أخرى.

وهل للماء ذاكرة؟

هو ذاكرتي أو بعضاً منها. ذاكرة جيلي الذي ينقرض الآن داخل البشاعة والسرعة المذهلة والصمت المطبق، ذنبه الوحيد أنه تعلّم،

وتيقّن أنه لا بديل عن النوّر سوى النور في زمن قاتم نزلت ظلمته على الصدور لتستأصل الذاكرة قبل أن تطمس العيون. هو مجرّد صرخة من أعماق الظلام ضدّ الظلام، ومن داخل البشاعة ضد البشاعة. ونشيد مكسور للنوّر وهو ينسحب بخطى حثيثة لندخل زمناً لا شيء فيه ينتمي إلى الزمن الذي نعيشه.

داخل هذه الرحلة، رحلة القساوة الممتدة من 1993 الي 1995 وأنا أكتب هذا النصّ فوجئت بميراث الكتابة التراجيدي: جنون يقارب الإنتحار، مرض العيون والذاكرة، تساقط الشعر والخوف، خسران البيت والأرض والبلاد، والسرية والمنفى، معاودة الحياة من الصفر في سنّ الأربعين، وإلتهام كمّ لا يُحَدّ من الورق والأقلام... والحبر... وكثير من الخوف الذي لا يشبه الخوف.

ولكنّي فوجئت كذلك بصغر الأرض وبأصدقاء الشدّة والخوف الذين لا أملك حيالهم إلّا المحبة والإصرار الدائم على تمجيد الجمال في معناه الأكثر نبلاً والصراخ ضد الهمجية والموت بأعلى صوتي حتى عندما يكون ميراث الكتابة هو الإجابة التراجيدية الوحيدة الممكنة في هذا الزمن. أصدقاء فتحوا أبوابهم وصدورهم: جمال الدين بن الشيخ، دانيال ريق، جاك غاليت، جاكلين الشابي، أبو العيد دودو، محمد حسين الأعرجي، عبد اللطيف اللعبي، برينو داجنز، جاك دريدا، جلبيير غرْون غيوم، سهيل إدريس، محمّد بوعيّاد، خولة الإبراهيمي، فاني كوُلونا، بيار زراغوزي، أدونيس، كريستيان سالومون، فاطمة المرنيسي، محمد برادة، الهاشمي شريف، حنّا مينة، نبيل سليمان، الهاشمي بونجّار، رضا مالك، رشيد بوجدرة، رشيد ميموني، أحلام مستغانمي، محمد صالح حرز الله، مصطفى فاسي، توفيق بكار، جان بيار لييدو، محمّد الباردي، فتحية التريكي، نجاة الرايس، ليلى الشافعي، بقطاش مرزاق، عبد الحميد العقّار، محمد الأشعري، طوني مرّايني، جوليانا سقرينا، اسماعيل رسول، ماري فيرول، ياسمين غراسير، وأصدقاء آخرون، أتركهم بين شقوق الذاكرة المنكسرة.

سنتان من الخوف. وهل هما سنتان؟

طوال هذا الزمن النفسي الذي لا يُعدُّ ولا يُحصى كنت أحلم بشيء صغير. صغير جداً ولكنه بالنسبة لي كبير، قبل أن تسرقني رصاصة عمياء، هو أن أُنهي هذا العمل، نكاية في القتلة.

وهاأنذا بعد هذا الزمن الذي لا يساوي الشيء الكثير أمام الذين فقدوا أرواحهم، أخرج للنوّر مثقلاً برماد الذاكرة، أمشي على الملوحة والماء وفاءً لهذا الماء وتلك الذاكرة.

القسم الأوّل

الوَرْدَةُ وَالسَّيْف

1

4H - 00 MN

الظلمة.

أشعلت الضوء الخلفي للصّالة. شرّعت النافذة عن آخرها. خيط من الهواء البارد يتسرب عبر جسدي بهدوء.

لا شيء.

أمام هذه الكومة من الأوراق، والقصاصات الصحفية القديمة، لم أعد أتذكّر شيئاً مهمّاً سوى ما قالته العرافة لأمّي منذ أكثر من أربعين سنة، وقبل شهرين من ميلادي. كانت أمّي حاملاً بي. كانت تخطّ لها الأوشام على زندها وجسدها ووجهها وساقيها. قالت لها وهي تكتشف توازن جسدها بعد ولادات متعددة.

- اسمعي يا لالّة مولاتي. بطنك حمل ثلاث صبيات، تلاحقن الواحدة بعد الأخرى. قبل أن يكون رابعك صبيّاً. خامسك، أبشرك، سيكون صبيّاً جميلاً، يعشق حروف الله والكلمات وتربة الأولياء الصالحين. سَمِّيه باسمهم حتى لا يسرقوه منك مبكراً. تصدّقي كثيراً وإلاّ سيموت بالحديد.

- أي حديد؟؟

قالت أمّي.

ـ سكّين. رصاصة. سيارة. طائرة.

ضحكت أمّي وقتها كثيراً، وعندما كبرتُ قصتْ عليّ تفاصيل الضحكة.

ـ مجنونة العرافة. الرصاص انتهى مع الثورة. الطائرة بعيدة عنّا وهي للذين يعرفونها ويملكون خير الدنيا. والسكّين للجزارين. وأنتَ هو أنتَ، جميل كالنوار وطويل كالنخلة.

وها هو الزمن الميّت يعود، ويمتلئ رأسي بالسكاكين والرصاص والطائرات التي أركبها مجبراً، والحديد الذي أصبح حقيقة قائمة تملأ الدماغ.

ينتابني شيء من التردّد ضد الكثير من الأشياء الغامضة.

ماذا أفعل؟

هل سأبقى مرّة أخرى داخل هذا القفر الذي اسمه البيت؟ أم سأخرج؟

مسألة في غاية الحماقة. هناك شيء غامض يربطني بهذه الأرض وهذا المكان المعزول. ربّما حفنة تراب ما زلت أحتفظ بها وأرْحَل كلما كان ذلك ممكناً، أشمّ رائحتها وأشعر أن لي وطناً، حتى عندما يُسرق منّي هذا الوطن.

أقنع نفسي من جديد.

يجب أن أخرج، لأني لو بقيت هاهنا، سيكون كلّ الزمن الذي مضى من حياتي لا قيمة له، لكن!؟

إذا خرجت وانحدرت باتجاه المدينة، ستكون غوايات الشوارع قد قادتني نحو الموت.

في الليلة التي مضت، أو في ربعها الأخير (لأني لم أنَمْ إلاّ ساعات قليلة)، رأيت أشياء كثيرة في الحلم، أشياء محزنة: داستني سيارة فمزّقتني، ولكنّي في النهاية، استطعت أن أقوم مثل طفل

متهور بعد أن جمعت نفسي، قطعة قطعة ثم قمت. واستطعت أن أقف على قدميّ، بالرغم من الصعوبات والاستحالات. رأيت منشاراً يقطّعني مثل قطعة خشب، وأنا أضحك بصوتٍ عالٍ وأقهقه مثل المجنون. رأيت ذاكرتي وأنا أضعها أمامي مثل العلبة المسحورة. كنت متردّداً بين فتحها أو عدم فتحها. في النهاية صمّمت على اقتحام سرّها. قفزت من داخلها حمامات وغربان ثم بحر أزرق وألوان رمادية وروائح وعطور، وأحجار وأتربة صفراء ورقيقة مثل حبّات الرمل.

ورأيت كابوساً آخر، أحسّ تفاصيله ولكنه يستعصي عليّ الآن تذكره.

وعندما أفقت في هذا الصمت المبكّر، لم أرَ سوى بياض الحجرة ودكنة هذا الفجر، والبحر الذي خلته وسط هذا السواد منكفئاً على نفسه مثل شبح معزول ومفرط في وحدته، لم يبرح مكانه، رغم أن الشمس غيرت مواقعها آلف المرّات.

لا شيء. سوى أنا وريما والبحر والساعة الحائطية الثقيلة، ووقوقات نادرة لنوارس خلتها تحوم فوق تكسرات الموج الذي كان يتذابح في ذاكرتي. وهذه الكومة من الأوراق القديمة التي أشعر برغبة نادرة في قراءتها أو في توديعها. فهي كلّ حياتي وبعض من تمزقات هذه البلاد.

قبل أن أصمّم وأقوم من دفء الفراش، كانت الساعة الحائطية ذات العقارب الفوسفورية تزحف بصعوبة نحو الرابعة وأنا أحاول جاهداً أن أقنع نفسي بضرورة القيام.

للذهاب إلى أين؟

ربّما نحو الموت.

– Merde!? Il faut que je me leve!

ثم تدحرجت بعدها خارج الفراش.

عندما نصر على النوم بعينين مفتوحتين، نتعب كثيراً.

تأملت رزنامة البرنامج اليومي، المعلقة على الباب. البريد، المطبعة، المطعم، الجنازة. ثم العودة. عشرون عصفور بحجرة واحدة، تفادياً للخروج المجاني والموت العبثي.

فتحت رزمة الأوراق. بعثرتها قليلاً على الطاولة الكبيرة. أشياء كتبتها في فترات متقطعة وقصاصات صحفية مهمّة كنت قد قصصتها لحاجة لم تأتِ أبداً.

عادة لا أكتب إلّا عندما تجتاحني حالة ألم شفافة. عندما غادرت بيتي للمرة الأخيرة باتجاه هذا المخبأ، لم آخذ معي شيئاً مهمّاً، سوى بعض الكتب، والاشرطة، ولوحة لسلفادور دالي، وهذه الكومة من الأوراق التي أخاف عليها من قساوة هذه المدينة.

بدأت أوّرق.

فجأة قفزت أمامي هذه القصاصة.

ابتداءً من الأسبوع القادم، سيشرع في تطبيق النظام الأسبوعي الجديد. وعليه سيصير يوما الخميس والجمعة، هما نهاية الأسبوع، بدلامن يومي السبت والأحد. تمّ هذا التغيير بالاتفاق بين مختلف الوزارات والمجلس الإسلامي الأعلى.

جريدة *الشعب* (...) 197

منذ أن اغتيل صديقي يوسف، فنان هذه المدينة وشاعرها، أصبحت لا أنام بشكل جيد. أشعر برغبة محمومة للعودة نحو الأعماق. نحو الطفولات الضائعة. نحو الحبر الأوّل ونحو رائحته ولونه البنفسجي. نحو القبلة الأولى. نحو الأشواق الأولى، وحتى نحو الدّمعة الأولى التي لم نستهلك حرارتها بعد، لكن الشعور الذي يجتاحني في البدايات الأولى لهذا اليوم، لا يريحني مطلقاً.

منذ أن انتهى الكابوس الذي رأيته في هذا الفجر وأنا أحاول بدون جدوى أن أغمض عينيّ.

هاه!! تذكرت المشهد الأخير للكابوس الذي غاب عنّي.

الساحة كانت ملأى بالناس الذين يرتدون أقمصة بيضاء، فضفاضة وعليها بقع الدم اليابسة، يلتفّون ويصرخون مثل المجاذيب حول جسد ممزّق، كانوا يرجمونه عن قرب بحجارة كبيرة ويرشقونه بالسكاكين. شظايا المخّ واللحم، تلتصق بالقضبان الحديدية الصدئة التي كانت في أيديهم. كنت أرى ذلك الرجل، أو بقاياه من شرفة الطابق الخامس حيث كنت أقيم قبل أن أنتقل نحو هذا البيت الذي صار يشبه قبراً يسكن به رجل يبدو أنه ما يزال على قيد الحياة. كانت الجثة الممزقة تشبهني.

كانت، أنا. البحر الذي أشعر بحالة استئناس لوجوده، صار غير موجود مطلقاً وكأنه غادر هذا الفضاء الضيّق. لا أسمع صوت تكسراك موجه إلّا قليلاً. أقول في خاطري، لا بدّ أن يكون البحر قد رَحَل نهائياً عن هذه المدينة. أتشجع في أغلب أوقات الوحدة، وأخرج بحثاً عنه وعن الموجات الضائعة، وعن الوقوقات النادرة لنوارس ليلية أتخيّلها وهي تنقر بياض الموج المتكسّر على أطراف الصخور البركانية، في هذا المكان المعزول.

أترك الأوراق للحظة.

أفتح الباب والنوافذ. أملأ صدري برائحة البحر. أتمتم.

- الحمد لله. البحر ما يزال هنا!! البحر لم يَمُتْ.

الظلمة ما تزال قائمة.

وريما، حمامتي الصغيرة وسط هذا الخراب، ما تزال نائمة على غير عاداتها منذ بدأت هذه المدينة تأكل رأسها بشكل معلن.

القطّ الأبيض هذا الفجر لم يظهر، وهو الذي تعوّد أن يتشمم رائحتنا من بعيد، ويصغي بانتباه إلى أصوات الأواني في المطبخ، ليبدأ في المواء معلناً عن وجوده، ولنفتح له الباب للدخول. هذا القطّ تعوّد على لطف ريما معه بسرعة. فاطمة، صديقتنا التي تأوينا، هي

نفسها لا تعرف من أين جاء. دخل معنا في اليوم الأوّل الذي وضعنا فيه حقائبنا عند باب فاطمة.

ريما تعودت عليه، وتعوّد هو على يديها الصغيرتين وهي تقوم فجراً، لتعطيه الحليب، وتعود لتندفن في فراشي، أمّا هو، بعد أن ينتهي من شرب حليبه، يتشمم رائحتها، يدخل بين رجليها وينام. لا أسمع إلّا ترترته التي تعطي للنوم لذّة خاصة.

ريما نست دميتها الكبيرة، ونست ألعابها منذ الزمن الذي أعقب تنقلاتنا وخروجنا من البيت. ترحل مثل الكبار. لا تأخذ معها إلّا كراستها الصغيرة التي كتبت على غلافها: سلطان الرماد. لا أدري من أين أتَتْ بهذا العنوان أصلاً. تسجّل فيه خواطرها عن الأصدقاء الذين اغتيلوا هذه السنة.

حياة الترحال قاسية، ولكنها ليست مستحيلة التحمل.

كلّ شيء بدأ عندما واجهتني ملامح رجل مشبوه. شعرت بظله. عندما التفتُّ نحوه عند مدخل البناية قرأت بعض غموضه. ارتبك. أدخلتُ يدي في جيبي. كنت أتحسس قطعة نقدية باردة وكان يظنّني أتحسس سلاحاً. ارتشقت عيناه بجيبي. قال بنوع من التلعثم.

- سألت شباب الحيّ. فوجهوني نحوك. كنت أعمل سائقاً لسيارة أجرة، عند شخص، تخلّى عنّي وأنا الآن بدون عمل. فهل تستطيع مساعدتي للحصول على عمل.

تماسكت جيداً.

- أنت تعرفني. أنا مجرّد أستاذ جامعي. ومع ذلك سأحاول. اِتصل بي في الأسبوع القادم.

نسيت أن أسأله عن اسمه.

كان وجهه قد اصفر أكثر، وعيناه لم تغادرا جيبي، والزغب الذي كان يملأ ذقنه وخدّيه زاد بروزاً. ثم بدأ يتوارى، حتى خرج نهائياً من مدخل البناية. عندما أطْلَلْتُ عليه، كان يجري، ويلتفت وراءه.

ولهذا احتفظت بهذه القصاصة فيما بعد.

لقد تمّ التعرف على أحد قاتلي المفكر بوخبزة مدير الدراسات الاستراتيجية. وكان قد جاءه قبل أيام يطلب منه المساعدة للحصول على عمل، ووعده الأستاذ بوخبزة على بذل مجهود خاص للحصول على عمل.

جريدة *الوطن (...) 199*

في المرّة الأخيرة كنت أنا ومريم. كان يحاول أن يتتبّع حركاتنا. ثم بسرعة سبقنا إلى مدخل البناية. قلتُ لمريم. أَوقفي جارتك. تحدّثي معها في أي شيء حتى ولوكان فارغاً.

كانت الجارة قادمة من السوق، بسلة شبه فارغة.

دخلت معها في حوار عن غلاء المعيشة. عن البطالة. وعن أشياء لم أولها الانتباه الكافي.

بينما كان الشاب ما يزال في مدخل البناية، يحاول أن يقرأ صناديق البريد. عندما التفت نحوه التقت عيناي بعينيه. تأكد أني تذكرته. دخل بشكل فجائي إلى الصيدلية المحاذية للمدخل. تبعته.

خرَج بسرعة.

سألت العاملة. كانت صديقة لنا.

ـ ماذا كان يريدٌ؟

ـ لا شيء. يبحث عن طبيب أسنان. ما عجبنيش مطلقاً.

ـ لا يوجد طبيب أسنان في الحي، وهو يدّعي أنه من سكّان الحيّ.

ـ ليس من الحيّ. لم أرَهُ أبداً في حياتي.

في المساء نفسه اتصل بنا مدير الأمن الحضري لمنطقتنا ليخبرنا بقدومه شخصياً لأمْرٍ يهمُّنا. عندما وصل، كان منكسراً.

ـ كلّ ما أقوله لكما، أن تغادرا المكان. فهذا المكان مهجع للقتلة. أنتما في وضع خطير جداً.

سألنا عن التهديدات. قالت مريم:

ـ كثيرة. سلمتُ بعضها للشرطة، والبعض الآخر مزّقته. تعودنا عليها.

ـ هكذا يفعلون. يبتذلونها بكثرتها وعندما يدخل المرء في دائرة العادة ينقضون عليه.

منذ ذلك الزمن، أصبحت كلما تحدثتُ بصوتٍ عالٍ، تنبهني ريما، وهي تضع يدها على فمي.

ـ بابا، للحائط آذان.

وكلما قمت من فراشي، أجدها ورائي، تقتفي خطواتي، بلباسها الوردي الفضفاض. تمسح عينيها النصف مغمضتين.

ـ بابا، كَانْشِ أخبار جديدة؟!

أمسد على شعرها. أنحني. تدفن رأسها في صدري.

ـ المهمّ أن الحياة ما تزال مستمرّة.

ريما، هذا الفجر، لم تستيقظ بعد. البارحة نامت صفراء، مريضة. تبدّل لون وجهها. لم يعد يعجبني مطلقاً. منذ أيام أخذتها إلى الطبيب. التحاليل لم تظهر أي شيء استثنائي. صارت نحيفة. عندما سألت الطبيب. قال.

– C'est peutêtre L'angoisse.

القطّ الذي تعودّت عليه، لم يظهر، ربما لأنها ما تزال نائمة. لم أعد أسمع أبداً نشيد الورّام الذي يأتي عادة من البرج القديم، من القلعة التي دخل منها الغزاة أوّل مرّة إلى هذه البلاد. الورّام لا يغادر مخابئه إلاّ عندما يسمع محرّك السيارة قد أقلع، فينفرط في السماء عالياً عالياً، يعبر البحر جماعات جماعات، باتجاه القلعة الكبيرة.

تخيلت أن كلّ هذه الكائنات الجميلة قد ماتت. لكن الأمر بدا لي غير معقول.

هل يمكن لكل الأناشيد الجميلة أن تموت دفعة واحدة، وبهذه السرعة المخيفة؟.

تذكرت كلمات صديقي الفنان، يوسف الذي اغتيل قبل يومين.

يا كلّ صديقي.

يا صديقي.

يا بعض صديقي.

يا أنا.

إني أموت في دمك الحيّ.

من يستطيع أن يغتال بحراً أو شمساً أو شاعراً؟؟!

ومع ذلك قتلوك يا صديقي. وأسكتوا البحر، وغيّبوا الشمس مبكراً.

أقوم من على الطاولة الكبيرة. أدور داخل بياض الحجرة. أطل من النافذة صوب البحر. الظلمة ما تزال تلف المكان ولا شيء يوحي بأن انشغالاً ما يملأ زوايا المدينة. شيء ما يعذبني في عمق الأعماق، لم أتعود على تحملّه بسهولة. أقول في خاطري. لا بدّ أن يكون القراصنة الأتراك الذين مرّوا على هذه الدنيا قبل الآن، قد امتصوها وحوّلوها إلى خراب بعد أن حكموها بالنصل والقيامة والخديعة.

لم يبق على الصباح إلّا بعض الساعات. زرقة البحر ما تزال داكنة وسط ظلمة لا تخترقها إلّا السفن الصغيرة الراسية في مكان ما داخل هذا الساحل الواسع الذي بدأ يضيق فجأة لا تظهر إلّا أنوارها وهي تتلألأ في العمق مثل النجوم العائمة على سطح البحر.

لا يُعقل أن تُسرق المدينة بهذه السرعة. ما يزال فيها شيء من الحياة، يصرّ بشكل دائم على البقاء والمقاومة.

عدت نحو ريما. ما تزال في عمق فراشها نائمة. من حين لآخر تمتصّ أصبعها. شيء من الخوف يملأ عينيها، نصف المغمضتين. البارحة انسحبت باكراً لتنام، بعدما سجّلَتْ ملاحظاتها بصعوبة في كراستها الصغيرة التي سمّتها *سلطان الرماد*.

قالت وهي تحاول أن تمسح آثار النوم التي بدأت تغلق عينيها، وتغلق قلمها وكراستها.

ـ عمّو يوسف الله يرحمه كان طيباً. يضعني على ركبتيه ويقرأ لي الأشعار الجميلة، أو يريني صوراً عن لوحاته الكثيرة. كان جميلاً. يقول لي دائماً. يا ريما، نحن الفقراء لا نملك الشيء الكثير سوى كنز الكلمات الذي نورّثه لأصدقائنا وأحبّتنا. نتذكرهم به، ويتذكروننا به، أمّا الحكّام، هؤلاء الذين يملأون الشوارع بنصبهم التذكارية، والتلفزات بوجوههم، سيندثرون، من يتذكر اليوم طغاة الدنيا منذ بدء الخليقة، لكن من ينسى اليوم: شكسبير، فلوبير، الحلاّج، بشار بن برد، سرفانتس، عمر الخيام، من يتذكر قاتل بوشكين؟... هؤلاء هم ذاكرتنا وذاكرة الدنيا التي تعيشنا ونعيشها.

أرأيتِ.. يا ريما؟!

أتذكره بقساوة. أيّها الحكيم.

أقولها له. يضحك.

ثم يعيدها وهو يحاول أن يمطّط مفرداته كالعادة ويمسح على وجهه الصغير.

ـ أ.. ر.. أَ.. يـْ.. تْ!؟

2

4H - 15 MN

جلست على الكرسي ثم اتكأت على الطاولة التي تعدّ عليها فاطمة صورها وأشرطتها.

فتحت رزمة الأوراق عن آخرها. شعرت بالرطوبة تصعد منها بقوة، لتستيقظ حساسيتي من جديد. قفزت إحدى القصاصات الصحفية أمام عيني، كانت أطرافها قد صارت صفراء مثل كتاب ديني قديم.

الإدارات الوطنية، والمؤسسات معنية بالتغيير الذي تم في ترتيب أيام الأسبوع. وعليه يصبح يوما الخميس والجمعة هما نهاية الأسبوع بدل السبت والأحد. ابتداء من الغد يصبح هذا الترتيب الجديد سارياً.

جريدة *المُجاهد (...) 197*

لم تكن الورقة تهمني كثيراً. كنت مأخوذاً ببقية الكتابات القديمة التي كانت، كلما قرأت حروفها تقذف بي بعيداً نحو ذاكرة مجروحة وقلقة.

وها أنْتِ. مريم. وسط رماد الأبجدية، تأتين دفعة واحدة، بكلك أو ببعضك. تضعين أحمر الشفاه ثم تتركين قبلة على المرآة وتكتبين

تحتها. (أحبك). تفعلين هذا عندما تضطرّين للخروج قبل دخولي إلى البيت.

عاداتك لم تتغير منذ مدة طويلة. منذ أن تعارفنا في تلك المدينة الساحلية التي لا اسم لها سوى زلازلها المتكرّرة. في المرّة الأولى حُطّمت عن آخرها. ثم حطمت ثانية وثالثة، لتبنى بعد ذلك بعيداً عن مكانها الأوّل، مدينة أخرى، بأسواقها، وبحرها، وبناياتها، لا يدخلها إلاّ المحظوظون. قُلْتِ:

ـ هل يغريك البحر؟

ـ يملأني دائماً. رفيقي، منذ أن سرقت منّي حيطان هذه المدينة أجمل صديق. عشقته خارج المعتقل، وازددت التصاقاً به وهو يبحث عن حروفه الضائعة بين الحيطان العالية. كان يكبرني بعشر سنوات، وكنت مراهقة. كان شعلة من الوعي، مسيّساً وكنت طفلة. أعشق وأمحو قبلات النهار لأستعد للغد القريب. لكن معه الأمور تغيرت كثيراً. أُصبتُ بكل حالاته، قبل أن تتهاوى الأسوار التي بنيناها مع بعضنا بعضٍ، وقبل أن أعرفك في تلك الليلة الشتوية الباردة في ذلك النزل الذي يشبه القلعة وبتنا متعانقين حتى الصباح. كنت في حاجة إلى رجل. إليك. إلى صوتك، وليس إلى حطام آلة، كلما رأيتها ارتسم في ذهنها المخدع المصنوع بالأغطية. المخدع؟

ـ أووف.. تلك كذلك قصة أخرى قاسية. ألومه أم ألوم نفسي؟؟ أشعر أن أشياء كثيرة تكسرت في داخلي، بعضها انقرض نهائياً، وبعضها الآخر، يتهاوى الآن بدوره قطعة قطعة كأحجار الوديان التي ساخت التربة التي كانت تتكئ عليها. الدنيا كانت واسعة عندما كنّا صغاراً، وعندما كبرنا ضيّقوها علينا. صرتُ امرأة في غابة موحشة. كلّ يوم أحد وأربعاء، أحمل حوائجي وانزل باتجاه السجن المركزي. خمس سنوات، بدون أن أتغيب يوماً واحداً عن طقوسي. في أيّامه الأولى كان فرحاً رغم قساوة المعتقل. كان سعيداً، لأن وجوده في هذا المكان، معناه أنه كان يحتل جزءاً من ذاكرة السلطة

المرتبكة. ذات مرّة فاجأني وهو يقهقه مع زملائه بأعلى صوته وهو يقول: شَفْتِ يالالّه مريم. لقد صار لنا مخبأ صغير. عش عصفور، نمارس فيه حقنا في الحب والحياة.

كان العش مخدعاً، عبارة عن قماشات حُوّلَتْ في شكل مربع. بداخلها مَطرح عسكري، من الكْران القديم. نفعل فيه ما يفعله جميع الأزواج الذين يُسمح لهم بالزيارات. نختبئ. لا ننزع ثيابنا. نندفع بعنف، نحو لذّة مسروقة، ندفع ثمنها داخل الصمت والشرط اللاإنساني. بسرعة، لنترك المكان للمنتظرين بعدنا. بعدها صار المخدع جزءاً من مخيلتنا. كلما دخلتُ عليه، ارتشقت عيناه نحو مربع القماش الأبيض.

بعدها صار صامتاً مثل الخوف.

لم يعد يتحدث عن عش العصفور.

عندما ننتهي من المخدع، نجلس قبالة بعضنا البعض. ينظر إلي ملياً. أتأمّله. أكتشف لأوّل مرّة الشعرات البيضاء التي تحاول أن تختبئ عبثاً مع بقية شعر رأسه. ذات أربعاء، لم أعد أتذكر لا شكله ولا لونه. كان المفترض أن أتغيب عنه لأوّل مرّة بسبب اجتماع لجنة حقوق الإنسان التي دفعني نحوها، للإنضمام إليها، وفعلت ذلك بدون ندم، إذ اكتشفت ما يختبئ من صرخات وراء الحيطان العالية. حتى هذه المرة لم أتغيب، لأن الاجتماع أُجّل لوقتٍ لاحِق. فكرت في مفاجأته، ربما تغيرت أشكال الأسوار التي بدأت تصعد بيننا. عندما دخلت عليه شعرت بارتباكات كبيرة على أوجه أصدقائه. كانوا محرجين لشيء لم أكن أدركه. انسحبوا فجأة. رأيته يخرج من المخدع، تتبعه ثريا صديقتنا المشتركة. أدركت منذ تلك اللحظة وبشكل نهائي، أن الأشياء التي كانت تجمعنا صارت ضئيلة.

تعبتُ منه، وتعب منّي كثيراً.

غبتُ عنه والتقيت بك.

ثم قلت في خاطري. واجبي أن لا أتركه في منتصف الطريق. وإذ كان يبشرني بخروجه القريب من المعتقل، وبجدية علاقته مع ثريا قلتُ له.

- إني حامل.

ارتبك لحظة ثم تماسك.

- منذ شهور.

- لا يعقل.

ثم بدأ يحسب على رؤوس أصابعه ويُقْسِمُ برأس والديه. أنه ليس هو، وأنه لن يعترف بالصبي الآتي، لأنه سيخرب كلّ مشاريعه مع ثريا. كان يتحدث ووجهه ملتصق بالحائط القديم. ثم التفت نحوي.

- مع من؟

- يخصّني. جئت لأخبرك لا لأحاسبك.

التمعت عيناه بالفرح أو بالحقد. لا أدري. ثم أفرغ كلّ ما كان في خاطره. حررته من داخله. شتمني، اتهمني بكل الأوصاف. لم أردّ. كنت أرثي لحاله، وكان يدرك ذلك. ثم صمت كمحرّك عاطل.

سألني مرّة أخرى عن الكائن الذي كان يربطني بك ويكبر في بطني كالقمحة.

- هل هو باختياركما.

- لا. من رجل طروبادور، ما دُمْتَ مصرّاً على أن تعرف. التقينا في ندوة عربية لا معنى لها كالعادة سوى أنّا التقينا. كان حارّاً مثل عود النوار، وكنت أكتشفه كمن يدخل موجة، ثم بحراً، ثم... ثم نمنا في نزل يشبه القلعة.

تحسس شعراته البيضاء وقسمات وجهه المتعبة.

- معه تحملين، ومعي ترفضين.

ـ لا أدري. بيني وبينك المهمّ تكسر قبل أن يأتي هذا الرجل الغاوي المولع بالموسيقى والكتب، والحروف والأبجديات الضائعة. الكثير مما كان يجمعنا أنا وأنتَ كان مزيفاً. كنّا نبني أحلاماً صنعوها لنا سلفاً.

ـ هل لأن الأنظمة سقطت، يجب أن نسقط نحن كذلك؟

ـ يا ولد الناس أنا لا أعرف السياسة، بل أحياناً أمقتها. ولكنّي أعرف أن كلّ ما بني على الخراب، يحمل في تكوينه شيئاً من الخراب.

ـ وهل هو على علم بذلك.

ـ هو الذي أقنعني بضرورة العودة إليك ومساعدتك قدر المستطاع. وعندما أخبرته بالأمر، جاء من بعيد راكضاً وهو حزين. عندما سألته لماذا جئتَ؟ وأنا على حافة الصراخ في وجهه.

قال.

ـ أنا أحبك وأخاف عليك. قلبك رهيف جداً على وضع مثل هذا.

فرحت لأنه لم يُعطني إجابة أخرى كالتي أسمعها دائماً. المجتمع صعب؟ الوالدان لا يقبلان؟! لكن... والوجاهات الزائفة. ولو فعل غير ذلك، كنت أسقطت الجنين. حرمني من هذا المبرّر الذي كنت أبحث عنه في أعماقي.

كنت في حاجة ماسة إلى رجل يحبني بقلبي المتعب، ولا يفكّر في مكاني. رجل واسع الصدر، لا يتذكر كلما رآني، الماطْلاَ العسكري والمخدع، ويصمت بعدها، أو يحدثني عن تاريخ الحرب الأهلية في أمريكا، والصراعات الدولية حول نيكاراغوا، والفيتنام، والاتحاد السوفياتي. في حاجة إلى كائن أبسط من كلّ هذه الأمور. يحدثني عن أشيائه الصغيرة. عن طفولته المدهشة. عن مدينته البحرية. تقول لي دائماً أني لستُ مسيّسة.

لم أدّعِ ذلك. لست مهيأة أبداً لأن أكون قائدة كبيرة. أفهم مثل

جميع الخلائق، أننا عندما نتحدث عن الثورة، يجب أن نحسها في أعماقنا وأن نمارسها في تفاصيل حياتنا، أولاً ضد تخلّفنا الذي ينام في أعماقنا كالبرك الآسنة، وإلاّ لا معنى للكلمات. أشعر أنه وراء الخطابات الكبيرة، يختبئ كذب كبير ووراء الأشياء الصغيرة والعفوية بداهات يجب أن نتعمقها، وأن نتقن التصرّف معها.

وضع رأسه بين يديه. كان كالحطام القديم، ثم صرخ بأعلى صوته:

- أخرجي.

عندما خرجت لم أعد إلّا مرّة واحدة. وقفت عند بوابات معتقل المدينة الكبير. دهشت من ضخامتها، لأوّل مرّة أكتشفها. كنت دائماً أقتحمها منحنية الرأس. قلتُ في خاطري ليكن. هو اختار وها أني أختار نهائياً، أن لا أعبر عتبة هذا المكان الذي يورثني ألماً قلبياً إضافياً.

منذ ذلك اليوم لم أره. كان ماوياً متطرفاً يحلم بتدمير الدنيا على رأس الحكام. مع الزمن، هي التي تهدمت على رأسه.

سمعت بعدها أنه خرج بعد الإعفاء الذي شمله وشمل الكثير من زملائه. تزوج بثريا التي قاطعتني مع أني لم أكن أريد ذلك. فقد أقنعت نفسي، بحقها في فعل ما تريد. لكن علاقتهما لم تدم طويلاً، ابتلعته انشغالاته الكثيرة، ليتحول إلى تاجر عاطل ثم إلى صحفي، ثم إلى لا شيء. بينما حملت هي حقيبتها وسافرت باتجاه اسبانيا مع صديق أوروبي.

أحزن الآن لمريم. فهي بعيدة، وأنا تأكلني الأشياء الغامضة لهذا الفجر البارد.

تعود بوجهها الطفولي وتعنتها.

حاولت أن أقنعها أن تسقط الطفل. قلت لها، أن عنادها مجنون.

ـ قلبك يا مريم.

فلتت منّي بدون تقصّد

ـ ومَالُ. أنا مهددة بالموت حملت أم لم أحمل.

صممنا بعدها نهائياً أن نتزوج.

كانت الاختراقات قد بدأت منذ تلك اللحظة ولم أعد أدري إذا كنّا نحن الذين ركبنا رأسينا؟ أم رأسَانا هما اللذان ركبانا؟ لم يكن الأمر مهمّاً جداً.

قلنا. سنتزوج، سنتزوج، لماذا لا نفعلها الآن؟ على الأقلّ لا يكبر الولد القادم مُعَقّداً، في مجتمع مريض حتى العظم بداء فقدان المناعة.

قلنا للموظف في البلدية.

ـ نريد أن نتزوج زواجاً مدنياً، قبل مجيء الطفل. أنت تعرف هذا المجتمع وطبيعته.

تقلّص وجهه، وتفحّم فجأة، بالرغم من أني رأيت إشراقة ملأته عندما دخلت مريم هي الأولى. يبدو أن حضوري النحس كالعادة هو الذي خرّب كلّ شيء.

ثم قال بلهجة الآمر والخائف في الوقت نفسه.

ـ حَبّيتُوا تباصِوْني؟؟ تورّطوني في عملة قبيحة؟؟ حرام يا لاَلّهْ. تَحّمْلي وتجيبي باش نخبّي عليك؟؟ والله ما تْكونْ.

اصفرت مريم ولم تعد قادرة على كَتْم غيظها.

ـ واشْ درتْ أنا حتى تخبّي عليّ يا ولد الناس. أنت موظف بلدية وإلا إمام زاوية؟

ـ بزوج. ألم يقُلْ. من رأى منكم منكراً، فليغيّره.

ـ من قال؟

ارتبك لحظة.

- ربّي؟

- هذا ربّك أنْتَ مش ربّي أنا. دَزْ معهم أنت وأوراقك وربّك.

ثم صفقت الباب الحديدي الخشن وراءها.

وظلت الجملة تتردد بين شفتيها.

«بلاد ميكي هذه. يصادرونك حتى في أدنى حقوقك. البلاد الوحيدة في العالم، التي يخافون فيها عليك من نفسك!؟».

بدأنا نتعود من جديد على حياة الصعلكة. الحصول على ورقة تافهة، كان يحتاج إلى وساطات كبيرة لم نكن مؤهلين لها. اقتنعت مريم أن نعيش مع بعض، وطز فيهم وفي قوانينهم. كانت تكره الأوراق الإدارية كرهاً شديداً.

الحمد لله، جاءت منهم، ولم تأتِ منّا. ستسافر قريباً إلى دمشق، ونرى ماذا نفعل.

قالتها، ونحن نقطع الطريق المؤدّي إلى قاعة المحاضرات *عيسات إيدير*. عند البوابة، أعدنا قراءة عنوان المحاضرة الذي كان يملأ اللوح الخشبي القديم. *الإنسان العربي بين الحقّ والواجب*.

بمناسبة اليوم العالمي لحقوق الإنسان.

قالت مريم، وهي تسحب باتجاهها الباب الخشنة لفتحها.

- هيا يا سيدي، لندخل لنرى وضعية هذا القرد المسكين الذي اسمه الإنسان العربي.

عندما دخلنا إلى القاعة، بل لم نتخطّ العتبات الأولى، ارتشقت عيناها بعيني أحد المحاضرين من الذين كانت المنصة تعجّ بهم. مدّت يدها إلى فمها. عرفت أنها كانت تريد أن تتقيأ. أسندتها بذراعي وتدحْرجنا باتجاه دورة المياه.

عندما تقيأت بدأت تبكي وتغسل عينيها، ثم تبكي، وتغسل وجهها.

لم أكن أعرف السبب بدقّة.

- واش مريم؟! من محاضرة إلى مندبة؟!

قالت وهي تحاول أن تحبس شهقتها.

- أتعرف. إنه الرجل الذي استنطقني، وعرّاني مرّات عديدة عند بوابة المعتقل. ها هو ذا يتحول بقدرة قادر إلى عضو في لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان.

- ربما ليس هو.

قلتها وأنا لست متيقناً مما قلت.

- الله لا يمكن أن يكون مجنوناً ليخلق أربعين شبهاً لهذا المخلوق. واحدٌ كافٍ لأداء المهمّة الوسخة Un seul suffit pour faire le sale bouleau.

غرابة في مخلوق هذه البلاد. هو الشخص الوحيد والأوحد الذي يصلّي الفجر، ويزني الظهر، ويسرق في العصر، وفي العشاء يستغفر ربه ويصير وديعاً بين فخذي زوجته. ولا يشعر مطلقاً بأي حرج ولا بأي تناقض أبداً. يمشي وفي داخله شخصان: واحد ميطافيزي والآخر عقلاني بينهما زجاج شفاف لا ينكسر. كلّ واحد يقبل بالآخر ولكلّ وظيفته الخاصة.

- لكن ما العلاقة؟!

- هذا الرجل الذي تراه أمامك على المنصة. كان صديق زوجي، الحميم. كان مناضلاً يسارياً. لكن سنوات السجن والاعتقال علمته كيف يكون وديعاً. باع أصدقاءه واحداً واحداً وفضح كلّ تنظيمهم السرّي. ثم بدأ يستمتع بتعذيبهم. يقول دائماً. أعدائي لكم، أمّا أصدقائي فأنا أعرف نقاط ضعفهم. هناك وجوه تنطفئ داخل الذاكرة بسرعة. وهناك وجوه لا ننساها أبداً. وجوه الناس الذين

نحبهم لأوّل مرّة بصدق ويؤذوننا بعمق. الأشياء العادية وحدها تُنسى.

اليوم لم يبدأ بخير. شعرت بثقله منذ الصباحات الأولى. عندما استرجعت بعض قواها، كانت قد امتلأت بالأشياء الغامضة والخوف. قالت أنا لا أعلم، إذا كان عليّ أن أفرحِ أم أحزن في ظروف مثل هذه. الناس في هذه البلاد ينسون كلّ شيء بسرعة قاسية وقياسية. أرأيت كيف كانوا يصفقون عليه وهو يتباكى على وضعية الإنسان العربي؟.

قلت وأنا أبحث عن لغتي الضائعة:

ـ أوف. تعرفين هؤلاء الناس لا يتحركون إلاّ بجماعاتهم التي تتقاضى مرتباتها مقابل القيام بمهمّة التصفيق!؟

دعوتها إلى مطعم صغير في زاوية الشارع الكبير، متخصّص في البيتزا الإيطالية، لتنسى همومها، وما كدنا نجلس في المقعد الخلفي، حتى دخل علينا رجل يشبه الشرطي، أو العسكري، ولكنه لم يكن كذلك. كان خليطاً من هذا وذاك.

طلب أوراقي.

طلب أوراقها.

ركب نظارتين. حاول أن يقرأ بصعوبة كبيرة.

ثم سألنا كمن يكمش طريدة فجأة في مصيدته.

ـ متزوجان.

ـ نعم.

ـ الدفتر العائلي.

ـ ما عَنْدَنَاشْ.

شعرت في لحظة من اللحظات، أن صاحب المطعم يدبّر لنا مقلباً كعادته، عندما يريد أن يرفّه على زبائنه. حككت على رأس الرجل.

ـ والله تشبه الشرطي. هَفَّيتنّا يا وَّحْدْ المشْخُوطْ.

ـ نشبه لأختك يا عطاي.

كانت الكلمات خشنة لم أكن أملك حيالها إلّا الخيبة والصمت.

لم يُتِحْ لنا حتى فرصة التأمّل والتساؤل. خرج وبسرعة عاد بكتيبة مدججة بالأسلحة. عرفت أن الرجل لم يكن يتمسخر مطلقاً. عرفت من وجوههم وهيئاتهم أنهم مجموعات لا وظيفة لها، سوى تصيد الناس الذين يبدون بشوشين على غير العادة، خصوصاً إذا كان المجتمعان رجلاً وامرأة. هذه الصرعة الجديدة جاءت مع الحاكم الجديد. حاولت أن أشرح لكبيرهم، لكنه سرعان ما انزلق مع كتيبته في سيارة وتركنا في قبضة أيادٍ خشنة، سرعان ما دفنتنا داخل سيارة قديمة، دوختنا بروائحها الكريهة، وقيء السكّيرين، قبل أن تضعنا عند مدخل الكوُميساريه.

بتنا في مخفر. كلّ واحد في حفرة بين أربعة حيطان باردة.

في الصباح كانت مريم مقهورة وحزينة. قالت أن أحدهم حاوَل اغتصابها، لكنّها هددته بالصراخ بأعلى صوتها. فتراجع، لكن صاحبه الذي كان يتأمّل المشهد شجعه.

ـ نيِكْ لها رَبْهَا واش رَاحْ يصير؟؟ قحبة وخلاص. بنت لكلّ الناس.

لكن لوحده تراجع ورماني في زاوية داخل المربع الحديدي والإسمنتي.

الأيام التي تلت كانت ثقيلة ومهلكة. حتى نهايات الأسبوع التي كنّا ننتظرها بشوق لننزل إلى عمق شوارع المدينة، لم تعد تعني لنا الشيء الكثير منذ أن غُيّرَ يوما السبت والأحد بيومي الخميس والجمعة.

نهايات الأسبوع صارت قيامة. ننتظر بفارغ الصبر زوالها لنعود إلى العمل. كانت تتكرر بشكل ميّت. الناس لا يخرجون، وإذا

خرجوا فمن أجل الصلاة ثم العودة إلى البيت بخطوات رتيبة محسوبة، ومتكررة. انسحب كلّ شيء من المدينة. الشوارع الزاهية. الأغاني. الألوان. الألبسة. الصبيّات. صارت المدينة فجأة ذكورية وبدون معنى داخلي. حتى الحَمامات التي تعودت أن تملأ المكان أيام الآحاد مع السياح، والزوار الوافدين أصبح من العسير عليها تحمّل خواءات الجمعة. غادرت أماكنها، أو انزوت داخل الحفر المغلقة، في الأسطح والسقوف، وسط ظلمة تزداد كثافة في أعيننا.

وكلما تذكرنا الأوراق، انتابنا شيء من القلق والعبث من المحيط. الأصدقاء الذين نعرفهم، كلهم أكدوا على أنّ وضعيتنا كانت صعبة وأحياناً هناك من يؤكد أنه ميئوس منها.

ـ أواه!! مستحيل. تتزوجان ومعكما ولد. هذه قَاعْ ما تَصراشْ.

ـ آ ولد عمّي كثَّرتوُا. الدولة معها حق. كان لازم تتزوجوا مثل الناس أوّلاً.

ـ كنّا نقاوم، وكانوا، كلما رأيناهم يزداد يأسنا.

ـ يا الله! هل مسألة فردية مثل هذه، وربّما تافهة، تحتاج إلى كلّ هذا القلق؟

ـ أواه!! شيء ما في هذه البلاد، يسير بشكل أعوج

ـ يا حبيبي. هؤلاء القوم، منذ أن ركبوا القطار، وهم يسيرون بشكل أعوج. الفارق الوحيد هو أننا لا نكتشف هول المأساة إلّا عندما نصطدم بها بشكل فردي. هذا كلّ ما في الأمر. أمّا الفظاعة، فهي بدون حدود. بلاد. كلما حاولت أن تحفر في الأعماق، ازداد يأسك.

قالت مريم، وهي تحاول أن تشد رأسها بين يديها خوفاً من أن ينفجر.

كنتُ قد بدأت أتهيّأ للسفر إلى دمشق.

دمشق. الشام. كانت رحلة لاكتشاف خفائي وداخلي قبل أن تكون منحة دراسية. كانت تلك مدينة، للألوان والشوق، والسحر، وبعض التأريخ الحزين.

قالت.

ـ لم يكن في نيتي السفر، لكن هذه المرة، وين تروح، نروح معك. حرام أن يلد المرء كائناً جميلاً داخل هذه المدينة التي حوّلها ورثاء القراصنة الأتراك الى قيامة.

وهناك، في قبو مفتوح على سماء نصف مغلقة أنجبَتْ «ياسين». لا أتذكر من ميلاده سوى جملتها التي بقيت في ذاكرتي كالشعلة، وهي ترفعه بين يديها كالمسيح الصغير.

ـ طز فيهم، وفي قوانينهم. ياسين يَسْواهُمْ ويسوى كلّ قوانينهم التعسفية. شفت ما أجمله.

وعندما أنجبت ريما قالت.

ـ سأظل في حاجة مجنونة إلى هذه المدينة. الشام صارت منّي وفي. لقد شربت من بردى وانتهى الأمر. ماء يتحول في ذاكرة المرء إلى مدينة.

ريما قضت بعض عمرها هناك. لا تتذكر من ميلادها إلا ضبابة جميلة، بلا لون، يختبئ داخلها المسجد الأموي بساحته الواسعة وحمامه الكثير، وصحنه الواسع، وبقايا نقوشه الذهبية وسوق الحميدية المكتظّ بالروائح والعطور، والعرق، والبشر والأشياء الغامضة، والمتحف الحربي وبقايا طائراته القديمة التي صارت تسلّي الأطفال، أكثر مما تسلّي الذاكرة، وأرصفة البريد المركزي العالية نجلس عليها قليلاً، نكسر الخبز في مناقر الحمامات القليلة التي تزور المكان، ثم ننسحب ونحن ندفع ريما بكروستها، وياسين يتدحرج في يدي مثل وردة برية، وقصر العظم بساحته النادرة، ودروب سوق ساروجا وحي الديوانية، وحديقة السبكي ومطاعمه

الصغيرة ثم ثلوج بلودان التي لا تنساها، فقد غرقت فيها ذات مرّة حتى الرقبة بلباسها التركي الأحمر والمنتفخ.

نسينا البلاد ونستنا.

لكن عندما عدنا لها نهائياً بطفلين وشهية كبيرة للعشق، كان قراصنتها المتنكّرين، قد صاروا رجالاً محترفين يمارسون لطافاتهم البشعة بشكل معلن. فانكفأنا من جديد داخل الذاكرة، واندفن الأولاد داخل أوهام وحكايات في انتظار يوم آخر.

3

4H - 30 MN

النوم انسحب نهائياً.

أزعجتني الخطوط الغليظة. مانشيت عنوان قديم:

19 جوان 1965. التصحيح الثوري يضع حداً للشعبوية.

جريدة الشعب (...) 196

طويت الورقة التي بدأت تتآكل.

لم أجد رغبة كبيرة لمعرفة البقية. البقية كنت أعيشها في هذا الفجر القلق الذي لم تنسحب ظلمته بعد. كنت أبحث عماذا يختفي داخل هذه القصاصات وهذه المذكرات التي لا يربطها رابط مطلقاً، سوى كونها كومة من الكلمات، أينما رحلت، وجدتها تقتفي خطواتي؟ لقد صارت فيّ.

مسحت عيني، من أتربة الورق التي شعرت بحرقتها. لست أدري بالضبط، ما الذي جعلني أبحث عن صديقي الذي ضاع منذ ثلاثين سنة في مدينة غريبة، لم يكن يعرفها، ولم تكن تعرفه أبداً. عاودتني صورته. بل عاودني هو وهو يفتخر بشعره الأشقر المقصوص عند الجبهة في تسريحة «سطون» التي كان مولعاً بها. صديقي «جوني» ابن القرية الطيب. محمد هو اسمه الأصلي، لكننا نحتنا له اسماً جديداً لأنه كان مولعاً بالمغنّي Johnny Halliday.

ذات صباح، عندما كانت البلاد تطلي حيطانها بالجير الأبيض وترشق أعلام الأعياد الوطنية التي كانت أنجمها مجرّد انكسارات وانحناءات حمراء، كان هو يفاجئ والده بالرحيل، ومغادرة القرية نهائياً.

والده كان فقيهاً طيباً وصوفياً معزولاً. قال لأبيه:

ـ هذه البلاد لا تصلح لي، ولا أصلح لها. سنفترق. دعني أجرّب. ألم تقل دائماً، أرض الله واسعة.

كان صدر جوني ممتلئاً بالموسيقى والأشواق والألوان والنطّ الطفولي، والملعنات الصغيرة. مسح والده على رأسه وهو يحاول أن يخبئ المفاجأة الصعبة.

ـ روح يا وليدي. الله يلقيك الرحمة، ويحفظك من أولاد الحرام.

أتذكره الآن وهو واقف، عند موقف الحافلة، المواجه للمدرسة القديمة، التي حوّلت إلى مطعم مدرسي قبل أن تنهار نهائياً وتوضع مكانها بناية لا معنى مطلقاتً لوجودها. كان يحمل على ظهره جراباً أسود، يخبئ فيه بعض كسوته وأعداداً من مجلة: Salut les copains. كان حزيناً وجميلاً في

في ذلك الفجر البارد.على ظهره قيثارته الدائمة، وفي يده اليمنى، مذياعه الصغير (SHARP 6). منه يسمع المقطوعة، ليعيد عزفها بسرعة.

كان الأطفال، قبل أن يدخلوا إلى المدرسة يحوطون به. الكثير منهم لا يعرف مطلقاً اسمه الحقيقي. ينادونه «جوني» أو الصرار ويسمّون والده الفقيه، النملة مقلدين معلّم العربية الذي لم يكن يحبه. يقول عنه دائماً:

ـ هذا ولد حرام. لازم أمّه تكون يهودية وإلاّ رومية.

الفلاحون المتجهون نحو عيائهم اليومي، يقفون لحظة، ثم

ينشّون الأطفال المحوطين به للاستماع إلى عزفه وحركات رأسه. ويصرخون في وجوههم الصغيرة:

- روحو يا الفروخا. حابينّ تَفَلْسُوا كما وَلْد الفقيه، يا الله طِيروا الله يطيّر أعماركم.

يتزربع الأطفال باتجاه أقسامهم، وعندما يغيب معلمهم الذي لا يحضر إلّا نادراً، ينسحبون صوب بيوتاتهم الطينية المتراصّة الواحدة على الأخرى مثل العرائس الروسية، لا تكاد تخرج من دار حتى تجد نفسك في حوش آخر، وهكذا.

عندما يكون «محمد» جوني على ديدنه، ينزل باتجاه ساقية القرية التي تخترق أطراف المساكن، لتمرّ عبر الحقول المتراصّة على أطرافها: جنان الحسين بو قحقوح، جنان عمّي ابن عاشور، جنان الفقير محمّد، جنان أحمد المشّة، جنان خالي قدّور لتنتهي في الجبال المطلّة على البحر والغابة.

جوني لم يكن يتساءل كثيراً. كان يأكل قليلاً، ويعشق الموسيقى كثيراً. يشتهي كثيراً، أن يخالي صديقه الواقف معه في أذنه بغمزة صارت جزءاً من عادات حديثه.

- ما نبقاش في هذه البلاد. لقد حرقَتْ فرصتها. عرفت كبار الفنانين ثم رمتهم في دهاليز الموت. هل عرفت رِينات الوهرانية مدينة أخرى غير مدينتها وهران؟ هل عرفت أَلِيس فيتوسي عشقاً آخر سوى مدينتها قسنطينة وأحياءها الشعبية. هل عرفت طيطما حنيناً لغير تلمسان. وِينْ راحوا؟؟ الموسيقى يا صاحبي خيط من النور أمّا أن نلمسه بعمق فيعمق إنسانيتنا، وإمّا أن نمرّ بجانبه، بغباء، فنتحمل الظلمة التي يورثها بعد ذلك.

لم يكن كلامه يهمّ أناساً كثيرين. فقد كانت تصفيات الحسابات القديمة، والأناشيد الوطنية هي صوت البلاد الوحيد. بينما كان جوني ينكمش داخل جلده الرخو ويحزن طويلاً مثل الطفل الصغير بدون أن يسمع صوته أحد، وعندما يركض وراءه الأطفال وهم يصرخون.

- جوني الصّرار، جوني الصّرار، جوني الصّرار.

يندمج هو معهم، ولا تسمع إلّا قهقهاته العالية، قبل أن يتدخّل فلاح من فلاحي القرية وينش الجميع مثل الدجاج، وعندما يجده وسط الأطفال، ينكمش وجهه ثم يتأمّله بنوع من الحقد:

- هاه!! كبيرهم.. حمارهم!؟

كان جوني يعيش زمناً لم يكن له مطلقاً، ولهذا حمل حوائجه في ذلك الفجر البارد ورَكِبَ أوّل حافلة، كانت متجهة، باتجاه أبعد مدينة.

منذ ذلك الصباح لم يعد أبداً، فصارت القرية موحشة والساقية بدون صرّار.

كان يبحث عن معابره الخاصة وسط المدن، وبلدان لم يكن يراها إلّا في البطاقات البريدية النادرة، بينما كانت البلاد تحتفل بعيد استقلالها؛

وكان الضبّاط الوطنيون يتقاسمون غنائم الحرب الفائتة، ويبكون ببعض النفاق، الذين ذبحوهم أو دفنوهم، أو قتلوا أمام أعينهم. لقد تغيرت صورتهم كثيراً منذ أن دخلوا دروب القرية الضيّقة مع فيالقهم جماعات، جماعات، بألبستهم وجلابيبهم الخشنة، ترمي عليهم نسوة الأحياء الخلفية، السكر، والزغاريد الحارة، والملح، خوفاً من العين القاتلة، بينما هم في عبورهم وزهو انتصارهم، ينحنون على الأطفال. يُقبّلونهم على رؤوسهم الصغيرة، يخرجون محارمهم، يمسحون بها مخاط الأطفال أو دموعهم.

لم أكن أعلم وقتها إن المجاهدين يملكون محارم. كنت أظنهم يفعلون مثلما كنت أفعل. كلما سال المخاط في الفجريات الباردة، يمسحونه بأكمّ أقمصتهم التي تسوّد مع الزمن وتتآكل ومعها يتآكل كلّ القميص. قلت وقتها في خاطري، لقد كانوا أفضل منّا، نحن الذين

لم نكن نملك ما نأكله، وعندما نملكه بعد الشّطط، يأتي من ينبه أمّي أن سكان الغابة لم يأكلوا منذ أكثر من أسبوع. فتلملم كلّ شيء وتصعد به إلى الجبل وراء شويهات جائعة كأشجار الخروب اليابسة، محمّلة بصفائح الخبز، والدجاج، وحبّات البطاطا المسلوقة والبصل والطماطم. عندما أتعب، ترميني على ظهرها لأنام على هدهداتها وهي تتسلق الجبل وراء نعجاتها وعلى رائحة الخبز التي تصعد من سلتها. عندما تصل، توقظني، تتداخل مع أشجار الغابة حتى تصير جزءاً من ظلالها. تُهَمْهِمُ قليلاً، ثم تقرصني. أصرخ. فيخرج من بين الظلال رجل، يأخذ منها السلّة، يسلّم على رأسها ثم ينطفئ بين الأشجار. لا بدّ أن يكون الكثيرون منهم طيبين وخجولين. كان معظمهم من فلاّحي المنطقة الذين نزعت منهم أراضيهم بالقوة فالتحقوا تلقائياً بالغابة بعدما امتلأت قلوبهم بالدود وعيونهم باليأس. لا يعرفون لا الكتابة ولا القراءة. ينفذون ولا يسألون كثيراً. فهم يعرفون مسبقاً أن أصحاب الحلّ والربط، في العواصم الكبرى والمدن البعيدة، يملكون وحدهم الحقيقة.

لم يكن الأمر مهمّاً جداً. إذ بمجرد البدء في الاحتفالات الكبرى، في تلك الصيفية القائضة التي أمضت فيها أختي كلّ وقتها تهيئ علم البلاد وتحاول بذل أقصى جهودها لإتقان النجمة التي كانت ترهقها. تقول:

- أصعب المراحل في العلم الوطني، هذه النجمة. ثم تلتفت إلى النافذة المطلة على الفراغ، وتنتظر عودة والدي الذي كانت على يقين، بأن عودته وشيكة، وما دام لم يُعرف له قبر. كلّ الذين عرفوه من قريب أو من بعيد يقولون أنهم سمعوا أنه قُتِل. فجأة، نزلت الدبّابات الفرنسية من رأس الثكنة باتجاه وسط القرية التي كانت داخل الصّخَب تعيش احتفالات تباشير أول عيد وطني. نزل ضابط فرنْسي من إحدى الدبّابات وطلب بكل أدب أن نحتفل داخل البيوت، لأن الوضع كان ما يزال مرتبكاً ومعقّداً. تفرّق الناس بدون أسئلة كثيرة، وعادت الدبابات من حيث جاءت.

في الصباحات الأولى من الأيام الموالية، كان الفرنسيون يملأون شاحناتهم ويغادرون، بينَما البعض الآخر يُحضّر نفسه وينظِّف مكانه من كلّ الأدوات التي لا يحتاجها، استعداداً للذهاب النهائي. وكنا نحن في الجهة المقابلة، مُزَرْبَعين على الحقل المحروث، بيننا وبينهم وادٍ صغير. الشمس كانت قاسية، تضرب للرأس. من حين لآخر يرمون قطعة لا يحتاجونها، فيتقاتل عليها الناس من وراء الوادي. وكنت كلمّا حاولت أن أحصل على إحدى القطع المرمية، تدوسني كثرة الأرجل. فجأة أشّر ضابط من وراء الوادي نحوي بإصبعه. طلب منّي أن أتقدم نحوه. ثم أن أقطع الوادي. في البداية ترددت ولكنّي سرعان ما أغمَضتُ عيني وقفزت داخل الوادي الناشف، وفجأة وجدتني أقف وجهاً لوجه مع الرجل العسكري الذي أشّر لي من بعيد بأن أتقدّم. سألني عن اسمي. سنّي. ثم سلّمني كيساً من الشوكولاطه المطحونة.

– Tiens. Prends. C'est du chocolat.

ترددت مرة أخرى. قرأ بعض الخوف في عيني وأنا أحاول أن ألْمَسَ خوف أختي من بعيد، والتي ظلت تخوّر عينيها الكبيرتين.

ـ لا تأخذها! لا تأخذها! إنها مسمومة.

لا أدري إذا كنت سمعتها، أم أنا الذي تخيّل الحالة لوحده. اشتهيت الشكولاطه المطحونة. تمنيّتها أن لا تكون مسمومة. ضحك العسكري منّي ثم أدخل إصبعيه داخل الكيس. أخذ قليلاً من الشكولاطه، زحلقها في أعماق فمه.

– Tu vois! il n'est pas empoisonné!

ملأت حفنة، وضعتها في فمي، فصرت مضحكاً. لقد تحوّط فمي بكامله بالشكولاطه. على الضفة الأخرى، كان الناس يضحكون من منظري. ثم أخذني باتجاه أحد المخازن وهناك سلمني طاولة حملها معي، ورفشاً، وفأساً، وسجائر، ثم ساعدني على دفعها نحو الضفة الأخرى بدون أن يتجرّأ على قطع الوادي الناشف. ساعدتني

أختي على سحب كلّ هذه الأدوات التي لم أكن أدرك فائدتها، لكنّي ظللت متشبثاً بالشوكولاطه.

قبل أن أقطع الوادي سألني إذا كنت سعيداً. لم أُجبه. في الحقيقة كنت آكل بدون أن أتوصل إلى التخلص من خوفي، لكنّي عندما قطعت الوادي نهائياً صرخت بأعلى صوتي بجملة أملتها عليّ أختي:

– Hourrah! je suis trés heureux monsieur. Merci.

ثم اندفنت في حجر أختي بينما ابتسم الضابط الفرنسي وانسحب باتجاه زملائه الذين كانوا منهمكين بتفريغ كلّ ما يمكن تفريغه من المخزن. باكيت السجائر أخذه مني عمّي وهو يقول: أنت صغير على الدخان. سأعطيك فيه عشرين دورو. بعد عشرين سنة، مات عمّي وما زلت أنتظر العشرين دورو التي وعدني بها. الطاولة أخذتها عمّتي لكن أمّي استطاعت أن تنتزعها منها. بعد هذه الغنائم، التحقنا بالأفواج التي كانت تزحف نحو «كرطي الرصفة»، ثكنة تركها الفرنسيون بعد أن تم ترحيلهم بطائرات الهليوكوبتر، كانت تقع على رأس الجبل المطلّ على القرية، ولهذا كان الصعود نحوها مؤذياً وصعباً. عندما وصلنا إلى المكان المقصود، وجدنا المكان قد تقاسمته ثلاث عائلات. خالي بلحاج احتل القلعة المطلة على القرية هو وأولاده من الزوجة الأولى. ابنه العسكري، من الزوجة الثانية احتل البنايات المحوّطة بالقلعة وعلى المطعم ومخزن الأسلحة، وعندما حاولنا أن ندخل الثكنة، كانت العائلة بكاملها تقف في أوجهنا. صرخ خالي بلحاج وهو يحاول أن يمسح زبده الذي ملأ طرفي فمه.

- وحقّ محمّد اللي يخطو خطوة، نقلع له والديه. عدنا على أعقابنا من كثرة الخوف، وفي اليوم الثاني عندما حاولنا أن ندخل الثكنة من جديد، امتعض وجه خالي بلحاج الذي اسود من كثرة قلة النوم والعمل على تعرية سطح البنايات لأخذ الأخشاب والكتل الحديدية. والأحجار. قال وهو يمسح عرق جبهته وإبطيه.

ـ رجعت يا وليد أحمد؟؟!! رُوحْ قُلْ لُبّاكْ يْجي يَقْلَع لحجر مَعَنَا.

ثم قهقه بصوت عالٍ. كان يعرف أكثر من غيره، أن والدي خرج ولم يعد. ابتلعته الغابة ولا أحد يعرف قبره ويعرف أن أختي إلى اليوم، تنتظر عودته وما تزال تحسب السنوات وتقول في خاطرها ثم علانية. إذا لم يَمُتْ. يكون عمره تقريباً ثمانين سنة. تمنيتُ يومها لو كنت كبيراً وصرخت بنفس القوة في وجه خالي بلحاج، لكن طفولتي لم تكن كافية لمقاومة سلطته. لقد احتلّ الثكنة، وفي ظرف أقلّ من شهر، كانت النوافذ والأخشاب، وقطع الحديد والطاولات ومرابط الخيل، وبقايا الدبابات قد سُحبت باتجاه مسكنه الأصلي الذي لم يكن بعيداً. كلّ شيء أُخِذَ وتحوّلت البنايات إلى هياكل ميتة. حفرت ودُمّرت عن آخرها. خالي بلحاج استفاد من سطوة ابنه الكبير، الذي عمل مع الجبهة وظل مسلحاً حتى بعد انتهاء الحربّ. هو نفسه حمل الفأس في يد، وفي اليد الأخرى حمل رشاشاً ظل يهدّد به كلّ من كان يريد أن يتخطى عتبة الثكنة. طوال الأسابيع التي تلت، كنت مع الأطفال، نحاول أن نقتحم القلعة لنرى ما كان بداخلها، لكن عمّي بلحاج، ظلّ هو سيد الموقف، ينشّنا كالدجاج ويتهددنا، فنكتفي بالمشي على أطراف حيطانها العالية وتجميع عبوات الرصاص الفارغة. حتى هذه التسلية حرمنا منها ولد خالي بلحاج الدي ظل يتصيّدنا ويطردنا بصرخاته المعهودة.

ـ شبابي كْلاتُو الغابَة. هذا ما ربحناه من هده البلاد. في المدن أخذوا القصور والفِلاّت وهنا استكثرتم علينا ثكنة عسكرية!؟ يا الله روحوا اِلعبوا بْعِيدْ.

بين زمن كان يذهب، آخر كان يولد داخل القساوة، كنت أتقاتل من أجل البقاء بصعوبة. أتقاتل من أجل أن أكون في هذا المدار الذي لم يكن لي مطلقاً. بينما كان الناس يتناهشون من أجل شيء غامض، هم نفسهم لم يكونوا قادرين على معرفته.

4

4H - 40MN

كان تعب ما يعتري مفاصلي ولكنه لم يكن قادراً على توقيف رغبتي الملحّة في البحث عن شيء غامض داخل هذه القصاصات الصحفية التي جمّعتها طوال السنوات العديدة الماضية. فجأة استوقفني خبر في المذياع الذي لم يكن يغادر تنقلاتي المختلفة.

[لقد تمّ التعرّف على قاتل الشاعر والفنان يوسف، وهو القاتل الثاني بعد الحلاوجي ـ الخضار. ويعتقد أنه عضو في فرق القتلة التي تقوم بعمليات الاغتيالات أو بتمويلها. وسنوافيكم بتفاصيل أكثر في أخبار الثامنة].

وبالمصادفة التصقت عيناي بقصاصة طويلة، كانت عليها صورة الشاعر «جون سيناك» وتعليق صغير تحت الصورة. قرأته، رغبة للتقيؤ ملأتني من رأسي حتى أخمص القدم:

وُجِد الشاعر الفرنسي جون سيناك مذبوحا تحت طاولة الأكل، وبجانب رأسه، قنينة نبيذ (سيدي إبراهيم). ويعتقد أن الجريمة هي مجرّد تصفيات خاصة، خصوصاً وأن سيناك كان لواطياً..

المجاهدالأسبوعي (...) 197

تمنيت أن أصرخ. أن ألعن هذه العيون التي انفتحت على الدنيا

متأخرة. «سيناك» كان شعلة هذه البلاد وحبّها. كان مجنوناً بالدهشة، لكن العين التي تترصد لم ترحم شجاعته ضد الذين حَرّروا البلاد ثم بدأوا يسرقون كلّ تفاصيلها الجميلة. اختار أن يكون جزائرياً. كان فوضوياً ومشاكساً ومحباً للشعر والدنيا، فأعطته مدينته كفناً وبياضاً وسكيناً همجياً.

أعاد المذيع الخبر من جديد، وهو يكرر بأنه تم التعرف على قاتل يوسف.

يوسف قتل قبل يومين. الحضور إلى دفنه واحد من المبررات التي تلحُّ عليّ للخروج من هذا القبر الذي لا شيء فيه يصلح، سوى مواجهته للبحر.

تنتابني مشاهد القيامة. أستحضر وجه مصطفى أتاتورك وأنا أصرخ. الحماقة ارتكبت منذ زمن بعيد عندما وقف الطهطاوي على مشارف باريس وهو يحاول أن يفتح صدره نحو عطور المدينة ومتاحفها ومقاهيها وماكيناتها ويبحث لها عن تأويل مستحيل داخل المصحف الذي لم يغادر يمينه. هل يملك حكّامنا بعض شجاعة مصطفى أتاتورك؟

أوف. أشعر بأن هذا اليوم استثنائي وعليّ أن أقوم بكل الترتيبات الممكنة للخروج من هذه الحفرة والقيام بمهامي الاعتيادية. المرور على الجامعة، المطبعة، الحوار مع نادية. قالت وهي تكلمني عبر التلفون.

ـ لا تعطني اسم مطعمك فأنا أعرفه. نتفق فقط على الوقت.

ثم حضور التجمع الاحتجاجي. الجنازة. فالعودة إذا كانت الرحلة ميمونة.

لكن عليّ قبل ذلك تحديد كلّ المسالك. مسالك الذهاب والعودة. ليلة البارحة حاولت أن أفعل ذلك ولكنّي لم أفلح. استعصى عليّ كلّ شيء. فجأة ملأتني صورة مريم وياسين البعيدين عنّي منذ زمن.

حاولت أن أنسى، أن أخلق غيمه بنفسجية كالعادة، أتدحرج داخلها ولكنّي أخفقت. مسحت ريما على رأسي قبل أن تذهب إلى فراشها.

- بابا. ماراكش مليح. تفكر في ماما وياسين؟

- فيهما. فيك. في هذه المدينة التي تموت. في الناس الطيبين الذين تملأهم الأسئلة المستعصية.

- بزّاف عليك هذا العمل. خلّ شْويَ للغد.

- غَداً أفكّر في النزل الي المدينة.

اصفرت ريما، وعلا وجهها بعد ذلك بياض الخوف. عندما قبلت جبهتي شعرت بحرارتها وخوفها.

- أوف يا بابا. أنت مثل ماما. كي تحبّ تركب راسَكْ تركبه. ماعليهش عمو يوسف كان نَاسْ ملاحْ.

- شفْتِ يا ريما. أنتِ تكبرين بسرعة!

- آه يا بابا. أنت تعرف خير منّي. الناس في هذه البلاد يكبرون بسرعة ويموتون بسرعة.

لم أقلّ شيئاً. أصلاً لم أكن أملك جواباً، فقد هربت كلّ الكلمات من ذاكرتي وتجمعت في زاوية ما، شعرت بها وهي تتداخل فيما بينها خوفاً من شيء غامض كان يريد ابتلاعها.

وهي متجهة نحو سريرها، التفتت ريما نحوي للمرة الأخيرة قبل أن تندفن في فراشها.

- تعرف غَدَاً وَاشْ من يَومْ؟

- أعرف.

- تصبح على خير.

- وأنت كذلك.

سمعت صمتها وحزنها وهي تبحث عن مكانها داخل سريرها

الصغير. غداً يوم الثلاثاء. اليوم الذي يُخْرِجُ فيه القتلة عادة سكاكينهم لذبح المثقفين. كتبوا على حيطان المدينة، وفي المحلات، وعند بوابات الساحات والمقاهي الشعبية:

أيها الشيوعيون. سَتُذبحون حتى ولو تشبّثتم بأستار الكعبة.

قُلْ إنّ الإرهاب من أمر ربّي.

فكرت قليلاً عمّا يمكن أن أفعله. تأملت حيطان الحجرة الباردة. في لحظة من اللحظات شعرت بقساوة الوحدة. رأيت في زاوية البيت بالقرب من الطاولة العريضة التي تجلس عليها فاطمة عادة لتأمل وثائقها وأشرطتها، رأيت رزمة الأوراق والمذكرات والقصاصات الصحفية التي أحملها بشكل دائم. كانت مخزنةً للذاكرة المجروحة. سحبتها من مكانها. وضعتها على الطاولة، فكرت أن أحلّ خيوطها. لكن ضخامتها أخافتني إضافة إلى حساسيتي من أتربة الجرائد. فعدلت عن الفكرة لأختبئ مثل مريم في فراشي الذي كان بارداً.

وها أنذا أستيقظ في هذا الفجر الاستثنائي باكراً. أبحث عن شيء غامض مثل محكوم عليه بالإعدام لم يتبق أمامه إلّا ليلة واحدة ومصرّ على إيجاد تفسير لخِوفي داخل هذه الكومة من القصاصات والملاحظات التي كتبتها أو جمعتها من صحف مختلفة في فترات متفاوتة.

هذا الفجر، فجر يوم الثلاثاء كان يمرّ ثقيلاً. هو عادة اليوم الاعتيادي الذي كنت أنزل فيه إلى الجامعة للتدريس قبل أن أضطر إلى توقيف كلّ شيء، منذ ذلك الحادث الذي كلّفني أكثر من أسبوع كتابة في كراسة مذكراتي اليومية. الأمر في البداية كان يثير ضحكي. أكثر ممّا كان يثير تخوفاتي. وجدت في صندوق بريدي وبريد مريم في الجامعة رسالة منتفخة، فتحتها فإذا هي صورة كبيرة لامرأة جميلة، باستدارات مغرية، مرسومة باليد. كانت تلبس سروالاً فاتناً. ثم هناك مجموعة من الخطوط كانت تنسحب من

الشعر، والعينين والنهدين، والسرة، والزندين، والعانة، والفخذين، والقدمين، وأصابع اليد لتتجمع في نقطة خارج الجسد كتب بجانبها بخطّ عربي مغربي رديئ: أحذر أمام الله. كلّ هذا عورة.

أريتُ الصورة لمريم ثم قلت لها وأنا أقهقه:

ـ كنت أريد في هذه الحالة أن يرينا هذا العبقري النصوح الذي يسمّي نفسه «قِرميط» ما ليس عورة في المرأة فهذا أهون للحفظ.

ـ يا سيدي هؤلاء البشر، وصلوا إلى درجة من الظلام بحيث صار الإقصاء المطلق هو حلمهم. إقصاء جسد المرأة ونفي بصر الرجل. أنا أتساءل إذا كانت هناك قوانين في هذه البلاد؟

ثم بدأت الرسائل تتوالى وتتصاعد. من النصائح. إلى التهديد المبطّن. إلى التهديد المفتوح. المرّة الوحيدة التي أخذت فيها التهديد بجدية هي عندما وصلتني رسالة أوّل ما أثارني فيها هو خَتْمها الكبير الذي لم يكن يوحي بأية طمأنينة. كانت الرسالة مكتوبة بشكل لم يترك لي فرصة للتأمل أو حتى التساؤل:

أيها الطواغيت الصغار. سترون أي منقلب تنقلبون... الإنذار الأخير...

عندما قرأناها بعيون مرتعشة، قالت مريم، لنذهب إلى الأمن. على الأقلّ نحيطهم علماً بما يحدث. وعندما سلمناها لهم. قال المسؤول الذي كان يختبئ وراء مكتب عريض.

ـ أوف. هؤلاء يوزّعونها على كلّ الناس. المقصود منها التخويف أكثر من التنفيذ.

ـ لكنهم قتلوا أناساً كثيرين!

شعرنا بحزن في القلب. عند الباب، كان وجه المدينة قد تَغير، وصارت الوجوه غير الوجوه التي كنّا نعرفها. كرفستُ الورقة داخل يدي حتى صارت مثل الكرة، ثم طوّحت بها في الفضاء عالياً.

ـ ليكن!! علينا أن نفكر من الآن كيف ندافع عن أنفسنا بأنفسنا.

ـ كيف؟

قالت مريم.

لم يكن لدي جواب. وقبل أن أقلع سيارتي باتجاه البيت. جاءني رجل أمن، كان معنا في نفس المكتب. دق على الزجاج. فتحته. عرفت وجهه. قال.

ـ شوف يا خوَيا. لا تثق في الناس. أحذر. الحالة صارت صعبة.

ثم انطفأ داخل بناية الأمن الحضري الضخمة.

تنتابني حالة من العبثية بشكل فجائي.

ـ طُزْ. اللّي عنده الهواء، يقطعه.

ومع ذلك كان علينا أن نأخذ التهديد الأخير ببعض الجدية. لكن مخّي، كان، كلما عبرت شارعاً من شوارع المدينة، وأنا أتحسّس ظهري، يزداد تصلباً وتحجّراً، وعجزاً عن التفكير. هذا الشعب الذي يتآكل مثل بناياته وطرقاته ومؤسساته صار غاشي. لا يعي شيئاً ولا يريد أن يعرف شيئاً. أصلاً لم يكن معنياً بما كان يدور في محيطه، فهو سيرفع راية المبايعة لأوّل منتصر. لقد شوهوه من الداخل حتى صار مثل القصبة الفارغة. هل يعقل أن تتنكر المدينة لتربتها وذاكرتها ودمها بهذه السرعة؟ هؤلاء الناس، المكشّرون الذين يذهبون ويجيئون مثل الذي يبحث عن شيء ضيّعه وهو لا يعرف أين؟ عوّدوهم على تنكيس رؤوسهم مثل الرايات المهزومة. لا يرون إلّا بقايا البصاق والتّنخيم الملتصق بالإسفلت الملّون بالظلمة، وأعقاب السجائر الرخيصة، والحفر التي لا تُغْلَق، والأوساخ وبقايا الخضار الفاسدة التي تملأ الأرصفة. مع أن هذه المدينة، شيء آخر. لذيذة هي في الصباحات الأولى عندما نتأمّل مَارَّتها من داخل مقهى «لابراس» المواجه للجامعة، أو ونحن في شوارعها وممرّاتها

المؤدية إلى الجامعة وأزقتها. أو ونحن نقف في زاوية ما بجانب محلّ بَاطا وننظر بدهشة المكتشف للمرة الأولى إلى هندسة بناياتها وزخرفات شرفاتها المذهلة، أو تخطيطات الموزاييك التي تعطي مياه الأمطار التي تغسلها، إشعاعاً خاصاً لألوانها الآجورية. أقواس البنايات التركية والأوربية، والتماثيل العارية لملائكة ضائعين، يرفعون بلذة شرفات تطلّ منها نساء جميلات في مساءات الخريف الذي دخل هذه السنة مبكراً. ماذا بقي الآن من هذه التماثيل وهذه الأوجه؟ لا شيء. البعض منها نزع بكل بساطة وعوّضته البلدية بكتلة أسمنتية ثقيلة بحجة أن الشرفات صارت قديمة ويمكن أن تسقط على المارّة. أو بكل بساطة شوهت في منتصفات أجسادها وأغلقت بقطع أسمنتية في إطار حملة «تهذيب المدينة» التي قامت بها البلدية الجديدة التي أضافت نعوتها لكلّ التسميات البسيطة. فصارت البلدية بلدية إسلامية والسوق، السوق الإسلامية ومراحيض المدينة *المراحيض الإسلامية، المزبلة، المزبلة الإسلامية*،... حتى مقهى *اللوتس* وهو علامة هذه المدينة منذ زمن بعيد، حوِّل إلى محل لبيع *الستائر الإسلامية* المستوردة من الطّايوان، والفلبينّ، وطاطي (فرنسا)، ودمشق وسوق مليليا وجدة وجوطية مغنية. ومقهى *الجميلات المَعروف الكوك هاردي* إبان الثورة الوطنية، تحوّل بقدرة غبية لا ذاكرة لها، إلى صيدلية تحتل مكاناً لم يكن لها على الإطلاق.

والمدينة هي المدينة. والناس هم الناس. يمشون، رؤوسهم منكّسة كالرايات المهزومة. حتى مقهى *لابراس* منذ اغتيال أستاذ الترجمة فيه لم يعد مغرياً وبدأ يتحوّل إلى مزبلة مقابلة للجامعة. التفكير في الدخول إليه يورث حنيناً محزناً وغامضاً، أكثر من الخوف من الموت.

الحيّ بكامله صار مقلقاً. عبر امتدادات ديدوش مراد بكاملها، مروراً بالجامعة وديوان المطبوعات ومقصف طالب عبد الرحيم،

وبتزريا الكلّية، كلها تآكلت تدريجياً ونُهبت بهدوء وصمت لتصبح محلات لبيع المهرّبات، بواجهات يملكها خواص، وأسطح ما تزال تابعة للجامعة. شيء في هذه البلاد يُسيّر أسرارها بشكل خرافي. لم يبق من أملاك الكلّية القديمة إلّا ديوان المطبوعات الجامعية، وهو بدوره ينتظر ناهباً مالكاً لبعض أجزاء المدينة. فالديوان موجود في الزاوية وعارٍ وتحوله إلى متجر يحتاج إلى حيل كثيرة. الديوان بدأ منذ شهور يغلق أبوابه من حين لآخر، بدون سابق إنذار ولا حتى بدون سبب. وهذه العادة صارت مستشرية في المدينة. فكلما أراد مسؤول أن يضع يده على محلّ كبير في شارع مهمّ يغلق، ثم يفتح، ثم يغلق ثم يفتح، ثم يغلق، وفي كلّ مرّة يبقى مدة أطول حتى ينساه الناس نهائياً. هكذا فعلوا بِمَغْلَمَةِ المدينة الكبيرة «مقهى اللوتس. لم يبق في شارع الجامعة إلّا الجامعة، التي فكر الساهرون على راحة هذا البلد، في السنوات الماضية في تفريغها وتحويلها إلى مقرّ للأمن المركزي وطرد الجامعة باتجاه فراغ لم يكن معروفاً، ولولا اعتصامات الطلبة والأساتذة لذهبت مع الريح. تقول مريم وهي تمسح بعينيها الأعمدة والمرتكزات الرخامية الكبيرة التي تحمل في قمتها، قاعات المحاضرات، في الطابق الأوّل.

ـ الخير في أطفال أكتوبر 1988 وإلاّ، لكانت اليوم هذه الحيطان محرّمة علينا.

من غير المعقول أن تباد معالم المدينة بهذا الشكل الهمجي وبهذه السرعة وسادة الأمر والنّهيْ لا يعلمون؟ المدينة بدأت تزحف نحو الانقراض ليحلّ محلها ريف بدون عقل ولا تاريخ ولا ذاكرة، سوى الجفاف والرمل، ثم الرمل. ثم الرمل وحده الذي حوّل ساحات الشهداء والشوارع إلى ممراتّ لبيع سلع التهريب المقنّن الآتية من كلّ أطراف الدنيا، والكاوْكاوْ والسجائر المهرّبة، والسلع الرخيصة والمسروقات.

شيء واحد يشغلني بكثافة في هذه اللحظات التي يشعر فيها

المرء أنه وحيد، لا يأكل ولا يلوك إلّا خوفه وحنينه ووحدته. سؤال مركزي يهاجمه من كلّ الجهات:

ـ لماذا لم أعِشْ كلّ ما كان يمكن أن أعيشه؟

حماقة الإنسان أحياناً وعظمته، هو فناؤه داخل أسئلة يجري وراءها، وهي مثل أطراف الإخطبوط تتعدّد وتلتفّ حوله، حتى إذا وصلت إمتداداتها إلى عنقه وشعر بها تضغط عليه تذكر كم أن أشياء كثيرة ضاعت في الفراغات الكبيرة. مع ذلك، تظل جرأته الكبيرة هي قدرته اللاّمتناهية على تحويل الخوف واليأس إلى حالة رومانسية قصوى من الجنون. لكن الخوف كثيراً ما يجعل منّا أناساً آليين نتحرّك في أغلب الأوقات بشكل غرائزي.

كلما فتحت صندوق البريد في الجامعة، وقبل أن أفتح الرسائل المنتفخة التي لا تحمل عناوين باعثيها، تنظر إليّ مريم بعيون مدوّرة، تقرأ قسماتي. تلمس الخوف والترقب والسؤال وهم يرتسمون على تفاصيل وجهي، وأقرأ أنا قراءتها ودهشتها.

ـ هه. هم دائما، بأختامهم الواسعة ورعبهم؟!

ـ وهل هناك شخص يتذكرنا ويعرفنا في هذا الخوف غيرهم. شَيّبوا حياتنا، الله يشيّبهم.

ـ أوف صرنا قدريين. الموت هو الموت. نتساءل كيف ستكون نهايتنا؟ تحت سكين حافٍ، بواسطة منشار لقصّ البقر المذبوح؟ بمحشوشة؟، أو برصاصات طائشة؟»

ـ يلعن دين مِينْ جاوْا. قدرهم لهم. وحقّ ربّي، لن أعطيهم جسدي. وإذا كان لا بدّ أن أموت، سآكل نفسي قبل أن يجهزوا عليّ مثل دودة الخلّ.

ـ يا مريم. المخيف، هو أن رغبتنا للحياة نفسها لم تعد كبيرة. لقد ضيعنا كلّ علامات الطريق.

ثم نتزحلق باتجاه قاعة الأساتذة ونحن نحاول أن نصنع

ابتسامة شاردة على وجهينا المرهقين، ولكن عبثاً. نصف القاعة التي كانت منذ زمن قصير تعج بالناس والأسئلة، صار فارغاً.

عند المدخل أوقفتني طالبة. التفتُّ نحوها.

- صباح الخير.

وجهها كان شرشالياً من بقايا الرومان المنقرضين. عيناها بحر صافٍ. بعض شعرها انسحب إلى الوراء مثل رزمة ضوء أصفر بحركة آلية من رأسها.

- أستاذ! هل عرفتني.

- هاه. جليلة! وهل تخفى الأقمار والوجوه الطيبة؟

لم يكن الأمر صعباً عليّ لتذكرها. فهناك في قاعة المحاضرات أكثر من خمس مائة وجه يعبرون يومياً المدّرج ذهاباً وإياباً، لكن هناك وجوهاً تلتصق في الذاكرة من بعيد كلما رأيناها وبعد سنوات طويلة، في زقاق ما، أو شارع ما، تنتابنا الأسئلة المستعصية التي تبحث عن أجوبتها. ترى أين رأيتُ هذا الوجه الذي ابتسم ثم عبر كالنجم الهارب؟ من يكون؟ آه، ربما كان...؟ لكنّه تغيّر كثيراً؟ غريب، المرأة عندنا كلما تزوجت، فقدت حميميتها وأشواقها وحولت إلى سلة لنفايات رَجُل مقتول من داخله، لا شغل له إلاّ نظرات وتاريخ زوجته. الرجل عندنا كلما تقدّم ازداد خوفاً وتخلفاً.

- جليلة، كيف أحوالك. أطفالك. دراستك؟

- لا بأس يا أستاذ. أحاول أن أسجّل في الماجستير، لكن التعقيدات الإدارية تجعل منه أمراً مستحيلاً.

- شَفْتِ الإدارة، ما أبأسها.

- على كلّ لم آتِ اليوم من أجل هذا. جئت من أجلك أنتَ. أعرف أنك كلّ يوم ثلاثاء تدرّس.

كانت مريم قد انزلقت إلى عمق قاعة الأساتذة.

ـ هل هناك إشكال خاص.

سحبتني قليلاً بعيداً عن القاعة. أغلقت الباب وراءها.

ـ هل تسمح لي أن أتجرّأ عليك قليلاً؟

ـ الجرأة يا جليلة لا تطلب إذناً وإلاّ فهي ليست جرأة.

ـ شوف يا أستاذ. أنت مُتْعب وأنا متعبة لأجلكما. عرفت من صديقة قريبة ما يقع لكما.

ـ يا سيدتي. مثلنا مثل بقية هؤلاء الخلق الذين يُقتلون يومياً.

ـ أعرف كلّ هذا. شوف. أقنعتُ والدي بقضيتكما فأعطاني مفتاح فِلّته في شرشال، فهو لا يستعملها إلّا في فصل الصيف. مكان هادئ وجميل. خذ زوجتك وأبناءك واخْتفِ قليلاً عن الأنظار. هؤلاء القتلة هَمَج. أشعر برائحة. أرجوك غادر ولو مؤقتاً هذه المدينة.

ـ كنت أظنك ستسألينني عن الماجستير وإشكالياته.

ـ يا أستاذ! أسمح لي، ولكن يلعن دينُه ماجستير أمام غلاء حياتك.

لا أدري ماذا حدث لي، ولكنّي فعلاً شعرت بخوف كبير، وبرعشة تبدأني من القدم لتستقر في رأسي. حاولت أن أهرب من عينيها. كانتا قاطعتين مثل الحديد والنار ومخيفتين مثل بحر هائج. معقول! وسط هذا الصمت الجبان، وهذا الخوف، ما يزال هناك من ينسى خوفه ويفكّر فيك؟ ويأتيك بعض النور وسط هذه الظلمات، وهذا القفر الذي لا هو صحراء ولا هو بحر؟

وضعت يدي على كتفيها. ظلّت عيناها مرتشقتين على شفتيّ. قبّلتها على جبهتها بارتباك داخلي. رأيتُ دمعة ترتشق في محجري عينيها، تقاوم الانحدار.

ـ شوفي يا جليلة. لا أدري ماذا أقول لك. ولا كيف أشكرك. أنا الآن خرجت من بيتي، لكن وحياتك إذا احتجت لك سأتلفن. يكفيني الآن إحساسك وقلبك الطيب.

ـ هذا صحيح، وإلاّ فقط لكي تطَمْئِنني؟!

ـ لا. إذا كنت أقبل أن نكون أحياناً مجانين وعبثيين، يجب أن لا نُسهّل مهمّة القتلة.

ـ أنا أنتظر مكالمتك. طمأنتني.

قالتها، ثم تركت يدها تنزلق بهدوء من يدي. انسحبت باتجاه الممرّ الطويل المؤدي إلى أدراج الطابق الأرضي. التفتت للمرة الأخيرة. لم أرَ إلّا عينيها الصافيتين بينما تركت نفسي أتدحرج داخل قاعة الأساتذة الواسعة.

كانت هادئة على غير عادتها. قلّ النقاش. انعدمتِ السجالات حول الترحيل، والإضرابات ورفض تحويل الجامعة إلى مركز أمني.

حتى الإضرابات التي كانت تسحب وراءها عدداً كبيراً، لم تعد أمام الموت اليومي والخوف، تثير أحَداً. الوجوه التي كانت تأكلها فراغات الموت، زاد عددها. أصلاً هل يوجد فراغ داخل هذا الرماد. لا. إنّي أسمع صوته. رنّتَهُ. أشمّ رائحته أحياناً، وأحياناً أراه بالعين المجرّدة وأكاد أصرخ بأعلى ما أملك من صوت وصدى. هو ذا الفراغ الذي تسمّونه جهلاً، فراغاً؟ لكن، وقبل أن أكمشه في باطن يدي، ينسحب، يتلوّن، يتعدّد، يتبدّد، ليعود من جديد وبسرعة مذهلة.

لم يثرني شيء مهمّ داخل هذه القاعة، سوى تلك الكومة من الأستاذات والأساتذة الذين لا يغيرون مواقعهم طوال السنة. لم يحركهم أي شيء. لا الإضرابات. ولا الموت. ولا حتى سقوط زملائهم الذين يتحدثون بكثير من الحماس عن اغتيالهم وكأنّهم كانوا حاضرين، ثم يبدأون في نسج مجموعة من المبررات: كثير ياأختي عليهم. وشكون قال لُهْ تكلّم؟ أوف حَلْ فَمُه بزّاف. كثّر؟ لا. مَشِ الإسلاميين اللي قَتْلوهْ. السلطة؟ ياخويا، هو لم يجد في الأرض إلّا الإسلام لينتقده. ما كانش قدّامُه اليهود؟ يستاهل. جابها في راسه. قلت له يا محمّد دِيرْ كِمَا دَارْ جارك واللاّ بَدَّلْ بَابْ دَارَكْ. اِمشِ غ مع الحيط الحيط. وقُلْ يا ربي تحفظ الراس. حشيشة، طالبَه

معيشه. اللّي دَارْهَا بيّديه، يفكْها بسنّيه. قال البندير، هكذا كان يسمّيه أصدقاؤه لنميمته وكلامه الكثير، لزميلة كانت تجلس قبالته وهو يحاول أن يتنتزع منها ضحكة عبثاً. راشقاً عينيه في صدرها وفي محجر عينيها الفارغتين، وينفخ صدره في محاولة يائسة للتّطويل من قامته الناتئة. ركب كلّ الموجات. التحى، ثم نزع لحيته. ثم أعادها ولا يعرف ماذا يفعل، لأنه أحياناً تحميه من الدوريات الإسلامية المتنكّرة، وفي أحيان أخرى تنغّص عليه كثيراً.

ـ مانيش عارف وعلاه هذه التافهة تلبس الأحمر وتستفزّنا.

ردّت زميلته الثانية، التي كانت تختبئ داخل حجاب رمادي مثل الخوف. على وجهها بقايا خدوش الجدري التي لم تستطع المساحيق تخبئتها كليّاً.

ـ هاذيك راشها غليظ. وحد النهار تجيبها في روحها. يقولون يلّي راها مهددة هي ورجلها.

ـ الله لا يردهم. شيوعيون. أفسدوا البلاد والعباد والجامعة.

ـ شفت أيام حرب الخليج ما استعرفوش بصدّام. أدانوه. الشحّ. حتى حنا ما نستعرفوش بهم. رصاصة للراس مَاشِ كافية.

كدت أن أصرخ بأعلى صوتي. ما أكذبكم أيها المرضى. الطحّانون. ولكنّي كنت حزيناً ومنهكاً. شيء من اليأس يتدحرج في داخلي. أشعر بالعجز الكلّي وحالة الموات.

ينغرسون في القهقهات المتوالية وبشكل مفتعل وبهستريا غريبة.

في البداية كانوا يجدون من يَرُد عليهم، لكن مع الزمن لم يعد أحد يلتفت لهم. مريم، تعرف أنّهم يتقصدونها كثيراً، ولكنها في أعماقها تضحك، كلما سمعتهم يتهاوشون في مسائل فقهية تافهة. هل الضرطة تدفع بالضرورة إلى الوضوء الكبير، أم يُكتفى بالوضوء الصغير، أم الى السغ فقط؟ هل هي محرّمة أم مكروهة؟

هل يحقّ للإنسان عندما يكون في خلوة مع نفسه أن يفعلها ليتخلّص منها أم عليه أن يحفظها في بطنه حتى يفرج الله عليه ويأتيه ملاك يضغط على بطنه، فيطلق له العنان، ويحرّره من أذاها؟

تقول مريم وهي تشدني من يدي للخروج، بصوت مسموع.

ـ يا الله ياخويا نخرج. يا الله. هؤلاء كالكلاب. إذا تَضْرَبْهُم يْخَرْجوا سنّيهم. اللّي فيهم يكفيهم.

5

4H - 50 MN

التوى رماد السيجارة ليحرق المصفاة. لا أدري كيف انتهت، فقد تضاءلت فجأة وانعقفت كدودة ميتة. مسحت عينيّ مرّة أخرى من دموع الحساسية وحَرّرتُها من ثقل حارق. قصّتي مع حشرات الأكاريان Les accariens قديمة جداً، منذ أن أصابتني لوثة الكتب والقصاصات، والصحف في الرأس. ربما ابنتي تفرح دائما عندما تسمعني أشتكي لزميل من الزملاء: هذه الحساسية قتلتني. ربما تشبهني، هي كذلك تتأذى بسرعة. مريم وياسين، على العكس من ذلك، لم يتأثرا أبداً. ترددها ربما بشكل مستمر وبغمزة متواطئة ضمنياً.

- أنا وبابا فقط، نشتكي من هذه الحساسية.

غسلتُ وجهي ثم عدت من جديد إلى كومة الأوراق أتفحصها.

اغتيل البارحة في الحيّ الجامعي... بالجزائر العاصمة، الطالب كمال أمزال بضربة سيف على رأسه، أخذ على أثرها المستشفى، وهناك توفّى. ويبدو أن الذين قتلوه هم جماعة الاسلاميين الذين يريدون السيطرة على الحيّ الجامعي مثلما حدث فجأة أماكن متعددة داخل الوطن.

الوحدة (...) 198

كنت أبحث عن شيء، لم أكن أعرفه مطلقاً. ربّما كنت بصدد قراءة هذا المساء المتدفق من الذاكرة. أتساءل إذا كان ماءً أم حامضاً. كان الانقباض الذي يعذّبني عادة في بطني كلما فكرت في الموت، يزداد ضراوة. الطبيب نصحني بعدم التفكير. ضحكت منه. ضحك هو بدوره وهو يقول:

ـ هذا واجبي الطبّي عليّ أن أقوله لك. البقية تعرفها أنتَ.

أدخلت يدي أكثر في القصاصات. فتحت الورقة المربعة المطوية عدة طيات. كانت عبارة عن بيان نقابي وزعته نقابة عمّال الصناعات الثقيلة في ضاحية الرويبة الصناعية. سلمها لي عمّي إسماعيل في ذلك المساء وهو عائد من عمله.

طلب أن يشرب معي كأساً. هذه ثالث مرّة يفعل ذلك، منذ أن اطمأن إليّ.

ـ النقابة الإسلامية للعمال T.I.S تطلب منّا التوقف عن العمل بدءاً من جوان. لكنّنا نظن أن الإضراب سياسي ولهذا رفضناه.

ـ يا عمّي اسماعيل أنتَ تعرف أحسن منّي. لم يبق هيكل منظّم في المجتمع المدني إلّا اتحاد العمّال A.T.G.U، ولهذا فهم يريدون الإجهاز على الإتحاد لتمرير مشروع القتل. عندما تتفتّتون، على الدنيا السلام. هل بقي شيء واقف في هذه البلاد؟

ـ الذي لم أفهمه، من أين سيأتون بالدراهم التي يغرون بها العمّال في حالة توقفهم. بدأ الإحساس المخيف يتأكد عندي، أننا في دولة، هي بدورها مخترقة من دولة أخرى.

ـ الأمر غير معقد لهذه الدرجة. بلادنا غنية وهناك مافية مالية بلعتْ كلّ شيء وترفض أن يذهب كلّ شيء من يديها، ولكن حساباتها صغيرة. فهؤلاء القتلة عندما يصلون سيأكلون الأخضر واليابس.

عمّي إسماعيل النقابي، جاري القريب جدّاً إلى قلبي. أتقاسم

معه صباح الخير كلمّا تصادفنا في الدّرج أو في مدخل البناية أو عند بائع الخبز، وأحياناً بعض النّكت الجديدة، فهو يحفظ منها الكثير، ومن حين لآخر أدعوه على كأس ويسكي، أو نبيذ وطني. يقول دائماً. آه. أولادي كبروا. صاروا مشكلاً يتعقد يوماً بعد يوم. لم أعد قادراً على الشرب أمامهم. لويزا، زوجتي، تقبلني كما أنا، لكن هُمْ مشكلة. ما نعرفش واش نقول لهم، في بلاد كما هَذي.

يقولها بلكنته البربرية.

عادة، نقف قليلاً عند مدخل البناية، وهناك نتجمّع مع بقية السكّان قليلاً عندما نعود من العمل. نتحدث عن كلّ شيء. عن الإضرابات التي صارت مسألة يومية، ابتذلت حتى الإضرابات نفسها، عن ظروف العمل، عن الوضع السياسي للبلاد، عن تهديدات الإسلاميين، عن مسيرات العصيان المدني، عن التفكّكات الحاصلة في العالم ثم ننسحب، كلّ واحد حاملاً في قلبه شأنّه وشأن الآخرين.

آخر مرّة عرفت، ونحن عند نفس مدخل أن عمّي إسماعيل توقف عن العمل ودخل مع بقية وحدة صناعة الشاحنات في إضراب غير محدود. منذ أسبوع لم يذهب إلى العمل. كان حزيناً وقلقاً.

- لم أفهم شيئاً في ربّ هذه البلاد. أخشى أن تكون هناك جهة أو جهات تلعب برؤوسنا. البلاد في أزمة خانقة. الأفْ. إي. مِي. F.M.I على الأبواب، تدق نواقيس التجويع. إذا طالبنا بحقنا قال لنا المسؤولون أن وضعية البلاد صعبة. وإذا تحرّكنا، صرنا من صُنّاع الفتنة وتخريب الوطن، وإذا صمتنا، يركبون علينا، مثلما فعلوا ذلك مدّة ثلاثين سنة. ها هم! هم نَفسهم، لا أدري إذا كانوا واعين لما يفعلونه ومخاطره. بين اختيارات اقتصاد السوق القاسية، وانهيار العملة، وغلاء المعيشة والحفاظ على مناصب العمل؟ يَاخويَا قَتْلوُنا. كلّ اختيار فيه مسؤولية، فليتحملوها وليحسّوا بها مرّة واحدة في حياتهم.

- أوف يا عمّي. واشْ قادرين يديروا. عجز كلّي في التسيير. «Ce sont des mediocres» لا يملكون شيئاً يعطونه للآخرين.

- يلعبون بكل شيء. والآن ورقة الدين، هي مناسبة جدّاً. لو كان ربّي يحبنا كان يعطينا رجلا مثل مصطفى أتاتورك. يحدّد اختياراته ويغامر بقوة.

عمّي إسماعيل كان يعلّق على حائط الصالون، في بيته صورة لأتاتورك، في إطار واسع. بين الرئيسين هواري بومدين ومحمّد بوضياف.

- البلاد لم تعرف إلّا هذين الرجلين. والمسلمون لم يعرفوا إلّا هذا المغامر الشجاع الذي وضع كلّ الحثالات التي كانت تحكم تركيا تحت رجليه ومشى إلى الأمام.

ثم يؤشر بإصبعه نحو مصطفى أتاتورك.

- تعرف ما كنتش نحب الحكّام. وأقسمت أنّي لن أضع على هذا الحائط إلّا العظماء. كانت صورة السي مصطفى صغيرة وبعدها كبّرتها. عندما توفي بومدين. قلتُ هذا مكانه المناسب، وعلقت صورته. كان أحياناً أعمى ولكنه كان يحبّ بلاده.

- هذا العمى ياعمّي إسماعيل أنجب فاشيات كثيرة.

- شوف ياوليدي أنا لا أفهم جدّاً في هذه الأمور. نعرف فقط أن هذا الرجل بنى بلاده، وهؤلاء القاصرون يبيعونها بأرخص الأثمان ولا يجدون من يشتريها. عندما جيء ببوضياف، عرفوا أنه لن يبقى كثيراً. قلت لأولادي، هذا المسكين نيّة. عمره محدود وسيودّع هذه الدنيا مبكراً، أو سيستقيل بسرعة، العصابة التي تسير البلاد في السر والعلن، لن تسلّم بسهولة في مصالحها. لعبوا على الخطابات الوطنية، ويلعبون اليوم على الخطابات الدينية وسيظلون هكذا حتى يندثروا ويندثر معهم وطن بكامله. من يستغني بسهولة عن بقرة حلوب تدرّ يومياً آلاف الدّولارات؟ نحتاج حتماً إلى ثورة أخرى وإلى رجالات جديدة لإعادة ترميم هذه البلاد.

ـ لا يتساءلون. مافيا. عندما يُهددون، يأكلون رأس مهدّدهم. يتحولون إلى قتلة علنيين.

ـ يا الله خَلّطُها. تَصْفا.

ـ خايف تَتْخلّط وما تَصْفَاشْ.

ـ يجي وقت وتصْفَا.

عمّي إسماعيل هكذا. يتحدث بعفوية ولا يعرف ما تخبئه أحاسيسه. مثل الماء، عندما يجف يتبخّر فيصمت، وعندما يفيض يخرج كل ما في ذاكرته وقلبه. يتألّم. ينزعج. ولكنه لا ينسى أبداً نكته. نكاته التي كان يخاف منها كثيراً جارنا عبد ربه، الذي يقطن معنا نفس البناية. يراقبنا من نافذة مسكنه في الطابق الثالث، من خلال البالكون، يستمتع بقهوته المسائية بدون أن ينسى مسح شرفات البناية لمقابلة، خصوصاً إذا رأى نساء ينشرن غسيلاً أو يشممن هواء المساء. عندما يرانا قد تجمعنا عند أسفل البناية ينزل بسرعة اتجاهنا. عمّي إسماعيل يقول دائماً عنه، وفي حضرته وهو يضحك:

ـ إذا أردت أن تعرف كيف يتحرك منطق هذه البلاد، تعرّف على عبد ربه.

عبد ربه كان معلماً بسيطاً، لم يتخطّ أبداً عتبة الفقر رغم كلّ ما بذله. درّس في القرية وفي المدينة بدون جدوى. درّس وهرب بدون جدوى. درس وانخرط في جبهة التحرير، بدون جدوى. ثم ترك الجبهة وترك لحيته تتدلّى وصار من يومها لا همّ له إلّا الدولة الإسلامية ويصرّ أنها الحلّ الوحيد والأوحد ضدّ خونة البلاد ومفتّتي وحدتها. تزوج أربع مرّات ولم ينجب إلّا البنات. يتفادى الحديث عن الذرية وكلّما كان الحديث عن الأولاد، انسحب من الدائرة، مع أن عمّي

إسماعيل يقولها دائماً

ـ عندي أربعة ذكور وابنتين، ومع ذلك شعوري نحو البنات وتعاطفي معهن يفوق كلّ وصف.

يلتفت عبد ربه نحو عمّي إسماعيل.

ـ واش تحب عمّي إسماعيل. قفّة أطفال، ماذا فعلت لنا هذه الدولة الميتة.

ـ أولادك مش الدولة اللي جابتهم. شكون غصبك.

ـ عمي إسماعيل هذه مكاتيب الله تعالى. ما تعرفش هؤلاء الهوايش.

ـ على كلّ كي سيدي كي صاحبه. اللي نساه الأوّل خلص عليه الثاني.

ـ كنت أسكن في كوخ، ومنذ أن أصبحت البلدية في أيديهم، أعطوني سكناً. أنا معهم حتى ولو يحرقون هذه البلاد، سأحرقها معهم. عشر سنين وأنا في الحمام وبعدها كريت كوخا، وعندما حطموا البيوت القصديرية على هامش العاصمة وجدت نفسي في الشارع، بل حتى الشارع لم يكن من حقّي. طردوني منه كالكلب.

تدخلت من حيث لم أكن أريد.

ـ تتحدث عن حرق بلاد مثل الذي يتحدّث عن حطبة يابسة. النّار التي ستأكل البلاد ستأكل الجميع، وأول ضحاياها، من يوقدها.

ـ خَلّيها تَخْلاَ. سكوتكم أنتم المثقفون هو الذي أدّى بالبلاد إلى الهلاك.

ـ عن أي مثقفين تتحدث؟

ـ كلكم بلا تمييز. ماذا قدمتْ هذه الإدارة للبلاد من خير؟ عندما تعرف أنك معرّب، تهينك، فتبدو غريباً وكأنك لستَ من هذا الوطن. من حقّ هؤلاء المرفوضين أن يُدافعوا عن وجودهم. المناصب الكبرى في أيديهم، الوزارات، السفارات، الولايات، الآن الأمور بدأت

تنقلب. ثم من وقف في وجه السلطة بصدر عارٍ عندما بدأوا في تحطيم البيوت القصديرية ورمي الناس في العراء وترحيلهم؟ من أعطى صدره وجسده للتّراكس والموت غير هؤلاء الذين تتنكّرون لهم اليوم؟»

ـ نستطيع أن نتحدث حتى الصباح في هذا الموضوع.

ـ أنا يا سيدي غير مستعد لسماع الكلام الخاوي. قُلْ وَاشْ داروا.

ـ غرقوا هم في صراعات تافهة استهلكت كلّ طاقتهم.

ـ ولكنهم صمتوا على جرائم السلطة. عندما كان الحداثيون يمارسون حداثتهم في المكاتب والصالونات، يتقاتلون حول مسائل ثقافية لم تكن تعني الناس كثيراً. الذين لم يكونوا يملكون لا سقفاً ولا دِفئاً ويموتون بهدوء من جراء الجرب، والتيفوس، والسلّ. كلّ الأمراض المنقرضة عادت من جديد لتستقر في محيط العاصمة. ما هي الحلول التي أوجدها النظام سوى رمي الناس إلى قرى أجدادهم وهم لا يعرفونها مطلقاً، فالذين عرفوها ماتوا.

ـ كلّ هذا يجب أن لا يعمي أبصارنا. هذا النظام المتهالك هو الذي أنجب هذا الشكل المتهالك من التفكير.

ـ الدولة الإسلامية شكل متهالك، الله يسامحك.

ـ العالم ليس بهذه البساطة.

ثم يتدخل عمّي إسماعيل كعادته للتفريق بيننا.

- وعلاش نعقّد الوضع. المساجد مفتوحة لمن يريد الجنة. وجهنم مفتوحة لمن يريد اختيار قيامته. الباقي يتكفّل به الله.

- والله يا عمّي إسماعيل. يوم تستقيم الأمور في هذه البلاد سندعوهم إلى الرجوع إلى طريق الإيمان ومن يرفض له السيف.

- هذه حلول سهلة يا عبد ربه. الصلاح بالعقل وليس بالسيف.

أنت مثلاً كلّ ذريتك بنات، وعليك أن تشكر ربّك بما أعطاك وأن لاتركب رأسك، لأنك حتى ولو ركبته لن تحصل على غير ما عندك. فالنار لا تلد إلّا النّار، والجهل لا ينجب إلّا الموت والخراب.

ينظر إلينا بعيون قلقة، محمرّة، ثم ينسحب بدون أية كلمة. يصفع الباب الحديدي وراءه ولا نسمع إلّا وقع قَرْقابته وهي تصفق على إسمنت الأدراج.

عمّي إسماعيل معدن استثنائي من الطيبة. أحياناً عندما يعود من عمله لا يقف معنا كثيراً. بعد التحيّة ونكتة أو نكتتين، يحيي في الجهة المقابلة لبنايتنا الشيوخ الجالسين عند مدخل بنايتهم يتجاذب معهم حديثاً عابراً بصوت عالٍ ثم يقصدهم ولا نلتفت نحوه أو نحوهم إلّا عندما تتصاعد قهقهاتهم عالياً. عمّي إسماعيل يحبهم كثيراً.يقول عنهم:

ـ مساكين. جاءوا في غير زمانهم ويعيشون داخل فضاء ليس لهم. معزولون عن محيط لا يعني لهم أي شيء مطلقاً.

يومياً ينظّفون الزبالة، يرشّون المدخل بالماء ثم ينسحبون بعيداً ويجلسون قبالة المكان النظيف، يتتبّعون ظلال البنايات المتنقّلة من مكان لآخر، ينقلون حجاراتهم التي يجلسون عليها والتي تآكلت من كثرة الاحتكاك عليها. يسترقّون السمع إلى كلّ الأصوات القادمة من داخل البنايات أو من من محيطها. يلتفتون كثيراً في كلّ الجهات. وعندما تقهرهم الشمس الساطعة، يضعون أكفهم الخشنة المعرّقة على جباههم لتفادي قساوة أشعتها. يمسحون لحاهم، يمسدونها بزيت الزيتون حتّى لا تسقط شعراتها، يدغدغون صغارهم الذين يظلون معهم، يلعبون في أسفل البنايات تحت رقابة عيونهم التي لا تنام. وعندما ينتهون من كلام الحاضر وكلام الماضي والذكريات المقتولة يلتفت كلّ واحد صوب جهة غامضة لا يرى فيها شيئاً سوى الألوان المبهمة والخوف والظلال الكثيرة، المنسحبة بسرعة. أحياناً تأخذهم إغفاءات لذيذة داخل هذا الفراغ

يرون فيها أنفسهم داخل أحواشهم الشعبية في قرى جبلية بعيدة، اضطروا لمغادرتها ذات قرّ أو ذات فيضان. يتلذذون. يتمتمون. إيه. ما أوسع الدنيا وما أصغر هذا العالم الكابي! يشعرون، صادقين، أنّه زُجَّ بهم داخل أمكنة لم تكن مهيّأة في الأصل لهم. وعندما توقظهم الأصوات الآتية من الشرفات، أو من مكان لعب الأطفال، يلتفتون نحو بعضهم بعضاً، يبحثون عن ابتساماتهم البعيدة. لا تسعفهم الضحكات ولكنها بالرغم من ذلك تأتي. تأتي بصعوبة.

- شفتو. هاه. هاه عاش ما كْسَبْ. مات ما خلا. كي انتهت الثورة تقاسموا البلاد. كلّ واحد أخذ طرفا: أرضاً. سكنى. فِرْمَا. وأَحْنَا قالوا ربّي كايَنْ. منذ أربعين سنة وأنا ابحث عنه داخل هذا الحطام. حتى صرت حطاماً، ولم يظهر، ولم يفتح لنا الله أبواب سماواته.

يقهقهون بصعوبة. يردّ آخر.

- يا سيدي. أُممّت الأراضي. فأعطيتْ لنا قطعة كبيرة، شكلنا عليها تعاونية من عشرة أفراد. وقبل عشر سنوات عندما جاء بني كلبون. أخذوا منّا الأرض وأرجعوها لأصحابها الأوائل. قلنا لمسؤولي البلدية: والآن ماذا نفعل. قالوا أرض الله واسعة. أغمضتُ عيني ورحلت نحو أقرب مدينة، ثم أقرب مدينة. ثم أقرب مدينة، حتى وصلت إلى هذه الأرض. لم أكن أريد أن أموت في المدينة، ولكن يبدو أن قدري هكذا. وعمر المسكين طويل.

ينتزعون ضحكات مرة، تخلّف على وجوههم كلّ انكسارات الخيبة والسنّ المُتعْب.

- وأنا؟ يقول آخر، لا شيء. سوى أن عمري كله ذهب في غربة بدون معنى. كلّ ما أربحه كنت أرسله للقرية لبناء بيت، وبعد أربعين سنة عندما انتهيت من عملي، عدتُ. وجدت أن البيت أصبح في خلاء مقفر. لا مدرسة. لا مستشفى ولا أي شيء. حتى السكان الذين كانوا يحيطون بنا، غادروا لمكان. قلتُ: أولادي عزاز عليّ. بعت كلّ شيء

واشتريت قبراً خارج هذه المدينة. اليوم. الأولاد ضاعوا. الأوّل كان شرطياً. كنت أعتزّ

بخدمته لوطنه. كان معيلنا. اليوم لم يعد يأتي إلى البيت مطلقاً، بعد أن زرانا أخوه مرتين مع الجماعات المسلحة، كان يبحث عنه. قال لأمّه آخر مرّة: شوفي يا حطب جهنّم وليدك قاتْلُهْ، لو يتخبّأ في كرش لحنش. رَاحْ نيتْمَكْ فيه. أحْنَا جنود الرحمن يا محاينَكْ. وشْكون يهرب من الرحمن.

يتناوبون على الحديث مع عمّي إسماعيل، حتى تنكسر الشمس وتطل لويزة من فوق. تبقى في الشرفة حتى يتقاطع نظرها مع زوجها، فيعتذر من جلسائه.

ـ جماعة، اسمحوا لي. هذا وقت نشرة الأخبار. يمسّيكم بالخير.

ثم يندفن بلذّة داخل الأدراج الصاعدة نحو الطابق الرابع. بعد لحظات يطُلّ من فوق، ينتظر عودة ابنته الوحيدة التي تعمل في وزارة الداخلية. منذ أن تعقّدت الأوضاع الأمنية داخل المدينة وعلى حواشيها، يظل معلقاً في الشرفة، واضعاً يده على قلبه حتى يراها قادمة من بعيد، فيدخل. وعندما لا نراه في الشرفة، نعرف بأنّ ابنته دخلت مبكراً. رغم التهديدات التي وصلتها، لم تلبس حجاباً. بقيت عادية رغم خوفها الداخلي. يقول عمّي إسماعيل:

ـ واش من دين يْجي بالزروطة؟ إذا كان هكذا، من الأفضل أن تعود إلى لباسها القبائلي. فهو مستور وجميل وألوانه زاهية. ودِيالْنَا. تعرف بنتي، كبرتْ وصارت امرأة ونشيطة في عملها وكلّ مساء تقرأ عليّ بيانات الجمعيات النسوية التي تحبّها. لو يقع لها أي مكروه، قادر على القتل وارتكاب الجريمة.

يغرق قليلاً في تأملاته قبل أن يرميها، وينهمك من جديد في نكتة أو حادثة يومية.

وعندما يتناهى إلى مسامعنا جنريك نشرة الأخبار القادم من بعض النوافذ التي ما تزال مفتوحة، نتزربع كلّ واحد يتجه نحو مدفنه للتلذذ بالموت اليومي. نشرة الأخبار التي ليست ثقيلة بعدد الموتى والدم، هي نشرة ضعيفة ولا أهميّة لَها.

هكذا صار الناس.

وهكذا صرنا نحن كذلك.

6

5H - 00 MN

أقرأ قصاصة كتبت بشكل أنيق وبالأسود البارز:

تكذيب: *السيد.... وزير الثقافة والاتصال يكذّب كلّ الأخبار التي تقول بأنّ «الآذان» في التلفزيون الوطني، سيتوقف بثّه بعد شهر رمضان. بالمناسبة، يطمئن السيد الوزير جميع المؤمنين، بأن هذه السنّة الحميدة التي أعادت إلى التلفزة وطنيتها وترسخها الدّيني، ستستمر بعد هذا الشهر الكريم.*

جريدة *الشعب (...) 199*

ـ ما بقى للعمياء، سوى الكحل!

غريب! هؤلاء المسؤولون. ألم يتعلموا بعد؛ بأنّ الشعب لم يعد يصدّق أحداً، وأن اللعب بالدّين لن يزيده إلّا ابتعاداً. التلفزيون بكامله، لم يعد يغري أحداً مع انتشار الهوائيات المقعّرة كنباتات الفقّاع الحديدية على أسطح البنايات. الناس صاروا ملتصقين بما يأتيهم من بعيد من أخبار وأسرار وألوان وسحر.

حتى هذه اللحظة لا أعلم بالضبط ما هو هذا الشيء المهمّ الذي يدفعني في هذا الفجر باتجاهه، من خلال فَلْي هذه القصاصات الميتة التي تشبه نهراً جافاً أو شجرة محروقة. من غير المعقول أبداً

أن أجد نفسي غارقاً حتى الآذان داخل هذه الأوراق المبعثرة في فوضى مطلقة. أحياناً أراها مجرّد ورقات صفراء مسودّة وفي أحيان أخرى أشعر أنها كلّ شيء بالنسبة لي. أنقلها أينما ذهبت. أنسى نفسي ولا أنساها. شيء في اللاشعور يشعرني بضرورة تصفية حساباتي القديمة مع ذاكرتي. مع جحيم استمرّ معي أكثر من ثلاثين سنة. عندما أقرأ هذا الخراب، أطمئن لنفسي وأحزن لهذا الوطن، ويزداد يقيني أكثر بأني لست بكل هذه الخطورة التي يتصورها الذين يريدون قتلي. مجرّد كائن بشري ضائع داخل قفر اسمه المدينة. هم حتماً مخطئون إذ يعتبرونني بكل هذه الخطورة. طيب لماذا قتل أصدقاؤك. ألم يكونوا أكثر مسالمة منك؟ صحيح، أنا كذلك لا أستطيع الصمت. شيء ما فيّ يتآكل كالنّار. حالة من العصيان والجنون حتى وإن اختبأ وراء كلّ ذلك وجه الموت البشع. ومع ذلك أظلّ حنوناً، ووديعاً وطيباً. هكذا ربيتُ. أحياناً ألعنّ هذه التربية. كلما صرخت، وجدت نفسي وراء القضبان. كلّ شيء يسقط على رأسي. في مطلع السبعينات سُجنت، ولم أكن في الحقيقة أعبّر إلّا عن احتجاجي مع أصدقائي. كنّا نعبّر عن شيء غامض، نشعر بصدقه ولا نستطيع لمسه. كان الاتحاد الطلابي يُحلُّ، والطلبة يطاردون، ومسؤولو الاتحاد يقتلون الواحد بعد الآخر. حتى الذين هُرِّبوا عبر الحدود سرعان ما وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام القتلة. وفي مطلع الثمانينات عندما سُجن المخرج السينمائي رشيد ابن إبراهيم وخرجنا في مسيرة صامتة داخل شوارع العاصمة، خرجتُ ليلاً من بيتي ولم أعُد إلّا بعد ثلاثة أيام. إلى اليوم لا أعرف أين كنت، وماذا ركبت، وماذا فعلت وماذا فعلوا بي؟ سوى كلمات الشرطي الطاعن في السنّ الذي بعدما يئِس من محاورتي قال لي:

- راكم غالطين ياالسي مُوحْ. أنتم الشيوعيون هكذا. تنطحون حيطاناً أصلب من رؤوسكم.

ومع ذلك، أيها الشيخ الطيب، الحائط الإسمنتي الذي تتحدّث عنه صار مع الزمن لعبة كارتونية مزقها بسهولة، في ذلك الشهر

الخريفي العاصف، أطفال صغار. كلّ يوم يزداد يقيني، بأني أبسط مما يتصورون، وأقلّ خطورة ممّا يظنّون.

صعب عليّ أن أتحمّل كلّ هذه القساوة التي تأكلني من الداخل. لقد صادروا منّي قائمة الناس الذين أعرفهم وأحبهم. البارحة فقط كنّا نتقاسم بعض الأشواق والأفراح المسروقة، اليوم تحوّلوا إلى أسماء باردة على الشاهدات وأرمات الشوارع وعلى مداخل البنايات الحكومية. أتمنّى في لحظات الضعف أن أتملك طاقة للقتل، ولكن سرعان ما تقهرني أسئلتي المرهقة.

ـ تقتل من؟

لا أحد.

هم تدربوا على الدم. لكن قساوة الدنيا وصعوبتها لم تُعلّمني إلّا رفض الدم. عندما كنت صغيراً، طلبَ مّني ذات مرّة أن أذبح دجاجة. هي دربة يقوم بها الناس في القرية لتعويد الأطفال على منظر الدّم، فالحياة قاسية وعلى الإنسان أن يتملك أدوات المقاومة. الرجال يغادرون البيوت باكراً نحو مراكز العمل والحقول والأسواق البعيدة، وعلى المرأة أن تتدبّر أمورها في غياب زوجها ولهذا يُستنجد بالأطفال للقيام بمهمة الأب. القبض على الدجاج مثلاً ثم القيام بذبحه ببرودة دم. ذات مرة، أُعطِيتُ سكيناً حادة. أوّل تجربة ذبح. كم كنت غبياً. تنفست بعمق. كبّرتُ بشكل، كلما تذكرته ضحكتُ.

ـ كَبِرَتْ تَحْلاَلْ.

كلام لا معنى له على الإطلاق. تشجعت ثم ذبحت دجاجة أمّي الوحيدة. كدت أقطع رأسها. لكن الدجاجة التي راغت وتمرّغت، سرعان ما قامت على رجليها ودمها يسيل بغزارة كبيرة. كانت نذير شؤم. هكذا يسمّون الدجاجة التي تقاوم عادة موتها. تدحرجت مدّة من الزمن في مكانها ثم قامت على رجليها ودمها يَسيل قبل أن تضرب رأسها على الحائط الخشن لتلوّنه بدمها، ثم تلوي عنقها وتسقط. ظلّت أُمّي مشدوهة تنظر إلى الدجاجة أحياناً وفي أحيان

كثيرة إليّ بكثير من الاستغراب. تحاول جاهدة أن تخبئ خوفها. حفرتْ حفرة، ثم دفنت فيها الدجاجة وهي تلعن الشيطان الحرامي، وتقسم وتعظّم، بأنّي من اليوم لن أذبح أي شيء. في اليوم نفسه وصلنا خبر وفاة خالي الوحيد في المدينة.

لعنت المصادفة التعيسة التي كانت تصفّي حساباتها ضدّي.

على مدار سنة بكاملها، كلما جاءنا ضيف، ترشحت ساخراً لذبح الدجاجة أو القُنَيْنَة فتقفز أُمّي بسرعة من مكانها وتنزع كلّ شيء من يدي وهي تدوّر عينيها بسرعة، تبسمل وتحوقل، فأتلذّذ وأشكر هذا القدر المشؤم، الطيب.

عندما كبرت، فكرت في شراء بندقية صيد. كنت بباريس، وكان الزمن متقدماً. عندما اشتريتها سألني أحد الزملاء، لماذا هذه البندقية. الأفضل أن تبيعها يا ولد الناس، سعرها غالٍ. قلتُ بدون أدنى تفكير. هذه وسيلتي في الدفاع عن نفسي. سألني ضدّ من. قلت. ضدّ كتل غامضة، أحسها ولا ألمسها. كتل تجرّ وراءها رائحة الكراهية والخراب وأهوال القيامة. قال. هذه أوهامك وفونطازماتك. قلت. يا حبيبي، أنا في وطن لم أشعر في أي يوم من الأيام ما يحسه فيه أي مواطن، من أمانة وراحة بال. اتساعه الكبير لم يزد قلوب سكانه ومحبّيه إلّا ضيقاً وخوفاً.قال. أوف. أنت دائماً تأخذ الأشياء من سواداتها.

أنت مخطئ. قلت. لا. أنا أقول صراحة ما أحسّه. الأمن شعور داخلي، أمّا أن يغمرنا حضوره أو يؤلمنا غيابه. هذه البلاد تعيش في حضرة وحش، عندما يفتح فاه، سيأكل الأخضر واليابس. إحساسي بالمكان غير دقيق أبداً. بندقيتي، منذ اشتريتها قبل عشر سنوات لم أستعملها إلّا مرّة واحدة. رفعت ماسورتها نحو السماء ثم ضغطت على الزناد. الغريب، القذيفة ضاعت في فضاء القرية الواسع، لكنّي شعرت في لحظة من اللحظات أنني قتلت شيئاً كان يعبر السماء. تذكرت الحجارة التي كنت أرميها في الفضاءات علنّي

ألمس السماء وأكسرها، لأني كنت أتخيلها زجاجاً أزرق يمكن كسره، بل يمكن سماع تكسره حتى ولو كان ذلك على مسافات بعيدة. مرّ على ذلك زمن بعيد. بعدها لم تعد حكاية البندقية تعنيني كثيراً، سوى التفكير من حين لآخر في حالات اليأس، في إمكانية استعمالها عند الحاجة الماسة.

وعندما بدأ الخوف يغلق عيون الناس ويطمس نورها وبدأت أفكر جدياً في تهيئ بندقيتي ليوم الخوف، وصلتني رسالة من وزارة الداخلية، تحث كلّ مالكي البندقيات على تسليمها إلى الدولة لأن وجودها في البيوت يُعرّض أصحابها للموت من طرف القتلة والإرهابيين. فكرت أن أسأل صديقاً مسؤولاً ومثقفاً.

ـ لا أدري ماذا أفعل. سنتعرّى من آخر ورقة تسترنا. ماذا سأفعل إذا دخلوا عليّ. كيف يدافع المرء عن نفسه قبل أن يموت؟

ـ من الأفضل أن نعطي المثل. نحن مثقفون ولسنا قتلة.

في اليوم الموالي اتفقت أنا ومريم وسلّمنا البندقية بدون تردّد. لسنا قتلة. ظلت الكلمة ترنّ في أذني مدة طويلة. ولكنني صرت عارياً. أعيش أعزل مع طفلين وزوجة، في حيّ، كلّ ما فيه لا يورث حتى أدنى حدود الاطمئنان. ثم وجود هذا السكن، داخل هذا المثلث الذي يشبه كلّ مثلثات الخوف والموت: الحراش وفوردلو من جهة الأربعاء ومفتاح وسيدي موسى من جهة ثانية وبرج البحري من جهة ثالثة. طارق بن زياد نفسه سيخفق في مقاومة هذه العزلة القاتلة، كلّ جهة تنتظر الفجوة، لتسرّب موتها. وفي لحظة ضائعة، يتحوّل كلّ شيء إلى رماد وتصير الوجوه كلها مؤذية. خطوطها مخيفة. عدا عمّي إسماعيل، فقد ظلّ في قلبي هو هو. بودّه وحنينه، وكرهه الكبير للقتلة وإحساسه المرهف. لا يتكلم كثيراً ولكنه كان يحسّ بعمق المأساة. ذات مرّة اعترض طريقي، وأنا أحييه، عابراً مدخل المدينة، منكس الرأس، مضغوط القلب، بعدما بدأت كلّ الأشياء النادرة، في هذه البلاد تتكسّر الواحدة بعد الأخرى. كنت

عائداً من المقبرة بعد أن شاركت في دفن صديق آخر ذبح أمام كلّ أفراد عائلته، بعدما قُطِّعَ بشكل مجنون. سلّم علي بالوجه، على غير عادته. كان يعرف حزني.

- سمعتُ الخبر في الإذاعة. الله يجازيهم.

- يا عمّي إسماعيل، هذا الله تخلّى عنا كلية في هذا القفر

- واش تحب. أحذر شويّه. الوضع يزداد خطورة.

- تعرف يا عمّي إسماعيل، أحياناً أتساءل إذا كنّا نعرف حقيقة هذا المجتمع. وإلاّ أين كان يختبئ هؤلاء القتلة بكل هذه البشاعة؟

- نقول لك! أطلب سلاحك من وزارة الداخلية. الكثير من الوجوه لا تعجبني دوراتها داخلْ الحيّ. أراها للمرة الأولى. يجب أن ندافع عن حقّنا في الحياة.

- نحن مثقفين يا عمّي إسماعيل ولسنا قتلة.

- هذا كلام مثقفين يا وليدي. القتلة لا يعرفون شيئاً سوى النّار والنصل.

- على كلّ طلبتُ ردّها لي (البندقية)، وما زلت أنتظر ردّ وزارة الداخلية.

وعندما وصلتني رسالة وزارة الداخلية، وقرأتها، تساءلت، حقيقة إذا كانت لدي قيمة إنسان في هذه البلاد. أعدت قراءتها مرّات عديدة، وحاولت أن أفهم ماذا يختبئ وراء الختم الأحمر الكبير: *مستعجل - URGENT. [نظراً لوضعية ترتيب الأسلحة، فإنّه يتعذّرُ علينا في الوقت الحالي أن نعيد إليكم سلاحكم. شكراً على تفهمكم].*

من قال لهم، أنّي تفهمتهم، ليشكروني؟

هل حياتي، أنا المواطن الصالح جداً، لا تستحقّ بعض البحث؟

ثم فضّلت أن أصمت. فالأمر بدا لي عبثياً إلى أقصى الحدود.

- أصمت!! فمن يسمعك يا ابن أُمّي!

فهل أنا خطير لهذه الدرجة، لتغلق الدنيا أبوابها على قلبي؟

الشيء الوحيد المؤكدّ هو أن وضعي صار خطيراً. لا بدّ أن يكون هناك تضخيم لوضعي ومع ذلك، كما ينبهني عمّي إسماعيل باستمرار، عليّ أن أتعامل مع وضعي ببعض الجدّية. فالقتلة لا يملكون لغة. لغتي أنا.

ذاكرتهم مقفلة.

وطواحينهم لا تتوقف مطلقاً، فالرياح ساخنة ورمال الصحارى شوقهم الوحيد.

ومريم في كلّ ملاحظاتها ورسائلها، قبل أن تسافر وبعد أن سافرت، تكرّر نفس الكلام:

- تعرف، أنّي أخاف عليك كثيراً لا لكونك خطيراً، فهذه مسألة يقدرها غيرك، ولكن، لأنك لا تدرك خطورة الأمر الذي يحيط بك. وهذه الحالة لا ندركها إلّا عندما نقف حقيقة وجهاً لوجه أمام الموت، وقتها تصير كلّ الأسئلة، حالة من العبث.

- عبثيتي الوحيدة هي أنّي لا أتصور نفسي خارج هذه النّار ولذة هذا الخوف.

وعندما أحاول أن أُقنعها بعكس ما تتصور. تضحك، وفي أحيان كثيرة تقهقه.

- وهل ينتظر القتلة رأيك ليجهزوا عليك؟

تصمت قليلاً، ثم تواصل ببعض الانفعال.

- شوف يا ولد النّاس. أنا كذلك رومانتيكية، لكن الرومانتيكية في هذه البلاد صارت انتحاراً، ولست مستعدة لفعل ذلك، هكذا لوجه الله. ورائي مسؤولية كبيرة. ابنان عليّ أن أسهر على تربيتهم.

- أنا كذلك أحبهما.

- والله لو يقع لك أيٍ مكروه لن يتسامحوا معك مطلقاً. لا تخطِيء في حقّهم على الأقلّ.

عندما عادت من باريس بعد مدّة قليلة من سفرها، لتعود لها ثانية، لم يتغيّر رأيها مطلقاً. مسألتي ومسألة الأطفال ظلّتا شغلها الشاغل. كانت حزينة ومنكسرة رغم صفاء وجهها.

مازحتها.

ـ باريس خرَجتْ عليك. أنا سعيد جدّاً لابتعادك عن هذا الكابوس.

ـ الكابوس فيّ. يا مجنون! يا مجنون! اختر قدراً غير هذا. الأولاد صاروا مرتبطين بك كثيراً. وإذا لم تذهب، لن يذهبا معي، خصوصاً ريما.

ـ أقنعيها.

ـ رأسها مثل رأسك. حاول معها أنتَ.

ـ يا مريم، أين نذهب؟ من يقبلنا؟ بعد أربعين سنة نبدأ من الصفر. قلوب النّاس صارت ضيّقة ولهم أعذارهم. هل أذكّرك؟ ذهبنا نختبئ عند زميل لنا، في اليوم الثاني بدأ ينصحنا بالذهاب عند أصدقاء آخرين، ذهبنا في العطلة عند أخيك في أمستردام، في اليوم الثالث بدأ محروجاً أمام صديقته. هل أواصل أم أتوقف.

ـ أنت تبحث عن كلّ ما يبرّر بقاءك. إبقَ إذا كنت مصرّاً. ريما وياسين سجلتهما في المدرسة ولن أعود إلّا بهما. وأنت تعرف أنك تستطيع أن تجد عملاً إذا أردتَ. فالجامعة واسعة لديك أصدقاء كثيرون.

ـ هل أستطيع بعد هذا العمر أن أعيد ترميم الخرابات والكسورات. لا. لا. خذي الأطفال وسافري. سأكون سعيداً.

لم أجد صعوبة كبيرة في إقناع ياسين مطلقاً. فقد بدأت مراهقته بشكل مبكّر. يحلم بباريس، والأنوار، والموسيقى، والرايبوك وجوردان والألبسة الأمريكية. المدرسة لم تعلمه إلّا كره الحياة والبلاد. أخاف عليه في هذه السنّ من السقوط والانهيار، والمخدرات التي صارت تباع في المدرسة بشكل شبه علني.

لكن ريما، بالرغم من محاولاتي، لم تقتنع. كنت أتحدث، بينما عيناها كانتا مرتشقتين في عمق البحر. عندما خرجت أمّها، قبل عودتها إلى باريس، دعتها للخروج معها على الساحل، فضّلت البقاء معي قليلاً. كنّا وحيدين مثل العزلة.

جلست في حجري. قبّلتني على جبهتي، ثم سألتني وهي تبحث عن ابتسامة ضائعة:

ـ بابا، هل تُسافر مع ماما غداً؟

ـ لا. ستسافرون جميعاً. أنتِ. ماما. ياسين.

ـ أنا، لا. إذا بقيتَ، سأبقى معك.

ـ إذا كنتِ تحبّينني حقيقة، سافري.

ـ طيب. وهل تأتي بعد أسبوع مثلاً، وتلتحق بنا؟

ـ تريدين الحقيقة، أم الكذب

ـ أنت لا تكذب أبداً.

ـ إذن في الوقت الحالي، أفضّل البقاء هاهنا.

ـ إذن أنا كذلك، سأبقى معك.

ـ أنتِ مجنونة. ستذهبين.

ـ أحبك يا بابا. وحدتك ستكون قاسية، أعرف أنّك تحبّني ولن تجبرني على الذهاب. لن أتركك وحدك أبداً. أعرفهم أكثر منك. في المدرسة يسألونني دائماً، بما في ذلك معلمة اللغة العربية. هل أبوك يصوم؟ هل أمّك تعمل؟ هل أبوك يستقبل طالباته. أمك هل تعرف رجالاً آخرين؟ أكاد أصرخ، فيما يعنيكم هذا؟ ثم أتراجع وأقول، هؤلاء لا يستأهلون أن نقول لهم ما نفكّر فيه.

ريما كبرت بسرعة في هذا الجوّ القاتم. تركت الدّمى الصغيرة وقطّتها التي جاءت معنا، منذ أن دخلنا بيت فاطمة وصارت تنام بين رجليها. صارت ريما تغلق التليفزيون تلقائياً كلما سمعت خطبة يوم

الجمعة، أو حديث الاثنين الديني، وقرآن ختام القناة في آخر الليل. تقوم لا شعورياً وتضغط على أتزر وتبدأ في الاستمتاع بالصمت الذي يملأ فجأة هذه الصالة الفارغة.

وعندما سافرت مريم وياسين، جلست ريما قبالتي في المساء نفسه وسألتني بعاداتها الطفولية.

ـ بابا. هل تحبّ ماما؟

ـ نعم. جدّاً.

كنت منكسراً في داخلي، بين لحظة خوف وشهوة غامرة للبكاء.

ـ لماذا إذن لم تسافر معها.

ـ ستعود. أو ربّما سنسافر عندها في العطلة القادمة لأيام، كما وعدتُها.

ـ وماذا، لو نجدها قد تزوجت بإنسان آخر؟

ـ هي تحبّنا كثيراً، ولهذا لن تفعل ذلك.

ـ أنا كذلك متأكدة أنها تحبنا ولن تفعل ذلك.

ثم تغرق في صمتها الطفولي، بحثاً عن أسئلة أخرى، لتخرجني من دوّامة الصمت والكتابة والموسيقى التي كانت تملأ هذا البيت المتواضع المشرف على البحر والعزلة. وعندما أهزّها، أجدها قد نامت بحزنها ووحدتها على الطاولة الكبيرة التي تعوّدت أن أفرش عليها كتبي ومخطوطاتي وأوراقي، فآخذها وأضعها على فراشها وهي مستسلمة لسفرة ملونة نحو مدينة بعيدة، سمعت عنها كثيراً ولم ترها مطلقاً في حياتها.

7

5H - 15MN

ليالي باريس باردة، ولكنها جميلة.

لست أدري من الذي أقنع الآخر، أنا أم ريما. إذ بمجرد مجيء العطلة المدرسية الشتوية، كنّا قد حضّرنا كلّ شيء للسفر نحو باريس. صحيح أننا طرحنا الفكرة مع بعضنا البعض ولكنها ظلت فكرة فقط واحتمالاً. كانت مثل العصفور المجنون. لا تدري أين تستّقر. ظلّت طوال الأيام التي تلت تحضيرنا للسفر، تحلم وتسألني بقلق. كيف ياسين الآن؟ ماما ستكون سعيدة؟ هل نبقى هناك مدة أطول من العطلة؟ هل نزور عمّتي في الضاحية الباريسية، أنا لا أتذكّر سوى شعرها المحنّى...

قلت لها:

ـ هل تريدين أن نخبر ماما أم نفاجئها في عناونها؟

ـ لا. ستكون المفاجأة صعبة. يستحسن أن نخبرها.

عندما تلفنت لمريم، بدأت تبكي، مباشرة، حتى قبل أن أتحدث.

ـ ولكن لماذا البكاء. أنا قادم مع ريما. العطلة الشتوية ستبدأ هنا بعد أيام.

ـ عَاوَدْ واشْ قلت؟

ـ أنا جاي مع ريما.

شعَرْت بالأرض تغادرها من تحت أقدامها. وبدأت تعدّ الساعات المتبقية. الأيام التي تفصل بيننا صارت ثقيلة علينا جميعاً. سمعت قهقهتها وهي تقول.

ـ هاه.. ربّي جابك بين يديَّ. أنا اللّي نْمَشّيك ونْسَّارَهْ بِيكْ في باريس هذه المرّة. ما عَنْدَك وِينْ تْروحْ مِنّي!

ـ الحمد لله! سأتحرّر من عبءٍ ثقيل.

ـ كْبَرْنا ياالسّي مُوْح.

ضحكنا طويلاً، ثم قالت بهدوء، كمن أدرك أن فرحته ما تزال مشروعاً مؤجلاً.

ـ ومع ذلك أحذر. إني افتقدك كثيراً، وسط هذا الخواء الجميل.

ـ وأنا كذلك. وربما أسعد مخلوقة في الدنيا.

وبعد أن تحدّثت مع ريما، صمتنا طويلاً. كنّا نتقاطع داخل نجمة هاربة، وننكسر كحرفين مثقلين بالمعاني والشعر والخوف، في انتظار سحر قادم اسمه السفر.

في اليومين الموالين، كان كلّ شيء قد أُعِدّ نهائياً للسفر. سألتني ريما.

ـ هل يعرف أحد بسفرنا؟

ـ لا أحد. طبعاً ما عدا طَاطَا فاطمة.

ـ وعمّال الخطوط الجويّة؟

سؤال كان يعني الكثير، خصوصاً بعد حادثة تفجير المطار الدولي والتواطؤات التي حصلت داخله.

ـ لا أدري. ولكن يجب أن لا نبالغ في الخطر وإلاّ لن نتحرّك من مكاننا.

ـ أنت تقول دائماً هكذا. يجب أن نحذر قدر ما نستطيع.

- ولكن أن نترك مجالاً صغيراً للحياة. يا الله ريما. ما يْكونْ غِ الخيْر.

كانت فاطمة هي التي تقود سيارتها. وطوال الرحلة الفاصلة بين بيتها والمطار، ظلت ريما تلتفت من حين لآخر وراءها في صمت، وكلما اقتربت منّا سيارة، قالت لفاطمة.

- طَاطَا، أسرعي شويَهْ. الوقت، حتى لا نتأخر.

كنت أدرك حساسيتها من كلّ محيطها. لم ترتح إلّا عندما بدأت الطائرة تخترق الضبابات الداكنة التي كانت تغطّي الساحل العاصمي الممتدّ كشريط أبيض وملون في نهاياته، لتدخل نهائياً وسط غبار من الخوف وسواد يشبه الظلمات.

صمتت ريما. صمتّ أنا كذلك.

قلت في خاطري. موتي توقّعته كثيراً، ولم يحدث في أخطر الأمكنة التي توقعته فيها. وها أنذا مرّة أخرى أخرج حيّاً من خواء مقلق يشبه الموت في كلّ شيء. أحياناً أتعجّب كيف نجوت من الموت حتى الآن، مع أن الموت ظلّ في داخلي، هو المسألة الوحيدة المؤكّدة.

كانت الطائرة ما تزال تصعد، مخترقة كلّ الاهتزازات والظلمات. تمنيتها أن تخترق السماء التي كانت ما تزال في ذهني عبارة عن زجاج شفّاف يمكن أن تكسره الحجارة. ريما كانت صامتة وكنت أحاول أن أغلق عيني وأبعد قدر المستطاع كلّ صور اليأس. فجأة عندما فتحت عيني، بعد إغفاءة لم أستطع ضبطها رأيت جبالاً بيضاء تشبه قطناً كثيفاً ضائعاً في الفراغ. تذكرت جبال ميلانو التي عبرتها ذات شتاء وأنا مسافر باتجاه جينوفا، بعد توقف بباريس. بياض مذهل ومُغْرٍ، لم تلمس ارتفاعه يد إنسان.

ريما بدأت تنتشي. سألتني.

- هل يوجد بياض مثل هذا، في هذه الدنيا.

ـ يمكن. قلبك بهذا اللون. الحبّ، يمكن أن يكون كذلك بهذا اللون.

ثم تسأل مرّة أخرى، بدون انتظام ولا منطق في أسئلتها.

ـ وهل المسافة ما تزال بعيدة؟

ـ ساعة فقط.

ـ إذن سأغمض عيني وعندما أفتحهما أجد نفسي بين يدي ماما.

ـ أو بابا مثلاً.

ـ أنا معك دائماً.

ثم تغمض عينيها وحتى عندما تفتحهما، فهي لا تريد أن ترى شيئاً سوى مريم.

لم نقف كثيراً في الصف، للمرور عبر معابر الشرطة. ملأت ورقة الدخول. كانت ريما تراقب خطّي وتحاول أن تقرأ ما كنت أكتبه. فجأة وقع بصرها على كلمتي: Pays d'origine. على البطاقة الصفراء. سألتني في اندهاش.

ـ هل كلّ المطارات بهذه الوقاحة؟ لماذا يسألون عن البلد الأصلي؟ فيما يهمّهم أمرٌ مثل هذا؟

ـ هكذا، كلّ مطارات العالم يا ريما.

ـ وهل يمكن للإنسان أن يملك أكثر من وطن أصلي واحد؟

كدت أقول لها. ريما ما زلتِ صغيرة. العالم أكثر تعقيداً. هناك من يملك أوطاناً يغيّرها مثل الألبسة والأطقَم، عند الحاجة. بعدها عدلتُ عن فكرتي. لم يكن ضرورياً التنغيص عليها.

قطعنا المعابر. كلّ شيء مرّ بسرعة. عندما التفتّ أبحث عن ريما، كانت ملتصقة بصدر أمّها مثل طفل صغير.. صغير.. صغير.

نست ريما كلّ شيء في تلك اللحظة، حتى ياسين الذي بقي متسمراً يبحث عنّي بعينيه، قبل أن يركض نحوي لمعانقتي.

في باريس، يأتي الليل بسرعة.

عندما شرّعت النافذة في الطابق الثاني والعشرين في حي *ساحة إيطاليا*، شعرت من عينيها أنها كانت منهكة. امتصّت نفساً كبيراً من سيجارة كانت تموت بهدوء بين شفتيها وأصابعها وارتباكاتها وصمتها، شيئاً فشيئاً كأنها كانت تريد اختزان باريس بكاملها في حالة شعرية نادرة.

شهر ديسمبر هذه السنة أمطاره قليلة، لكن برده لا يُطاق.

التفتت مريم نحوي، كأنها تقرأ قسمات وجهي من جديد، بيننا كثافة من الأدخنة التي كانت تتصاعد ببطء كبير.

ـ ماذا أقول لَكَ. أنت مجنون وأنا بدأتُ أتعب.

ـ وحياتك أنا سعيد جدّاً ومطمئن على الأقلّ على سلامتك. الأطفال مسؤولية مرعبة.

ـ قُلْها لرَاسَكْ. تموت لأجل ماذا. الوطن!! يحتاجك واقفاً على قدميك.

ـ لا أملك أي جواب ولكنّي أشعر مع نفسي أن الوضع لم يصل بعد إلى درجاته القصوى.

ـ هذا تبريرك. كم بقي من أصدقائك في الجزائر. الأغلبية قُتِلتْ وما تبقى حمل حقائبه.

ـ قد تكون أنانيتي الصغيرة هي التي تبقيني وسط هذا الجحيم. قد تكون بطولة دونكشوتية لا معنى لها إلّا عندي. وعندي شخصياً.

ـ هذه الأجوبة أعرفها. كنت أتمنّى أن أسمع منك شيئاً آخر، ولكنك كعادتك، عندما تركب رأسك، لا تسمع إلّا لنفسك.

ـ أنا أخفقت مع نفسي. كلّ شيء ينهار. حتى أبسط الخطابات

صرنَا نشكك فيها. مراجعنا انكسرت. ضخمناها حتى صدقنا أنها كلّ شيء في هذه الدنيا. وها هي الدنيا تضحك علينا. ماذا بقي من الاشتراكية؟ من العروبة؟ من الثورة؟ من المستقبل؟ من السعادة؟ الوطنية؟..

ـ داخل الدائرة المغلقة لا نرى إلاّ الانغلاق لأننا نظل، شئنا أم أبينا، نفكّر داخل هذه الدائرة. لكن عندما نبتعد. قليلاً، نحتفظ بالمسافة الفاصلة بيننا وبين محيطنا سنكتشف الأشياء بشكل آخر، وربّما أكثر رزانة، وأكثر موضوعية.

ـ ومع ذلك ما زلتُ آمل، حتى لا أموت مختنقاً. آمل حتى ولو كان ذلك داخل المأساة اليومية والكذب الكثير. أصرّ أن نحافظ على هذا الحدّ الأدنى من التوازن من أجلنا ومن أجل الأطفال، عائلات كثيرة انكسرت وسط هذا التآكل الرخيص.

ـ ومع ذلك، ما زلت أصرّ وأقول لك، أبذل مجهوداً أدنى من أجلك. من أجلنا جميعاً.

ـ بذلته، وها أننذا هنا.

ـ لتعود ثانية إلى هناك.

ـ لكنّي الآن هنا. لماذا نجد متعة كبيرة في تدمير ما يمكن أن نملكه من سعادة ولو كان ذلك للحظة؟

ـ أية سعادة، عندما يكون الأساسي فيها مكسوراً؟ أوف. الأحس أن نصمت قليلاً. ربما وجدنا داخل حنين الصمت وخوفه بعضاً من أجوبتنا المعلّقة.

تصمت. تمرّ أشياء كثيرة بسرعة غامضة.

أظلّ صامتاً، تبدو لي باريس من وراء الزجاج المندى بأنفاسنا الشتوية، من خلال هذه البناية الشاهقة، مدينة تنسحب داخل جمال كئيب وداخل قداس جنائزي محاط بالنجوم.

ماذا يمكنني أن أفعل يا الله!؟ كلّ شيء بدأ يصغر إلّا هوة المأساة.

هل أقول لها غيابك يعذبني، وأني كلّ ليلة أقاوم رغبات كثيرة للبكاء على مشارف هذا البحرالذي يسكنني؟ هل أقول لها، أنّي أفكّر أحياناً في الانتحار بعدما انغلقت كلّ الأصابيح والأشواق؟

هل أقول لها، ما أودّ دائماً قوله. أذهبي إلى أبعد نقطة ولا تلتفتي وراءك، لأنك إذا التفتّ ستصيرين تمثالاً من تراب، ثم حطاماً.

تذكرت داخل فاجعة التأمل صورة مقهى Le Départ. في سان ميشال. أسئلتي التي تحيرني دائماً. هل هو مجرّد صدفة، الارتباط بهذه المقهى؟ ماذا فيه سوى الإحساس بالرحيل الدائم. لماذا اختاره هؤلاء الفنانون الضائعون داخل هذه المدينة التي تحوّلت إلى قفر.

عندما دخلته أنا ومريم، كنت أظن نفسي أنّي سأكون وحيداً مع مريم. نستمتع للحظات بالمارة، وبكأس البيرة. فجأة امتلأ بالوجوه التي أعرفها. تذكرت أصدقاء ضاعوا في هذه البلاد وفي غيرها. عراقيون أكلتهم المنافي. فلسطينيون ركضوا طويلاً نحو وطن، كلما اقتربوا منه، زاد ابتعاداً وتقلصاً، يمنيون وخليجيون، رفضوا البداوات الميتة، لكن صراخاتهم ظلت في وادي والدنيا في وادي آخر... كنت أظن أن ذلك يحدث للآخرين فقط، أمّا أنا، فقد كنت من وطن أنشئ داخل النيران والقيامات، ولن يقبل أن يتقهقر نحو الموت. لكن الذي حدث، اختزل دفعة واحدة هذه البشاعات، والجنازات، والقتل، والمنافي في حالات لا يمكن فهمها بدون أن نفتقد شيئاً من عقولنا ورزاناتنا.

لقد بدأ الربيع المفجع. هاهم يدخلون. يتناوبون على الكراسي. يتلذذون بالبيرة الرديئة والقهوة الرخيصة. يسألون عن البلد. كِيفْ رَاكُمْ لِهْيَها؟ أخْك لي يَرْحَمْ والدِيكْ على سَاحَةْ بُورْ سَعيدْ، مَازَالْ فيها الأطْفَال والحَمامْ؟ أَنَا خُوك واشْ رَاهَا الجامِعَةْ وديدُوش مْرادْ والبَناتْ الرائعاتْ؟ لاَبْراسْ مَا زَال يْشربوا فيها البيَرة؟ يا الله، لو

كأنْ اِللّي يُوجَدْ لحظة سِلْم واحِدَهْ يرسم فيها نوتردام دافريك. كيف مرتفعات المدينة؟ كيف البحر، هل ما يزال أزرق كما تركناه؟ ألم تَحِلْ بعد ألوانه من هول الكارثَة؟

يتساءلون ولا ينتظرون الإجابات. منافيهم الصغيرة تكبر بسرعة، والمسافات بينهم وبين البلاد تزداد إتساعاً. والذاكرة تتعب وتنسى بشكل لا يُتصوّر.

ـ ماذا تريد. لقد بدأنا نشيخ في وقت مبكر. لم نكن مهيّئين لهذا الخوف.

يفكرون فجأة بإنشاء جمعية للدفاع عن حقهم في الحياة والعمل والشوق. كالعادة يختلفون. يتبادلون شتائمهم وهمومهم وخيباتهم، ثم يخرجون منكسرين. يتوادعون أو لا يتوادعون. بعضنا ينزلق داخل الشوارع الضيّقة المحاذية للشارع الرئيسي، يتلذذ بسقوط المطر ويتخيل نفسه داخل أزقة العاصمة. يرفض أن يضع مظلة على رأسه.

ـ واشْ. مشتاقين ياخويا للنوّ. خليني أستحمّ.

والبعض الآخر، يندفعون بسرعة نحو الميترو، قبل مجيء الليل، لم تغادرهم ردود فعل الخوف التي جاءوا بها من هناك. من بلاد الظلمة والموت. وبعضنا الآخر يبقى هناك متسمراً عند مدخل المقهى، بعد أن ضاعت كلّ الاتجاهات في عينيه. يأكله التساؤل اليومي. وينْ نَمْشِي اليَوْم؟ وِينْ نْبَات. البارَحْ كنتْ عِنْد اخمِيدا. اللّي قَبْلُه بتّْ عند بْيَارْ. وَقْبَلْهَا يكثْرْ خيْرَها، استقبلتني مَاري أكْثَر من أسبوعْ. اليوم. اليوم. اليوم. وين نرُوُحْ. يتساءل. ثم فجأة تبرق في رأسه فكرة. يستأذن. يتلفن. يعود سعيداً. يركب أوّل حافلة بدون حتى أن يقصّ بطاقة، ثم ينكفئ على كرسيه، يتسلّى من وراء زجاج الحافلة المضبب بالأنفاس بكتابة. الجزائر. تبدوالكتابة مقلوبة. نحاول أن نقرأها بصعوبة، وعندما نفكّها تكون الحافلة قد غادرت مكانها.

عندما عدنا الى البيت، كانت مريم حزينة.

التفتُ نحوها. كانت غارقة بين أدخنة سجارتها وداخل شلالات الضوء الآتية من بعيد داخل هذه البناية التي تقع في الطابق الثاني والعشرين.

ـ في هذا السنّ يا مريم! يصعب عليّ كثيراً. لا أستطيع. وإذا غادرت البلاد. لن يكون ذلك إلّا من أجلك.

ـ طيب، إفعله من أجلي. أريدك حيّاً. أتحمل كلّ رومانسياتك وحنينك. أريدك. بصراخك الذي أشتاق إليه وحزنك الدافئ ولا أريدك صورة بالأسود والأبيض معلّقة داخل إطار قديم. انظر. ألم تكفيك هذه الصور؟ إنهم يملأون الحائط. أصدقاؤك. أصدقاؤنا جميعاً. لقد قتلوا الواحد بعد الآخر. ماذا ربحنا سوى مرارة موتهم وبكائهم وحنين افتقادهم الذي يأكلنا من الداخل كالأخشاب المسوسة؟

ـ لكن. ما يزال في البلاد متّسع للحياة.

ـ أنت تصرّ على قتلي وتعذيبي.

تسحب نفساً جديداً من سيجارة جديدة التوت عند رأسها المشتعل كالأفعى. قطعت دخانها برشفة ويسكي. كان صمتها يزداد عمقاً. أحنت رأسها على صدري بعد أن امتصت ما تبقّى من السيجارة وعركتها في المنفضة طويلاً.

كانت معالم باريس تزداد وضوحاً إثر خيط هواء كان يتسرّب من المطبخ، ماحياً في طريقه الضبابات التي كانت تدفن المدينة من كثرة أنفاسنا وأدخنة السجائر. أضواء المدينة كانت تتكسّر تحت حبّات المطر، مخلفة على زجاج النافذة الكبيرة نجوماً صغيرة وإشعاعات بلّورية. كانت القطرات تتكسر بسرعة على زجاجات الشرفة لتتدثر، مخلّفة وراءها حبيبات أخرى في طور التكون. تبدو معالم المدينة من ساحة إيطاليا منكسرة. برج أيفل. مونمارت. مونبارناس. الأوديون. ولكنها كانت هادئة، لا شيء يحرّك صحوها وصفاءها، في هذه الساعة المتأخرة من ليلة لا وجه لها سوى الحزن والصمت وبعض المشاكسات واليأس.

أسبوعاً كاملاً قَضيّناه داخل هذا البيت الذي يقع في *الدائرة الخامسة*، لم يثمر إلّا مزيداً من التعلّق والحب والخوف والأسئلة. صديقي رشيد الذي وضع هذا البيت تحت تصرّفنا كان طبيباً. قال.

ـ أنا أعرف ماذا يعني أن يكون الإنسان وحيداً داخل مدينة لا يعرف من تفاصيلها إلّا اسمها وبعض الزيارات السياحية. هو لكم لمدة شهر، لأنّي بعته وسأسلمه بعد هذه المدّة لصاحبه.

في الحقيقة، المشكل لم يكن هنا. كانت عمّتي قد فعلت نفس الشيء معنا. قالت.

ـ أمامكم بيتي. فهو فارغ.

أصدقاء فرنسيون كثيرون، وضعوا أجزاء من بيوتهم تحت تصرفنا. معظمهم كانوا يحملون غبن الحنين لبلد أحبوه. بعضهم وُلِد في البليدة أو في باب الوادي هو وأبواه. يقولون: نحن لم نفعل شيئاً. نشعر بأن تلك التربة لنا. نحسّ بها. نتألم لها ونخاف عليها كثيراً. كانوا بسطاء في تعاليقهم. لكن المحيط العام لم يكن متفهماً ولا عارفاً بما يقع في البلاد ولهذا، فهم في أحسن الأحوال يقدمون دروساً فيما يجب فعله والقيام به. دروس مثل هذه، كانت تبدو لي مضحكة لا أدري لماذا؟ أحياناً أقول في خاطري، ربّما لأنّي قادم من دائرة مغلقة كما كانت تقول مريم دائماً. أو ربّما، هؤلاء البشر لا يعرفون من حسرتنا إلّا تأوهاتنا التي يحدث أن يتعاطفوا معها بدون القدرة على ملامسة تفاصيلها. لكن في كلّ الأحوال كان من الصعب عليّ تحملها بصمت، أنا الذي لا يتحدّث إلّا قليلاً.

العالم يا مريم، كلّ يوم يزداد ضيقاً. روسيا تعود رويداً رويداً إلى حدودها القيصرية. ألمانيا تجد قوتها ووطنيتها، وفاشيتها، تعود جهاراً بعد خمسين سنة فقط من المقتلة. إيطاليا تغازل فاشيي البارحة الذين عادوا بأعلامهم وخطاباتهم. أوروبّا تبحث عن سبل وحدتها وغلق حدودها في وجه جنوب جائع يهدد يومياً كالجراد

باجتياحها؟ وفاشيات رعوية دينية لم تعرف لها البشرية مقابلاً في التاريخ تملأ شوارعنا وحيطان مدارسنا وجامعاتنا، بل حتى مراكز أمننا. أزمات اقتصادية في كلّ الدنيا. دول تندثر وأخرى تولد من رمادها.

ـ ألا يوحي ذلك بحالة دمار كلّي؟ بخوف؟

ـ وهل ستغيّر مسار هذا العالم لوحدك.

ـ الفاشية الرعوية الدينية، ليست قدراً على الإطلاق. قد يتسبّبون في خراب البلاد. قد يفككونها. بل كلّ شروط التفكك الآن متوفرة، ولكنهم إذا حكموا لن يحكموا إلّا الرماد. وعندما لا يجدون ما يقتلونه، سيلتفتون نحو بعضهم بعضاً ويتآكلون. هكذا القتلة دائماً الذين لا قضية لهم إلّا التأويل والدم. في لحظة من اللحظات، يصير الكلّ مؤمناً، أو الكلّ كافراً. هكذا الدين يا مريم. الذي يملك السلطان، يملك حق التأويل.

ـ أنا لم أطلب منك هذه التفاصيل المعقّدة. أريدك لي. للحياة. ببساطة. بحب. الذي يحب بلاده يعرف كيف يدافع عن نفسه. أنتَ الآن تنتحر. وانتحارك حالة غير واعية.

ـ أحياناً أنا نفسي لا أفهم. شيء ما يشدّني إلى هذه القساوة. ربّما كان صادية مخفية في الأعماق. ربّما كان الرغبة في الكتابة. أعني البحث عن تجربة دونكيشوتية أكثر منها تجربة واعية.

ـ يا حبيبي. أنت هناك، من أجل من؟ الناس؟ لقد اختاروا عندما انتخبوا. الجهل والوعي الذي قاد إلى هذه الحالة يتحمّله النّاس الذين حكموا البلاد منذ ثلاثين سنة. الجهل والأميّة والنّهب، لا ينجبون إلّا بدائلهم.

ـ هل نصمت ونقبل هذا الموت الذي يكاد يتحوّل إلى قدر؟

ـ لا. نفكّر فقط بشكل براغماتي.

فجأة شعرت بوخزة في صدري. بحركة لا شعورية وضعت

يدي في مكان الألم. أصبحت هذه الحالة متواترة في السنتين الأخيرتين. أنا أكره الطبيب في حالات السلم، أمّا الآن، فالذهاب له صار من المستحيلات. يمكن أن يفاجئنا القتلة في أية لحظة من اللحظات. موت السكتة القلبية أهون من سكين جزّار. أقولها دائماً لأقنع نفسي داخل خواء مدينة لم تعد تعرف نفسها. انتبهت مريم لتقوّس ظهري المفاجئ.

- مالك. عندك شِي حاجة؟

- لا. غير شوية ألم في القلب، كالعادة، ينغزني ويروح.

- وكيف قلبك؟

- مثل قلوب جميع الناس. كلّ يوم يضيق قليلاً.

- يكفي. ما تتمسخرش. أنا أسألك عن صحتك.

- لا جديد، إلّا ما تعرفينه. الجهة اليُسرى من جسمي لا تعجبني مطلقاً. تصلّب في الشرايين، انتفاخ غير عادي. نقاط حمراء صغيرة، يبدو أنها الأوعية الشعرية التي بدأت تتمزق من جراء الضغط. لقد ازداد عددها في الصدر والذراع. يبدو أنّي بدأت أتعب وأن قلبي صار صغيراً.

- أنت تخيفني.

- أوف. أنتِ تعرفين هذه الحقيقة منذ زمن بعيد.

- لكنك الآن تتحدّث بشكل آخر.

- يا مريم، أليس من الأفضل الآن أن لا ننغّص على أنفسنا هذه اللحظة. أنا أعرف مسبقاً، إذا لم يقتلني القتلة سأنتهي تحت تأثير سكتة قلبية. على كلّ الدنيا هكذا، فلماذا نتصورها على غير ما هي عليه. لن أكون لا الأوّل ولا الأخير.

كانت باريس ما تزال غارقة في أضوائها وانكسارات ألوانها. وكنا، أنا ومريم، ضائعين داخل قطرة ماء، نتكوّر على زجاج مندّى

ثم ننكسر، لنتكوّر من جديد، نبحث عن الإجابات المستحيلة داخل أسئلة لا تقود إلّا إلى أسئلة أخرى.

أصلاً لم أكن أعلم إذا كنّا داخل هذه الحجرة العالية التي تقع في الطابق الثاني والعشرين، أم خارجها، في زاوية ما أو داخل حزن ما يلمسنا، يستفزّنا وكلما اقتربنا منه ازداد بعداً.

كلّ حياتنا كانت مجرّد احتمال لا أكثر.

8

5H - 40 MN

مددت يدي نحو ورقة مطوية عدّة طيّات. فصلتها عن بقية القصاصات القديمة التي بدأت رائحتها المؤذية تخدش أنفي. رسالة.

ياه! كلّ شيء يَحُولُ بسرعة كبيرة.

كانت تظن بأني سأسبقها إلى المنفى، فسبقتني.

هذه السنة انتهت بدون ندم كبير. غادرت البلاد كثيراً وعدت لها بسرعة أكبر. حملت حقائبي مراراً، والتقينا في المطار وتوادعنا أحياناً على ابتسامة، وفي أحيان أخرى على دمعات، كان من الصعب التحكّم فيها.

ياه! الأيام تحول بسرعة، وكذلك الرسائل.

لا أدري الزمن الذي قضيته وأقضيه في هذه الحفرة، ولكنّي أعرف أنه يمرّ بتثاقل كبير. فتحت الرسالة. كانت ورقاتها منهكة ومنكسرة على بعضها البعض.

سألتَني يَوماً وأنا أستقبلك لأودعك من جديد. سألتني وأنت تضحك وتخبئ رأسك بين يديك، ما رأيك لو أبقى هناك، بعيداً، بعيداً

عن هذا الموت اليومي. لا أدري إذ كنتَ تعني ما تقوله، ولكنّي صدقت أن الفكرة اختمرت في ذهنك. لم أتردّد في الجواب. قلتُ لك. سافر. إذا كنتَ حقاً تحبّني سافر، ولا تَعُدْ. أنا أفضّل أن أراك واقفاً وبعيداً، على أن لا أراك أبداً. قلتَ. الفراق صعب، وأنا لست مهيئاً لهذا المنفى إلى الأبد. قلتُ لك. سيكون عزائي الوحيد، أنك حي، وأنك هناك، بعيد عن المخاطر المفاجئة. يعزّ عليّ كثيراً رؤيتك وأنت تسير في الشوارع وتلتفت وراءك في كلّ مرّة خوفاً من يد غادرة. يعزّ عليّ أن تختبئ داخل الظلمة وأنت متعود على النور والحياة، يعزّ عليّ أن تموت في اليوم ألف مرّة وأموت أنا معك مليون مرّة. ضحكتُ. ياسيدي بِرْهَا وْسَافِرْ. اِرْحَلْ. رُحْ بْعِيدْ. بْعِيدْ، وِينْ مَا يْشُوفَكْ حَتَّى حَدْ. نْخَاف عْلِيك مِنْ العَيْنِينْ والقَتَّالِينْ. اِرْحَلْ، وسأنتَظرك العمر كلّه. وعُدْ وأنْت تحمل لي كعادتكَ، باقة وردٍ. سَئِمتُ وأنا أراك يومياً تتعامل مع خوفك كقدر محتوم عليك وأنا أعرفك لا تحمل في قلبك إلّا ما يوقظ فيك حاسة الجمال، وكتباً ملوّنة بالكلمات التي لا تزرع في القلب إلّا الدِفءَ والسمُوَّ. أنت عودتني على مقاومة كلّ الأقدار التي تفرض علينا. أراك الآن تتهاوى كالحائط القديم. سافرْ ودعني أعيشك ممتلئاً بالنور، حتى ولو كنتَ بعيداً. لستُ مستعدّة لفقدانك بعد أن التقيت بك مرّة أخرى. كلّ ما أطلبه منك هو أن تكون سعيداً وممتلئاً بكل ما يثير أشواقك. وتذكّر دائماً أن هناك قلوباً كبيرة تحبك ولا تنبض إلّا لأجلك، رغم العيون الهمجية ونظرات السحق والخوف والحسد أحياناً.

يا صديق الحياة.

أحياناً تبدو الحياة لعبة. سخرية متكاملة. الذي حدث. هو أنك بقيتَ وأنا رحلتُ. دفعتني إلى مساحيق المنفى وتخلصتَ نهائياً من كلّ ملاحظاتي. عندكْ. إحذَرْ وأنتَ تركب سيارتك. وأنتَ تقطع الطريق. ما تثقْ حتّى في وَاحِدْ. يضحَكْ لك اليوم وغدْوَا يبيعك لأوّل قاتلْ. شَفْتَكْ الصبّاح، ركبْتَ سيارتك بشكل عادي. يا ربّي سيدي. أنتَ راسَكْ غَلِيظ كما أمّكْ، ماتَسْمَعْ إلّا لنفْسَكْ... الآن، تخرج وتدخل براحة

قاتلة، قد تودي بحياتك يوماً. بل أراك يومياً تُقتل. لقد صرت كابوساً يتكرر باستمرار.

أوف! باريس. كنتَ تقول عنها دائماً، عروسة المدن العظيمة. ماذا تساوي مدينة أنت لستَ بها؟! قد تقول عنّي مطَاكَطْكَةْ. مجنونة. أنا هكذا. تعرف أنّي مثلك، أبجدية مستعصية. خذني كما أنا. بعيوبي وأخطائي وخوفي عليك. هل تتذكر تلك الليلة عندما يَئِسْنا من كلّ المحيط. كنّا منكسرين. قلتَ في نهاية المطاف. لماذا نحوّل الدنيا إلى قيامة. فأشعلنا أجمل شمعة ملونة كانت عندنا في البيت وتحدثنا طويلاً وكأننا نكتشف بعضنا البعض للمرّة الأولى. في تلك الليلة توقفت عقارب الساعة على الأناشيد المؤلمة عن التي تبحث عن إله أكلته براكين الحنين والخوف. هي الآن بعض زادي في هذا المنفى الذي يتفاقم بسرعة. ويكفي اليوم أن أدرك أنك ما زلت هناك ليزداد ارتعاشي والتصاقي بوهمك وظلك، فالتفت نحو ذاكرتي المنكسرة. جنازتي. أو إلى قصاصة من قصاصاتك، أو إهداءٍ من أهداءاتك على صفحة كتاب ممتلئ بالأمل والحب، أسترجع من خلالها أملي في بعض الحياة. أمشي في شوارع هذه المدينة الواسعة التي كنّا نزورها في العطل كلما كان ذلك ممكناً. لا لشيء إلّا لتذكرك والتمتّع، بل التلذذ بهذه الذاكرة المنكسرة التي صار كلّ ما فيها ماءً يصعب لمسه، لأشعر نفسي أنّي ما زلت قريبة منك. لأسترجع أملي في الدنيا التي تهرب كرمال ساحل مهجور بين أناملنا، في لحظة قيض. يكفيني أن أتذكرك لأجد نفسي ضائعة داخل شوارع وممرات هذه المدينة المذهلة ونحن مع بعضنا بعضاً. كم بقي لنا من الحياة لنضيّعه. كثير من الحبّ وقليل من الجنون لا يؤذيان أحداً. أنت علمتني هذا، وعلمتني إدمان هذه المدينة بنهم كبير.

ها أنذي اليوم وللمرة الأولى في حياتي أُدمنها لوحدي.

أشعر بالغصة. بالاختناق حزناً. أتمنّى لو أمسك بك وأقبضك من شعرك الملفلف وأصرخ في وجهك بأعلى ما أملك. إني أشتاق

إليك. إنّي أموت في هذا المنفى الذي لا يصلح إلّا للشعر والأشواق. إنك تقتلني إذ تنتحر لوحدك وأنتحر لوحدي. قد تقول في خاطرك. أنتِ إخترتِ الذهاب وأنا سعيد لذلك. ولكنك اخترتَ أنانيتك. مع ذلك، فأنت تشتعل فيّ دائماً.

لا أدري كيف سيكون مصير هذه الرسالة. هل ستقرأها؟ هل ستفعل ذلك وأنت داخل حفرتك أم على متْنِ طائرة مسافرة نحو غياب ما يبتلعك لمدة اسبوع ثم يعيدك إلى قيامتك التي لا تستطيع العيش بدونها.

أحبك وسَأظلّ أنتظرك بشوق وحنّوٍ كبيرين. سأعطيك من عمري، عمراً جديداً بعدها لا تسألني، يكفيني أنّي تحدثت إلى قلبك قليلاً وتجرّأت على مقاومة بعض هذا الخراب، فطالما حدّثتك كالمجنونة بيني وبين نفسي.

غادرتُ مريم مبكّراً، حتى قبل نهاية العطلة الشتوية. عدت مع ريما في ظرفٍ قاسٍ لم تستطع مريم أمامه أن تقول شيئاً. آخر عمّاتي تغادر هذه الدنيا وسط البرد والقرّ والثلج. مرضتْ بصمت وتُوُفّيتْ بصمت أكثر. كانت حائطاً في هذه الدنيا المخيفة باتساعها ووحدة أهاليها وعزلتهم. لم أعد أسمع شيئاً مهمّاً. فقد كانت أذناي مملوءتين بالأصوات الغامضة التي أصبحت تملأ رأسي وصرت قادراً على تحديدها لكن الصوت الوحيد الذي رَسا داخل القاع هو صوت عربات المترو وهي تخترق ظلمة الأنفاق أو وهي تتوقف عند أقدامنا.

أوّل شيء رأيته وأنا على ارتفاع عالٍ، ارتبط مع صوت المضيّفة وهي تعلن للركاب:

ـ بدأنا نهبط على مطار هواري بومدين، الرجاء أن تشدوا أحزمتكم وأن تتوقفوا عن التدخين.

هو السلسلة الجبلية التي كانت تشبه بركاناً يدخل برأسه في عمق البحر مشكّلاً قرناً مبالغاً في تقوّصه. كانت البنايات ما تزال

تبدو صغيرة وهي تزحف جماعات، جماعات نحو الشاطئ، واضحة المعالم، على الرغم من الغيمات البيضاء المعلقة التي كانت تطمسها من حين لآخر، مغرقة في أثرها التماعات البيوتات البلاستيكية التي كانت تطوق ضواحي المدن، والتواءات الطرق المعبّدة الواسعة، والمتّربة. كلها كانت تحاول أن تخترق كثافة الغيمة البيضاء، وأحادية لون البحر الذي أصبحت زرقته قريبة من السواد.

ـ هل يعقل أن تنسى مدينة ما جمالها بهذه السرعة ولا تتذكّر إلّا قراصنتها الذين عبروا مياهها ذات ليلة أو ذات خوف.

هل هو الربيع؟

لا! الربيع يدخل في هذه المدينة مبكّراً، لكن الشتاء ما يزال قائماً ببرده الفجري القارص.

بدأت الطائرة تستقيم شيئاً فشيئاً لتتضح الألوان والأشكال.

هو ذا البحر. يأتي.

إنّه فيَّ، بكل حزنه وكبريائه.

سأجّن ذات يوم، قلتها لمريم. قالت وهي تضحك. وهل بقي لك عقل. قلتُ، وهل تعرفين بقية الحكاية. قالت أعرفك بما فيه الكفاية. ستقول. سأجُنّ، وسأفعلها ذات يوم وأعبر هذا البحر حافي القلب والذاكرة، بدون أي ادّعاء، سوى برغبة العاشق وجنونه وهو ينطفئ داخل شعلة هي هيامه الكبير. عاشق لم يحب لوناً آخر سوى البحر وهو يتلوّن بين البياض والخضرة والانحناءات البنفسجية البعيدة والانكسارات النارية لشمس صارت تغادرنا مبكراً حتى بدون أن نلحق بلثم أشعتها الأخيرة وهي تمسح وجه المدينة المنكفئ داخل حزنه اليومي.

ها هي ذي المدينة تأتي.

بناياتها الشاهقة، خضرتها، أسقفها القرميدية، رافعاتها الصدئة والصفراء، ونُزُلها الجديدة الأجنبية التي فتحت أبوابها ثم بدأت تغلقها الواحدة بعد الأخرى من جرّاء التهديدات بالتفجير.

ها هي ذي المدينة التي تملأني حتى القلب، تستيقظ بشكل غريب مثل طفل صغير حلم كثيراً. عندما فتح عينيه وجد كلّ محيطه المفقود يقف عند رأسه.

ها هي ذي مدينتي التي بدأت تتصحّر بدون سابق إنذار.

عاودتني صورة عمّتي من جديد.

سبعون سنة. خمسون منها في الضاحية الباريسية. نصف قرن من المشاهد والانقراضات. أوّل امرأة فكّرت في مصيري أنا ومريم والأولاد. قالت. اِرحل من تلك البلاد. تتوهّم كثيراً إذ تظنّ أنها لك. كثيرون مثلك فعلوا نفس شيء ووجدوا أنفسهم على مشارف الفاجعة. اِرحَلْ. مَاعَنْدَكْ مَا تَخْسَرْ. خُويَا (أبي) كَانْ مَجْنونْ. عِنْدَمَا اشْتَعَلَتْ نِيرَانْ الحَرْبْ، قَالْ سَأدْخُلُ إلى بِلادِي. مَأوايْ. حَاوَلتُ مَعَه، لكنّه ظلّ مصرّاً. كانَ رأسه خشناً. هو على الأقلّ كانت عنده قضية كان مؤمناً بها. أنْت وَاشْ خَلّيتْ وْرَاكْ؟ هو نفسه لو بقي حيّاً لندب حظه وغير رأيه في كلّ شيء. الذين دفعوا به نحو النار، كانوا مختبئين في بيوتهم الدافئة. والدك التهمته دهشته التي سرقت منه طفولته ذات صيف من سنة 1959. لم يكن يعرف أن البلاد ستصير رخيصة بهذا الشكل. عندما ركبَ رأسه وصمّم أن يدخل قبراً اسمه الوطن، هو الذي قضى جلّ عمره في الغربة، جاءني قبل أن يسافر، كانت معه امرأة تدعى إميليا. أبوك كان جميلاً ومستقيماً كشجرة الخروب التي تقف بشموخ أمام بيتكم القديم (أردت أن أقول لها يا عمتي، شجرة الخروب قُصّتْ من جذورها منذ أكثر من عشر سنوات، ولكنّي فضّلت أن أصمت وأستمع إلى كلّ صراخاتها التي يسمعها أخوها). حتى إميليا حاولت معي إقناعه بعدم السفر، ولكن عبثاً. قالت له، ماذا سَتربح هناك سوى الموت. إنك تنتحر. قال سأنتحر على تربتي، وظلّت طوال الوقت تبكي وتدفعني باتجاه إقناعه ولكن قلبه كان معلّقاً في مكان آخر. ماذا بَقي منهم؟ منه؟ من أصدقائه الله يرحمهم جميعاً؟ ها هي ذي البلاد التي ابتلعت اسمها ودمها ونارها

تنساهم. ماذا تريد أنتَ أن تفعل؟ أن تقلّده؟ قلتُ لها، والله لا أعرف من هذه التفاصيل إلّا شكلها.

ـ يا عمّتي. ماعِنْدنَاشْ ترْبة أخرى. هَذهِ هِيَ بِلادْنَا وهَاذُومَا خْنَا.

ـ كِيفَكْ، كِيمَا أبًّاكْ.

ـ لا أشبه والدي. فقد دخل هذه البلاد يبحث عن رغيف، سرعان ما لعنه. أمّا أنا إذا جئتُ فلأني خائف على حياتي، بينما هو عاد وهو يعرف مسبقاً أن حياته كانت في خطر. أنا هنا اليوم لرؤية مريم وياسين.

ـ بَرْكَا من الفهامَةْ اللي ما تخرّجْشِ. شجاعتك أن تحافظ على زوجتك وأبنائك، وإلاّ تْحبْهم يْعيشوا كِمَا عشْتُوا أنتم، في اليتم والفقر والخوف؟ اسمع يا وليدي، قالت عمّتي وهي تقاوم مرضها الذي أقعدها، تعود لأجل ماذا؟ لقد سرقوا البلاد وتقاسموها باسم وطنيات لم تعد قادرة على إقناع حتى طفل صغير. هؤلاء أشكال هلامية، خليط، لا وجه لهم، تسألني من أين جاءوا؟ من خرابات الأحراش والجوع، وإذا تلاقى الجوع مع الجهل والسُلطان، قل على الدنيا السلام. عندما غادرت البلاد، كنت أعرفهم، وعرفت فيما بعد ماذا يساوون. مَدّيتْ على البلاد شعر راسِي. كنت نجوّعْ أولادي هنا، في بلاد الغربة، ونمدّ ذهبي ودراهمي. وينْ مْشَاوْا. إسألهم. مشاوْا بنا مسافة ثم تخلّوْا عنّا وعن شَعاراتهم. ومَشَوْا باللآحقين مسافة ثم نسوهم، وها هم اليوم يمشون بكم مسافة ثم يتخلّون عنكم تباعاً. يا وَلَدْ خويَا واش نْقولْ لَكْ. اِبقَ أفْضَل لَك ولأولادِكْ.

ـ صعب يا عمّتي.

ـ يا رجل. بلادك تحتاج إليك واقفاً وليس حفنة تراب.

ـ وِينْ نْروحْ؟

ـ عندي. بيتي واسِع. اِبق انتَ وأولادك حتى يفرّج ربي عْلِيكُمْ جميعاً.

ـ مانقدرش. الله غالب.

ـ كِمَا أنْتَ. كِمَا أحمد الله يرحمه.

أوّل شيء طلبته منّي ريما ومن أمها ونحن نعبر الأنفاق باتجاه مسكن مريم، كان رؤية عمتي.

ـ بابا. عمّتي كما وعدتني. توحشتها. لا أتذكّر إلّا شعرها المحنّى.

ـ مايكون غِ خاطّرَكْ.

بينما كان ياسين يحتجّ من جهته.

ـ ماما هكذا. تعد دائماً بدون أن تحقق وعدها.

ياسين نفسه لا يتذكر منها الشيء الكثير. لا يحتفظ من خلال تلك الزيارة السياحية البعيدة إلا بطيبتها وبصورة الكلب «ناتش» الذي شاخ ولم يمت. وبالثلج الذي كان يملأ نوافذ البيت. ولهذا عندما تلقينا خبر وفاتها، كان أوّل من انفجر باكياً بحرقة، بينما بقيت ريما غارقة في وجه أمّها والدمية التي إشترتها لها.

كان الوجع ينفذ نحو الأعماق مثل السمّ.

لم تفكر كثيراً. كانت الساعة العاشرة ليلاً. حملنا الأطفال ونزلنا باتجاه الميترو، ثم محطة قطارات الضاحية «محطة الشمال». بعد يومين عندما عدنا إلى البيت، كنّا منكسرين في ذلك الفجر البارد. كانت السكك الحديدية مغمورة بالبياض، الخيوط الكهربائية الغليظة، الأشجار الضائعة هنا وهناك على أطراف الطرقات والممرّات، إشارات المرور، السيارات الراسية، الأسقف القرميدية الآجورية والرمادية، الواقفون وهم ينتظرون الباصات والقطارات، السيارات، محطّات البنزين الصغيرة وحتى المحطة الصغيرة القريبة من بيت عمّتي، والتي كنّا نعبرها طولاً تحت عاصفة هذا البياض البارد.

القطار الذي أعادنا إلى باريس، كان دافئاً وحزيناً بعض الشيء وصامتاً. لم نكن نسمع شيئاً إلا تقطّعات المحرّك وهو يخترق هذه الطرقات وهذه المتاهات. بعض الأنفاق التي كنّا نعبرها، كانت من حين لآخر تسرق مّني سحر هذا البياض.

شتاء باريس هذه السنة كان قاسياً رغم أمطاره القليلة.

دخلنا بيتنا في الطابق الثاني والعشرين بصمت كبير. كان الإرهاق بادياً علينا وعلى الأولاد. في الداخل، وعلى الرغم من الدفء كان شعور غامض، لا اسم له يدفعني في خفاء نحو البكاء ونحو التهلكة ونحو القيامات الكبيرة التي تُصنع لنا يومياً في خفاء ما.

عندما رفعت رأسي نحو مريم، قَرأتْ كلّ شيء في عيني، حتى قبل أن أتكلّم.

- أظنّ أنك ستقول لي أنك ستسافر مع عمّتك لحضور الدفن.

- ....

- قلها. أنا أعرفك، ولست معارضة على الإطلاق. فكرت طويلاً.

- عمتي الأخيرة يا مريم.

- أعرف، ولكن ربما. لم تنهِ عطلتها.

- أيّة عطلة؟ على كلّ إذا أرادت البقاء. فلتبقَ. اِبعثيها فيما بعد.

- مستحيل. أنا أعرفها. لن تتركك تتحرّك لوحدك على الإطلاق.

- إذن سآخذها معي، وأعدك بإعادتها في أقرب عطلة.

- إيه... اِحييني يا عُمري! يا مَنْ عَاشْ!؟

- هذا وضع استثنائي.

- حياتنا كلها استثناء في استثناء. يا سيدي، خَلّها على الله.

حتى الموسيقى التي كانت تنبعث من زاوية ما من زوايا البيوت

المقابلة، كانت تمرّ بهدوء، لم أكن قادراً على سماعها كما أشتهي. الدنيا هكذا. ثابتها الوحيد هو الحزن والألم. الإستثنائي فيما هو الفرح، ولهذا أتساءل أحياناً، لماذا عندما يأتينا هذا الإستثناء نلزمه بالقاعدة الأولى. شيء فينا يأبى حالات الفَرحِ. يقاومها حتى يدخلها في دائرة الظلام. حتى عندما حاولت جاهداً أن أبعد صورة عمّتي عن ذاكرتي، وجدتني مرتبطاً بها بشكل كبير.

هي، هي. ببساطتها، بانعكاسات شعرها النّحاسي الذي كان يلمع من حين لآخر تحت نار المدفأة الخشبية القديمة وهي تحكي لي حكايات قديمة. خمسون سنة، لم تنسِيها شيئاً من ذاكرتها. تحكي وتضحك، من حين لآخر تهزّ رأسها بشكل طفولي. إسمع... كان جدك الله يرحمه... كان... كان... ولمدّة ساعات طويلة، لا تتوقف أبداً. الكثير ممّا كانت تحكيه لي، سمعته من جدتي وأمي وحتى من بعض مشايخ القرية. لكن في حكاياتها، كان هناك شيء منها. من حياتها وأشواقها. فجأة كلّ هذه الحياة تنتهي وتتحوّل هي في ثلاجة المستشفى التي رأيتها فيها للمرة الأخيرة، تحت عويل جاراتها، إلى مجرّد قطعة ثلج قاسية. يداخلني إحساس غريب، كلما اقترب الليل، وأتساءل: كيف هي الآن داخل تلك البرودة؟ داخل تلك الظلمة الحديدية؟ لا بدّ أن الرجفة تملأ صدرها الذي ضاق في السنوات الأخيرة من كثرة أخبار الموت؟ كيف يمضي عليها الليل داخل تلك الخلوة الإجبارية في إنتظار أن تأخذها طائرة بإتجاه قرية كرهتها ولكنها ملتصقة بذاكرتها. تقول دائماً، وهي التي تحذرني باستمرار من العودة. *بْلادْنا وَاعَرَه. مَاتستَغْرَفْشِ بِك إلا عِنْدما تَحْرَقها وَتنْسَاها. أنَا حْرَقتْها، ولكن ماقْدَرْتْشِ نَنْسَاهَا الله غَالب. كِـ... نْموُتْ. نَتْمنَى نكْمَلْ في تْرابها.*

قالت مريم وهي تنبّهني. الأطفال ناموا. قلتُ، أعرف، لأن هذا الصمت مريب. عادة ضجيجهم ينبيء عن وجودهم.

ـ والله مساكين مكسورين مثلنا.

- واش تحبّي كبروا قبل الأوان.

- مانقوُلكش ماتروحْشِ، ولكن حافظ على روحك.

- سأحاول أن لا أبقى في القرية كثيراً.

- القرية معزولة. ليلة واحدة كافية لذبح كلّ أهلها.

لا أدري كيف حطّت الطائرة وكيف انتقلت من الخطوط الدولية، باتجاه الخطوط الداخلية. كان يمكن أن أمرّ مباشرةً عن طريق الخطّ الرابط بين باريس وتلمسان لكن مريم أصرّت أن أمرّ عبر هذا الخط، على الأقلّ فهو أكثر أمناً.

في القرية التي دخلتها وحيداً، وكأني تركتها منذ زمن بعيد، أوّل شخص رأيته، كانت أُمّي لم أرَ وجهها منذ أكثر من سنة. شيء من الرهبة كان يملأني ويقودني نحو شيء غامض ربّما الموت. أُمّي كبرت وشاخت بسرعة مذهلة. أختي بكت وهي تحتضنني، شعرت بنفسي أنّي قادم من حرب ميّتة أو من موت كان محتوماً. أخي الصغير ظلت عيناه حائرتين من هول ما يكتشف.

نساء القرية كنّ يندبن عمّتي، ومعها يبكين عزيزاً غائباً.

بتّ ليلة واحدة في القرية. قضيتُ نصفها مع أُمّي والنصف الآخر عند صهري الذي ظلّ يحرس كلّ الحركاتْ أكثر منّي. كلما رأى حركة غير عادية أخبرني، حتى صرت أتعب من كلامه ومرهقاً من ملاحظاته.

في الصباح الأوّل وجدت أُمّي عند رأسي.

- ترجع اليوم لفرنسا؟

- لا ما نرجعش. رايح للعاصمة أوّلاً.

- وعلاه مابقيتش مع مريم.

- ماقدرتشِ نسمح في كلّ شيء. أحتاج إلى وقت.

ـ أنت تعرف ياوليدي. قبر عمّتك، قبل ماتَطلَع الشمس. يجب أن تقف عليه حتى تقدر تشوفك قبل ما يطلع النهار.

لم أتساءل كثيراً. كنت في حاجة إلى شيء استثنائي في داخلي. وقفت على القبر وعلى تربته الطرية حتى صعدت الشمس وتكسرت أشعتها على التربة المندّاة. تربة البارحة فقط. لمستها. شممت رائحتها. كانت طيبة. وضعت أُمّي قليلاً منها داخل صدري. قالت. تربة الميّت تحمي الحيّ من الرصاص.

سألتني ريما وهي معلقة في يد جدتها.

ـ بابا. أنت تفكر كثيراً. عمّتي ماتت الله يرحمها. جدتي بخير. ماما بخير كذلك. ياسين بدأ يكبر بسرعة.

ـ الموت صعب.

تعرفين يا ريما، ينتابني اليوم إحساس غريب. أشعر برغبة كبيرة لأكل كلّ هذه الأتربة حتى لا أشتاق لها أبداً. أحتاج إليها وهي تسرق منّي يومياً. بي شوق كبير لفعل ما كان يفعله أجدادي الأوائل. جدّي القديم، عندما غادر أندلسه التي نبت فيها، يقول الرواة، أنّه لم يحمل في جيبه إلاّ حفنة تراب، عندما فاجأه الموت، طلى بها كلّ جسده ثم قال بأعلى صوته أمام الذين كانوا يحيطون باحتضاره.

ـ طز في الموت. ها أنذا ألبس وطني.

أخذت بوقال الزجاج من يد أُمّي. كانت الدنيا قد صارت رماداً وانغلاقات متعددة. تذكرت مريم، امرأة من حنين وذاكرة وشوق. ثم بدأت أحفر مثل المجنون وأملأ البوقال بالتربة.

قالت ريما، بعد أن انسحبت من يد جدتها.

ـ بابا. تفعل ما كان يفعله جدّك.. جدّي؟

ـ نعم يا ريما. نعم.

إني أحفر هذه الذاكرة المرّة. الذاكرة التي حوّلوها إلى رماد. لا بدّ أن يكون تحتها شيء كبير. كان جدي هكذا يفعل. يحفر الأرض صباحاً ومساءً. يستنشق تربتها، ثم يركض كالمجنون ويبعثرها عالياً، لتسقط ذراتها على رأسه، وهو يقهقه بأعلى صوته. ها.ها.ها...ها هي ذي عظام أجدادي القوّالين تحيا من جديد. وعندما جفّت الدنيا في عينيه، وانغلقت كلّ البحار التي عبرها في وجهه بحث عن قلب أمه المملوء بالحنين والأشواق الزرقاء، كان ممحوناً بها ومجنوناً مثلها. سألها ذات مرّة في لحظة صفاء.

- يَا يَمَّا، هل تحبّين والدي؟

- إسألهِ هو. هو يعرف وَاشْ كايَنْ يا وليدي.

وعندما بدأ الموت يدخل قلبها، وأنوار عينيها تخفت وتتضاءل شيئاً فشيئاً سألها مرّة أخرى، وكان يقبض على يدها، ووالده يخطّ الدّار جيئة وذهاباً، ينتظر موتها.

- يا يمَّا هل تحبّينه. قولِيهَا له بَلاكْ يْرَيَّحْ. عُمْري ما اسْمَعْتَكْ تقولِيهَا لَهْ.

ارتسمت ابتسامة على شفتيها وغمغمت للمرة الأخيرة ولكن بشكل واضح.

- لم أكن أحبك إلّا أنتَ. هُوَ؟! والله مايَسْمَعْها منّي.

ثم اختلطت شهقتها الأخيرة بصرخة والده.

- روحي الله لا يردّك.

ومن يومها طرده والده من البيت، فوجد نفسه في الأسواق يحكي قصة أمّه وقصص القوّالين الضائعين. وظلّ كلّما وجد وقتاً يحفر الأرض بأظافره حتى يدمي أصابعه وينتزع بعض لحم يديه ويكرر كلامه الذي حفظه كلّ النّاس. الأرض عندما تموت، تصير التربة حجراً. والله يصير عليها شحيحاً بمائه.

بدأت ريما تملأ البوقال الزجاجي وهي تتسائل.

ـ بابا.!واش رَامْ تدِّيرْ؟

ـ كما ترين. أملأ البوقال بالتربة، كما كان يفعل جدّي.

ـ لم أفهم جيداً.

ـ وأنا مثلك.

ولأني لا أستطيع أن أحمل معي وطناً بكامله، أو في حقيبة سفر يوم أنوي مغادرته نهائياً، من يدري؟ سأحمل على الأقلّ بعضاً من أتربة البلاد ومائها ولن أرحل بدون وطن.

ابتسمت ريما. أعجبتها الفكرة.

أخرجت منديلها المنوّر ووضعت داخله بعض التربة وبعض الأحجار الصغيرة ثم وضعت الكلّ في كمّوسة وأغلقتها بإحكام وإتقان كبيرين. تذكرت فجأة لماذا كانت نساؤنا عندما تدخلن إلى بيت الولي الصالح وتقفن على قبره في أيام الأعياد، أو المرض، أو القنوط، تنزعن بعض الأتربة من عمق الأرض تستحممن بها بعد أن تطلين كامل أجسادهن، لتشفيهن من البؤس، والمرض، ونفور الفراش وعنف الزوج والكوابيس المخيفة. ها أنذا أقوم بنفس الشيء، أنا الذي قضّيتُ عمري أضحك من سذاجتهن لأشفى من شيء بدون ملامح، اسمه الوطن. شيء يشبه الذاكرة وحطاماتها.

غادرنا المقبرة من بابها الواسع، غير الباب الذي دخلنا منه. لأوّل مرّة أكتشف اتساعها. بينما كان أخي الصغير الذي ظلّ يحرسنا من المرتفع، يؤشر بيديه أن لا شيء، ليلتحق بنا بعدها وهو يردّد بصوت خافت.

ـ لا شيء. الدنيا هانية والسماء صافية. القرية لم تصل بعد إلى ما وصلت إليه العاصمة.

ـ عندما تنهار العاصمة، تنهار البلاد. تخطئون إذ تظنون أنكم بعيدون عن الخراب.

عندما صرنا خارج المقبرة، التفتُّ نحو قبر عمّتي، لكنّي لم أستطع رؤيته. كانت الأشجار والحائط وقبور أخرى وشاهدات النّاس المنسيين، قد حالت بيني وبينه. تساءلت في خاطري، هل سيُكتب لي مرّة أخرى أن أرى هذه التربة وعيون القرية التي ترفّ للغادي والرائح؟

9

5H - 50MN

هذه الموسيقى الجنائزية، الكنسية تعمّق إحساسي بالعزلة والخوف من شيء غامض.

مجرّد صدفة. هذه الصورة التي قفزت من بين الأوراق الذابلة تدفع بي نحو مغاور سحيقة من الخوف. عليها بعض الغبار ورائحة البنزين ولكنّها في حالة جيدة. ارتسمت بها ثلاث وجوه: أنا، هلع، أضع يدي علي شاشيتي حتى لا تنزع منّي أثناء التصوير. أمّي وهي تمدّ يدها نحوي حتى تنهاني عن الحركة. خالتي حليمة الطيّابة التي كانت تستقبلني عند باب الحمّام لتسرقني من أمي وتليفني مثل الخرقة البالية، كانت في الصورة على عادة أهل القرية، واقفة كالنخلة، يداها منسدلتان عبر جسدها، وجهها مضاء بابتسامة ريفية خجولة. تذكّرت تفاضيل الصورة بكاملها. على قفاها كتب بخطّ عربي رديء:

صورة أُخذت بحمّام الوردة عام (...) 196. المتصورون وهم على التوالي: لزعر الحمصي، الحاجّة أميزار بنت الصغيّر وبجانبها المرحومة خالتي حليمة طيّابة حمّام الوردة.

ياه، كم يبدو الزمن لا شيء.

الساعة تزحف بثقل كبير نحو حتفها، لتعود من جديد داخل هذا البيت المفتوح على البحر المنسي.

قبل قليل عدت من الحجرة الصغيرة. ربما ما تزال نائمة. الفواجع والكدمات اليومية كبّرتها بسرعة. هي عادة تقوم معي، لكن اليوم لم تفعل ذلك، أو ربّما لأنني استيقظت باكراً على غير العادة. سنّها وهذه الصورة يغرياني بالعودة إلى طفولتي الهاربة مثل عصفور مجروح في جناحيه، كلما حاول أن يتجاوز آلامه ويحلّق، انكسر على رأسه.

كانت المدينة التي فتحت فيها عيني تبعد عن قريتي المنسية قليلاً. هي المدينة التي تقضي منها العائلة كلّ حوائجها. تتسوق. تدخل حمّامَتِها التركية مرّة في الشهر. وأنا كنت أدخلها، كلما كان ذلك ممكناً، وحيداً أو مع عائلتي. الرائحة الوحيدة التي أتذكرها الآن، رائحة حماماتها الكثيرة، ورائحة بنزين السيارة التي كنّا نركبها، وعمي عبد الكريم، سائق طاكسي الأجرة الذي تحوّل إلى حطبة يابسة ولم يغيّر من عاداته. من القرية إلى مدينة الحاجة مغنية التي صارت اليوم بسرعة عجيبة، قرية كبيرة، مترامية الأطراف. قريتنا كذلك صارت بدورها تشبه المدينة. لم يبق في المدينة شيء يميّزها. فقد مُسحت كلّ علاماتها. منذ زمن بعيد، وما تبقّى يُكَنَّس الآن كالزبالة.

كان حمام الوردة حمّاماً تركياً ضخماً، مزخرفاً بالنّقش والزلّيج والكارلاج الملّون القديم، لكن مع الزمن، بدأ يتآكل من الداخل ويفقد ملامحه وتعلو حيطانه أشكال خضراء من جرّاء الرطوبة. حتى عمّال الصيانة الكثيرون بهذا الحمّام، لم يعودوا معنيين بما كان يحدث أمام أعينهم. لقد تعوّدوا على مشاهدة الخراب. كانت أمّي تدخلني بسهولة إلى الحمّام، أمام عيني المسؤولة لكن مع الزمن بدأت المسألة تتعقّد. كبرت وأمي ظلّت تصرّ على إدخالي معها وهي تصرخ في وجهي: أَنْتَ خايَبْ. ما تَعْرَفْشِ تْحُكّ ظَهْرك. تَدْخُلْ بوسخك وتَخْرُجْ بِه. لكن في آخر مرّة أتذكرها.

كان الوضع محرجاً. فقد استعصى الأمر مع صاحبة الحمّام التي تجلس عادة وراء مكتب مَبْني، ومزخرف بالزلّيج، كمديرة مدرسة أو سيدة قصر، على يمينها كيس الكَازوز الملوّن. تتحسس نظارتيها كلما رأت شخصاً يعبر باتجاه المغاطس الرخامية. فجأة أوقفتنا.

- يا أختي أمِيزار، وليدك وَلَى كبْير. البراكة رَاه عزري.

- هذا البزّ يخوّف. بَرْكَهْ. بَرْكَهَ. ماخفتوش حتى من الكبار تخافوا من الصغار...

وقبل أن تغرق معها في نقاش التِخْلالْ كالعادة والقيل والقال، تكون خالتي حليمة الطيّابة قد سحبتني من يدي اليمنى بقوة ونزعت سروالي، وأنا مندهش، منعدم المقاومة، ثم طَوَّطَتْ عضوي وهي تقهقه بأعلى صوتها.

- كه. كه. يالالّة وريده، هذه الدّوُدّهْ خَوْفَتَكْ؟ قَاوْقَاهْ ما تقتل ما تحيي.

ثم تدخلني في عمق المغطس الرخامي وتفركني كقطعة قماش بالية، بينما تظلّ أمّي غارقة مع صاحبة الحمّام في ضحكة طويلة.

تمنّيت وقتها أن تكون أُمّي بقربي، على الأقلّ تشعرني ببعض الأمان. لكن ذلك كان حلماً منكسراً وبعيداً. تخرجني خالتي حليمة من المغطس الرخامي، ثم تضعني بين رجليها وتضغط عليّ بقوة بيديها الخشنتين. أرفعُ عيني نحوها لأصرخ، أو أطلب رحمتها. كانت الألوان قد بدأت تتداخل. الطيّابة امرأة خرافية. كتلة ضخمة، غميقة السمرة، مفتوحة من كلّ الجهات. بطنها مليء بالإنطواءات التي لا حصر لها. مثل اللعبة كنت. تضعني بين رجليها. تقلّبني على بطني. على ظهري. بين فخذي. تدغدغني. تؤلمني. أكتم صوتي. كانت عظامي تتكسّر مثل قوقعات الحلازين. رائحة العرق المنبعثة من داخل الحمّام ومن جسدها تقوّي لدي شهية الهرب. عندما تنتهي من فركي وغَسلي، تلفّني في فوطة صفراء، فيها رائحة الكَاز والإحتراق، ثم تحملني بين يديها. أشعر في لحظة من اللحظات

بطيبتها الكبيرة وهي تضعني على السرير وتغطيني مثل طفل صغير. صغير جدّاً.

عندما تنسحبُ باتجاه ضحية أخرى، أظلّ مشدوهاً بجسدها وبمشهد النساء وهنّ رائحات، جايّات ورائحة العرق التي تتسرّب داخل الدم لتعطي للجسد دفئاً خاصاً. كن في معظمهن عاريات أو نصف عاريات. يتغامزن. يتحدّثن أحاديث غامضة عن أزواجهن. تبرز إحداهن زندها للأخرى لتريها الكدمة الزرقاء.

ـ ها. شفْتِ وَاشْ دَارْ لي الحلّوف.

ـ عندك الزهر. يحبك.

ـ غير يحبني؟ مجنون عليّ. كي نْهَيْجُه يوَلّي يرضع كي الطفل، ويعضّ ويقرص.

ـ من زهرك يا حلّوفة. أنا كلّ ما يأتيني. يبات يحاجيني على زمانه ومن امرأته الأولى. مرّة قبضتُهْ من عنقه. وقلت له. يرحم والديك. كي تجي هنا أنتَ لِيَ. كي تكون عندهم دِرْ واشْ تحبّ. من يومها تلَفْ له الكلام.

ـ كيفاش دايره معه.

ـ واش دايْرَه. يرقد مْغّايا وبعدها ينقلب على كرشه كي الدابة. ما يعرف يعضّ ما يعرف يقرص، ما يعرف ينيـ... راح نقول كلمة كبيرة.

ـ نسلّف لك دْيَالي. هذاك ولد الحرام تْقولْ أمّه معلّمته، يعرفْ يْديرْ كُلشْ.

كان عليّ أن أتظاهر بالنوم عندما التفتتا نحوي وهما غارقتان في ضحكة عالية وخجولة في الآن نفسه، كانتا تحاولان كتمها. كان العرق يتصبب منّي، لا أدري إذا كان ذلك اندهاشاً ممّا سمعت أو خوفاً منهما. تخيلتُ نفسي في لحظة زوجاً للأولى. ثم زوجاً للثانية. شعرت بصدق كلام صاحبة الحمام، يبدو أنّي بدأت

أكبر بسرعة، وبدأت أفهم أشياء، كان يجب أن لا أفهمها في هذا الوقت المبكّر.

عندما أنهيت كأس الكازوز الذي جاءتني به خالتي حليمة الطيابة والذي امتص كلّ الحرارة التي كانت بداخلي، لبست ألبستي بسرعة وخبأت دودتي التي انتصبت لكلام المرأتين، خبأتها بخوف كبير ما دامت بكل هذه الأهمية.

خرجت وأنا أنبّه خالتي حليمة الطيابة التي شعرت نحوها بألفة كبيرة ومفاجئة:

- خالتي حليمة، قولي ليّمّا راني رايَح للموليما.

كعادتي دائماً عندما أزور الحمّام مع أُمّي، أهرب باتجاه الموليما(*). أخترق أولاً شارع الحدادين ثم البازار الكبير، مطعم عمّي عمر الذي لا يبيع إلّا الحريرة واللوبياء، ثم البريد القديم، فالبلدية مروراً بـ: بيرو عرب(**) لأجد نفسي فجأة في شارع الحرية أمام ضخامة الموليما (التّمثال) التي تورثني سعادة داخلية غريبة. امرأة عالية ومذهلة، بجسد مصقول بدقّة متناهية وساقين عاريين ممتلئين وصدر مندفع إلى الأمام بنهدين نافرين باتجاه سماء فاترة، ويد تلوّح في الهواء بحنو، مفتوحة على حمامة كانت تستعد للطيران، تعطي الأنطباع وكأن المنظر حقيقي. كانت المرأة العالية تقف بكل قامتها على كومة من الأحصنة التي كانت تحاول القيام من عمق الأرض بصعوبة. امرأة من رخام أبيض صافٍ، كلما هبّت الرياح الصحراوية القادمة من محيط المدينة، اصفرّ لونها بسرعة، لكن بمجرد سقوط الأمطار، يصير التمثال من جديد أبيض، أبيض، مثل القطن، وتعود الحياة إليه من جديد. عندما انعكست الشمس على جسد المرأة الرخامية، عرفت أن أمطار البارحة فعلت فعلها على هذا الجسد.

(*) التمثال.
(**) مكتب العرب.

اقتربت منها حتى صرت فيها. تأملتها كأني أكتشفها للمرة الأولى بالرغم من أنّي كلما دخلت إلى المدينة من بوابات المقبرة الكبيرة أو على مدخل الدرك الوطني أجد نفسي تحتها. أتسلّى بضخامتها من كثرة علوها أحس كأنها مقدمة على السقوط عليّ ولا أرتاح إلّا عندما أنزل بصري وأبدأ في تفرّس استقامة أعضائها ونعومتها والتداخل مع سيقانها الطويلتين. أشعر تجاهها بشيء غريب. أتصورها الغجرية التي جاءت إلى أمّي عندما كانت حاملاً بي لتقول لها:

- إن ساكن بطنك هذه المرّة سيكون ذكراً. سيحفظ كلمات الله ويشربها كلما ضاقت الدنيا في عينيه. سمّيه باسم الولي الصالح الذي يزورك دائماً في الحلم «سيدي امحمّد الوسّيني» وإلاّ سيسرقه منك الأموات لأنهم يغارون من الأحياء، أو يأكله الحديد الساخن أو البارد.

أُمّي. كلما رأت الأوشام الخضراء التي تطرّز جسدها، تذكرت الغجرية التي حفرت أعضاءها بالإبرة والمشرط وحولتها إلى لوحة خضراء. لا أملك وجهاً لهذه الغجرية ذات الامتداد الفارغ سوى وجه التمثال الرخامي الذي يملأني. أحياناً أشعر به هي، وهي هو. ولهذا فأنا كلما واجهت المرأة الرخامية شعرت في داخلي بمسؤولية طفولية تجاهها رغم أن حارس البلدية ليس بعيداً عن المكان، بل مواجه له. فهو لا يعرف إلّا نشّ الحمام ثم ينسحب. عندما يتنافس الأطفال لضرب الحمامَة التي في كفها بالحجارة، أصرخ في وجوههم، لكن إذا كانوا كباراً، أتحدث إليهم بصوت خافت:

- عينكم. العَسّاس راه يشوف فيكم من السطح.

فيتزربعون بسرعة.

تبدأ سعادتي عندمات أخلو بها. أفكّر أحياناً في نزعها من هذا المكان ووضعها في قريتي لأنّي أشعر بل على يقين، بأن مكانها الحقيقي هناك. وأحيانا أصعد إلى يدها وآخذها وأنا أتصور في

داخلي أنّي أعزمها إلى شيء غامض، فتنصاع لي بهدوء. أتلذذ بشكل غريب بملامسة جسدها المصقول. هذه المرة اختلط وجهها بوجهي امرأتي الحمّام. أشعر بها ملكي، وأني الوحيد في الدنيا القادر على فهمها. أضع رأسي على ساقها، على زندها. أشمّ رائحة المرمر التي تشبه رائحة العرعار والكُرِّيش. أتسلقها رغم انزلاقات جسدها، وأجلس على يدها الغليظة التي تتحمّل بكل راحة جثّتي الصغيرة وأحاول أن أجد مكاناً في كفها مع الحمامة التي تستعدّ للطيران ولا تطير أبداً. المارة لا يعيرونني أي انتباه. يتأملون قليلاً ضخامتها ثم يمضون. وأنا، في يدها مثل الحمامة، أتمنّى أن أطير، لكنّي عندما أنتبه للفراغ الفاصل بين يد المرأة الرخامية العالي والأرض، أخاف من الانكسار فأعدل عن فكرتي الأولى. حتى العسّاس صار يشعر بسعادة كبيرة وهو يراني متسلقاً كالجندي في كفها. يضع كفه على جبهته درءاً للشمس التي تشع في عينيه مثل القطّ، ثم ينبهني بسخرية:

- اِسمع يا لَزْعر الحمصي، ماتخلّيش لحّمام يزقّق عليها. رَاهَا نظيفة بالنوّ.

- ما يكون غِي خاطرك عمّي العسّاس.

ثم ينزلق باتجاه المقهى الخلفي، القريب من محطّة الحافلات، يمضي بقية يومه مع أصحابه في لعب الرواندا وتصيّد المسافرين القادمين من وهران والعاصمة يبيع لهم من تحت معطفه «المارلبورو» و«الزعفران» و«العلك الأمريكي الحار» وغيرها من الأشياء الصغيرة التي تنزلق من يد ليد بسهولة.

أظلّ هناك أتسلّى بالمكان وبلزوجة الجسد المرمري في انتظار أُمّي التي تدخل الحمّام صباحاً ولا تخرج منه إلّا مساء، مكحّلة، مسوكة، جميلة، على الرغم من تعب السنين والوحدة والفاقة والحزن الضامر. لا أنتبه لها إلّا عندما يصمّ أذنيّ زمور سيارة عمّي عبد الكريم القديمة. أنزل بسرعة من على جسدها وأنا أحمل في

قلبي انتظارات عديدة، قد تأتي، للاختلاط بجسد المرأة الرخامية العالية.

لم أكن أتصور يوماً، أنه يمكن لهذا الشموخ أن ينكسر. المرأة الرخامية كبيرة واستثنائية. رخامها قاوم رمال الصحاري والسنوات المتعاقبة، لم تحدث فيها حفرة واحدة. ثم أكثر من ذلك كله، فهي امرأة مسالمة تلعب مع الأطفال والطيور وتحدق بحب يومياً في وجه سكان المدينة، والعابرين عند رجليها.

يوم الجمعة الذي أخذني فيه أخي الكبير إلى السينما انقلب فجأة إلى يوم شؤم. كانت البلاد تحتفل بعيدها الوطني الكبير. العيد الأوّل لاستقلالها. كان اليوم مناسبة للألتصاق برجلي أخي ليأخذني معه. كان يعرف جدّاً بأني لا أؤذيه أبداً. لم أكن معنياً بالسينما بقدر ما كنت معنياً بالمرأة. قال. شوف آ السّي مُوحْ، نْحُطّكْ قُدّامْ ذيكْ الحجْرَهْ أنتاع الرخام، بعدها دبَّرْ راسَكْ، كِي نْكمَّلْ السّنيما، تفوتْ عْليكْ. قُلْتُ. أنَا مْوَافقْ. وكان يعرف جدّاً بأني لن أتراجع أبداً عن رأيي.

كان اليوم احتفالياً فوق العادة، ولهذا وضعني أخي على الطريق المواجه للموليما ثم اندفن داخل المدينة بحثاً عن فلم جيد. كان مولعاً بـ: جون وين وأُخبر بأنه «يلعب» في احدى القاعتين. اقتربت من الموليما، كانت محوّطة بسياج صغير من الأسلاك الشائكة، والسدرة التي أُلصقت بجسدها الذي بدا كأنه يُهيّأ لحالة حرق. شعرت به ينزف. حرنت قليلاً، ولكنّي مع ذلك أوّلت الفكرة وقلت في خاطري، لا يعقل أن تُحرق امرأة جميلة مثل هذه. ربّما فعلوا ذلك لحمايتها، بل صرت متأكداً أن عمّي العساس هو صاحب الفكرة، لأنه لم يستطع ضبط الأطفال الذين يضربونها بالحجارة طوال النهار. جيد أنهم فكروا في حماية هذه المرأة العظيمة. قَبِلْتُ أن تصير بعيدة عنّي، مقابل حمايتها من الموت. المطر كان غزيراً ولكن مع ذلك ظلّ النّاس مرابطين بين التمثال وكنيسة الدَوّار القديمة L'église du rond - point كنت أتلذذ وأنا أراها تستحمّ أمام

الجميع بألق عجيب، لتشعّ بعدها ببياض يصعب على العين تحمّله عندما تنكسر الشمس القوية على جسدها.

فجأة بدأ التّصفيق يتعالى من أماكن متعددة. أردت أن أصفق ولكن العملية بدت لا معنى لها. وجدت نفسي صغيراً على فعل مثل هذا. سمعت همهمات كثيرة.

ـ ها هو قد وْصَلْ. المِيرْ. جاء المِيرْ(*).

دخل بين الجموع. تتبعه العيون وهو ينزل من سيارته. انزلقت بين الأرجل حتى وقفت بالقرب منه. كان قلبي قد بدأ يدق بعنف. شعرت بأن المسألة تتعلّق ربّما بالمرأة الرخامية. بدأ رئيس البلدية في إنزال الستائرعن الجزء العلوي من كنيسة الدوّار. القصّة صارت واضحة. لقد حُوّلت الكنيسة الى مسجد كبير في المدينة. صعد إلى السّطح مثقلاً بالبلغة التّلمسانية والشاشية التونسية والفوفية البيضاء الفضفاضة. كان يُسنده في تسلّقه مساعدان من البلدية. ساعداه في نزع الصّليب النّحاسي من رأس الكنيسة ثم طوّح به من الأعلى نحو الأرض على تصفيقات عمّال البلدية الذين أُحضروا خصيصاً لهذا اليوم المشهود وتحت هتافاتهم.

ـ الله ينصر الإسلام. الله ينصر المير.

وبواسطة رافعة احتلت وسط الشارع فجأة، وُضع في مكان الصليب، قبّة رمزية، مصنوعة من الألمنيومْ الذي شع بقوة من جرّاء الشمس التي خرجت فجأة من غيمة داكنة. مع هبوب هواء مملوء بالتراب ورائحة الأسفلت، رفرفت قشابيته لتُظهر قليلاً من ساقيه الرقيقتين المشعرتين. بعض الذين ضحكوا وتغامزوا، سرعان ما كتموا أنفاسهم، خوفاً من التّبعات. ثم نزل من الأعلى ليفتح الباب هو بنفسه. ويتبعه الكثيرون لزيارة الكنيسة التي صارت مسجداً، والتحسينات التي أُدخلت عليها. فقد طُليتْ مداخلها وأقواسها باللون

(*) رئيس البلدية.

الأخضر، وكذلك الأعمدة الرخامية المركزية التي لم تعد تلمع مثل المرأة الرخامية، فقد أكل الطلاء كلّ رونقها وملاستها. صعد رئيس البلدية على المنبر مثل الإمام لينزل من عليه بسرعة بعد كلمة وجيزة:

ـ في هذا اليوم الممطر المبارك، نقول. نقولها جهاراً. لن نسمح أبداً من اليوم بتخريب عقول أطفالنا. الجبهة هنا هي الدرع الواقي.

ثم خرج متبوعاً بمعاونيه تحت عاصفة من التصفيقات الحادة، وكان عليّ. من جديد، أن أبحث عن طريقي من بين الأرجل. ثم توجّه الجميع نحو الموليما. سحب العمّال الأسلاك الشائكة والسدرة، ونظفوا المكان، فبدت سيدة الرخام بيضاء، بيضاء مثل القطن وشامخة مثل جبلٍ عالٍ. غمرتني سعادة سرعان ما انكسرت. ركب رئيس البلدية آلية البوكلان Le Poclain الضخمة بأسنان حديدية قاطعة. وضع أحد العمّال على رأسه خوذه صفراء. بدأت الآلية التي كان يسوقها رئيس البلدية بنفسه تتحرك باتجاه التمثال. ثم بدأ يحفر من تحت رجلي سيدة الرخام ويحاول عبثاً أن يزحزحها. ابتعد قليلاً بآليته ثم اندفع بقوة ليضرب بالأسنان الحديدية نصف جسمها. لم تتحرّك. قاومت الضربة الأولى. صفّق النّاس بينما شعرتُ بمغص في أمعائي وكأن الضربة كانت مصوبة نحوي. تراجع ليعود من جديد ويزداد ألمي أكثر. لم تكن سيدة الرخام تهتزّ أبداً. كنت أرى ملامحها من بين الأرجل. زاد عناد رئيس البلدية وبدأ يصرخ مثل صرخات الهنود الحمر عندما يحضّرون لهجوم ما.

ـ هاه. تعاندي يابنْت الحرام. هذا يَوْمَكْ الأخِيْر.

في الضربة السابعة بدأ التمثال ينحني شيئاً فشيئاً، وعرق «المير» يزداد تصبباً على جبهته وعلى كامل جسمه. في الضربة الثامنة مالت قليلاً، وأدارت وجهها نحوي. مسحت عيني من جديد من الدمع. رأيتها تبكي، لكن هذه الأرجل النتنة كانت تمنعني من المرور وحزام الشرطة أخافني أكثر. تذكرت مثلاً عالقاً برأسي.

التماثيل عندما تنحني تتنكسر. وعندما تَتالتْ ضربات البوكلان سقطت سيدة الرخام على فمها بكل عنف، وبشكل جاف. كلّ شيء فيها تحوّل إلى ذرّات. حتى الحمامة التي تمنيتها أن تخرج سالمة اندثرت، هي واليد الممتلئة التي كانت تحملها.

نزل رئيس البلدية تحت التصفيقات والزغاريد والأناشيد الوطنية، بينما اهتمّ العمّال بكنس المكان وتقطيع الأسلاك التي ظلت تسند سيدة الرخام من داخلها. ردمت كلّ الهوّات التي خلفتها عمليات الحفروالقلع. في المساء نفسه وُضع قالب إسمنتي كتب عليه بماء الذهب:

باسم الله الرحمن الرحيم

﴿و لا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا﴾

دُشّن هذا النصب التذكاري تكريما لشهداء المدينة،

بتاريخ: 5 ـ 7 ـ (...) 196 وتخليداً لتضحياتهم.

بعدها انسحب الجميع، وبقيت هناك متمترساً أتلمس فراغ سيدة االرخام التي أراها وكأنها ما تزال في مكانها وهي تقهقه بصوتٍ عالٍ. لا أدري كيف رجعتُ مع أخي إلى البيت لكنّي كنتُ منكسراً من داخلي كجندي مهزوم أحاول أن أقنِعَ نفسي بأن ما حدث لا يعدو أن يكون مجرّد كابوس فقط.

في الأيام التي تلت عملية التدمير، بدأ النّاس يصلّون داخل الكنيسة القديمة لاكتشاف ما بداخلها، لكن من يزورها مرّة لا يعود لها أبداً. فقد ظلّ الجميع يعتقدون أنها كنيسة وليست مسجداً، بينما ظلّ المارة يعبرون هذا الطريق، طريق الحرية، وعندما يتعبون، يجلسون على القالب الأسمنتي الذي وُضع في مكان سيّدة الرخام، لم يكن له أي شكل إلّا شكل كرسي عمومي أو حازوق. وهكذا كان يفعل المتسوقون القادمون من سوق المدينة أو المصلّون الذين ينتظرون صلاة العصر أو المغرب لاكتشاف الكنيسة.

بسرعة نسي الناس، أنه كانت هناك امرأة عالية تُدعى سيدة الرخام، تنكسر الشموس على جسدها كلّ صباح وكلّ مساء. سيدة لا تستّحم إلّا بمياه الأمطار الصافية ولا تحضن في كفّها إلّا يمامة صغيرة تستعد يومياً للطيران بدون أن تطير، حتى اندثرت.

10

6 H

مات عمّي جلول وحيداً.

مات عمّي جلول. آخر قلاع القرية، ولم يترك وراءه شيئاً مهمّاً. كان دائماً يقول: الدنيا لمّا تتبدّل، يبكي عليها اللي خسروها. مات وحيداً، معزولاً داخل مغاراة *الجرف الأبيض* وهو يحفر التربة البيضاء التي يضعها عادةً سكان القرية قبل كلّ شتاء على أسطح بيوتهم لمنع الأمطار من التسرّب. واجب إجباري يقومون به سنوياً قبل أن تصير حبّات المطر خشنة.

كان الزمن يمرّ ثقيلاً على ريما وهي تنتظر إقلاع طائرة الخطوط الداخلية المتوجهة إلى تلمسان من العاصمة. شعرتْ بها تأخرت كثيراً والمطار يزداد ضيقاً كلما سمعت صوت مضيفات المطار وهي تقول: *الطائرة المتوجهة إلى تلمسان، ستتأخر نصف ساعة أخرى. عذراً للمسافرين*. مع أن عادة التأخّر في بلادنا صارت جزءاً من حياتنا اليومية. العمل مثلاً، الذي يبدأ على الساعة الثامنة يتأخر إلى الساعة العاشرة فما فوق، بينما يتسارع نفس النّاس لمغادرة عملهم قبل الساعة الثانية عشر. قلت لريما. جيد أنهم على الأقلّ يعتذرون عن التأخر، لأنه ليس من عاداتهم. قد ينتظر النّاس

طوال اليوم قيام الطائرة، وفي الأخير يقال أن الرحلة أُلغيث. وكلّ واحد يُدبَّرْ راسُهْ.

عندما وضعت رجلها على مدرج الطائرة، شعرت من عينيها، بسعادة غامرة تملأها. تمتمت وهي تنظر بإعجاب إلى البوينغ 727.

ـ مْزِيَ. خفْت ما نروحوش وعمّي جلّوُل يبْقَى خاطره.

ـ عمّي جلول رجل كبير. يَعْرف الظروف مْلِيحْ، ويعذرنا حتى وهو في قبره.

بدأت الطائرة تصعد شيئاً فشيئاً وتندثر داخل الضباب الكثيف. تهتزّ بقوّة. تختبيء العاصمة من تحتنا داخل كومة غيوم. تتعجب ريما. تتساءل:

ـ يَاهْ!؟ كيف يمكن أن تبتلع غيمة مدينة بكاملها؟ ثم تصمت. تتأمّلني. تلتفت نحو النافذة الدائرية. فجأة تنكسر أشعة الشمس على وجهها، محدثة ألواناً قزحية داخل الغيوم وانكسارات على أجنحة الطائرة الضخمة.

يصبح المشهد الضبابي شفّافاً مثل ذاكرة حزينة.

هل الفاجعة والدهشة بكل هذه السعادة وهذا العناد؟ ساعة بكاملها، ظلت ريما مشدودة إلى الأرض. عندما أطلّت مدينة تلمسان من تحتنا، بضواحيها المحيطة، قالت.

ـ هل يمكن أن تكون إحدى هذه الكتل الصغيرة هي قريتنا.

ـ ربّما. من السماء كلّ الأشكال تتشابه تقريباً.

لم يكن هناك شيء يوحي بذلك سوى الغابات الصغيرة التي تحترق كلّ خمس سنوات بانتظام. وصارت اليوم تشتعل بشكل مقصود كلما حلّ فصل الصيف، والبنايات الصغيرة المتداخلة والطرقات الشعبية الصغيرة التي تملأ ضواحيها، والتي تكونت من كثرة المرور عبرها. تكاد تكون الطبيعة هي التي خطتها. البلدية

ليست معنية على الإطلاق بسعادة النّاس ولا بأحزانهم. ميزانية الطرقات يبتلعها عادة رئيس البلدية والمقرّبون منه. البنايات كانت تنطلق من السفوح، ثم تبدأ في تسلق الجبل، مثلها مثل الأشجار بدون كلل أو عياء كلّ يوم يزداد بيت وتسقط أو تحرق شجرات، حتى تصل إلى الثكنة العسكرية القديمة التي بناها المعمّرون، قبل أن يرحلوا ذات صباح قائض في شاحناتهم ودباباتهم، ويتركونها وراءهم لعمّي بلحاج الذي حوّطها بالأسلاك الشائكة والسدرة ونتفها مثل الدجاجة إذ لم يترك بها شيئاً قائماً. مثله مثل زوج خالتي مُوح المرابطي عندما جمع العائلة بكاملها، بصغيرها وكبيرها وتوجه نحو محطّة القطار التي لم تكن بعيدة عن بيته، واستولى على المحطة. احتلّها بالقوة بعد أن نزع الكتابات الرخامية المؤشرة للمحطة «LA GARE DE SOUANI» وملأها بالحمير والبغال والقطط والنعاج والكلاب وأولاده وأولاد أولاده وأولاد بناته وكلّ الأحفاد، ليثبت للجميع أنه كان يقيم في المحطة منذ زمن بعيد. وأغلق على نفسه بالسدرة والأبواب الحديدية، وأقسم برأسه وطلاق زوجته طلاق الثلاث، أنه سيفتح بطن، كلّ من يقرب مسكنه.

سائق القطار الذي كان يتوقف إجبارياً، صار لا يفعل ذلك إلاّ لمَلءِ ماء الشرب، ثم ينسحب بسرعة. وتحت التهديدات، صار لا يتوقف. يزمّر بقوة ثم يمضي مثل السهم. مرّة يدوس نعجة. مرّة يدوس دجاجة. زوج خالتي يحمد ربه دائما:

ـ الحمد لله ماجاتْش في بْنَادم.

وخالتي تندب حظها السيّء وتطلب من الله. أن يقْلُبَ القطار على ظهره. وعندما التهم القطار الطفل الصغير لابنته. قال لها يهدّئها:

ـ الحمد لله ماجاتْش في وَاحَدْ كبيرْ وعاد إلى انشغاله اليومي. نزع الأخشاب والقرميد والرخام والزليج والحنفيات والأجهزة الحديدية والمواسير، وساعات الماء والضغط، وإشارات المراقبة والتوقيف، وفي نهاية كلّ أسبوع ينزل إلى سوق القرية على بغلته

الزرقاء، يبيع ما يمكن بيعه بربع ثمنه وعندما يخفق في إيجاد مشْترٍ، يعرّج على عمّي حمّاد الزعيمي الطرّاق ويقول له:

ـ خذها جملة واعطِني أي شيء فيها.

فيردُّ عليه حمّاد الزعيمي:

ـ خلّيها هْنَايَا. إذا جا شِي مُشتَرِي، نْبيعها لهُ. وتبقى هناك مكدّسة مثل الحطام، تمرّ عليها الشتاءات المتوالية قبل أن تتصدّأ وتتآكل. القطع الوحيدة التي كانت تباع بسهولة نسبية هي الأخشاب التي نزعها من الأسقف أو التي كانت تستعمل للربط التلغرافي، أو بكل بساطة، الأخشاب الآتية من القاطرات التي حطّمها وفصلها قطعة قطعة. الكتل والكابلات الحديدية على جهة، والأخشاب على جهة ثانية. كان النّاس الميسورون يشترونها في الأغلب الأعمّ لتسقيف بيوتهم لأنها مستقيمة وأشجار الغابة لا توفر لهم هذه الاستقامات، إضافة إلى السبائك الحديدية الضخمة التي كان النّاس يشترونها منه لنفس الغرض. بينما قطع الرخام التي تكسرت أثناء نزعه لها، فقد زلّج بها مراح الدّار الذي كان يضع فيه قسماً كبيراً من نعاجه. حتى المداخل والمخارج زلجها، بدون أي نظام على الاطلاق. كانت أغنامه تقضي الليل كله على الزلّيج، في الصباح عندما يستيقظ باكراً، يتوضّأ. يصلّي صلاة الفجر. ولا ينسى أن يقول لخالتي:

ـ إرْمِي الماء على الزليج. الزليج مليح للنعاج. الزبل يروح بسهولة.

لكنّه مع الزمن اكتشف أن برودة الزلّيج الليلية، هي التي كانت السبب في موت الكثير منها، فأسكنها في محطّة القطار، بينما هو حفر المراح من جديد، وأخرج الزليج المكسور وكوّمه عند مدخل الدّار.

قالت ريما، وهي ترمقني بنوع من الحيرة والقلق، بدون أن تسحب نظرها نهائياً عن الأرض وعن الأشكال التي كانت تراها من زجاج الطائرة.

- بابا أنتَ لا تتكلّم. لماذا؟ رَاكْ عَيَّانْ؟

- واش تحبّي ياريما. عندما نخسر ناساً نحبهم كثيراً، نحزن. أنتِ كذلك لا تتكلمين.

- ها. أنت مثل الياباني، كما كنت تقول لي دائماً. تجيب عن السؤال بسؤال آخر.

- واش تحبّي نقول. عمّي جلول الصبابطي كان إنساناً طيباً وكبيراً. روحه عالية. كان آخر الرائعين. كلّهم ذهبوا. الواحد تلو الآخر. عمّي مُوح الطويل. مُوح البراديعي، احميدا بوخصايَرْ. الميلودْ لكحَلْ. عبد القادر لحّوانتي، خالي شقرونْ، حفّار القبّورْ، خالتي دنيا التي تصنع بنفسها العسل الكحلاء. كلّ شيء تغيّر. القرية خلتْ من كلّ ناسها الذي صنعوا أشواقها وسعاداتها الصغيرة. القرية تغيّرت. لقد صارت كبيرة وضخمة مثل المدن التي نجبر على العيش فيها. صارت هي كذلك ملوّثة. مصنع البلاستيك أكلت أدخنته كلّ النباتات، كثر المهربون والسراق، وغداً، القتلة. وها هو عمّي جلول يذهب قبل رؤية هذه الانكسارات.

- إيه. عمّي جلول مسكين. كان إنسانا كريماً وطيباً.

كان سخياً كالماء. كلما ذهبنا إلى البلاد (القرية) تمرّين عليه.. عندما يراك، يصرخ بأعلى صوته.

- أرواحي يا للالّة ريما. يا بنت المدينة. خُذي. اِشْرِ لي الحلوى الشبّاكية.

وعندما ترفضين. يضحك، ويدندن في اذنك:

- ريما يَا لحْمَيمْةْ

يا غزيلة لمّيمة

يا ابنيّة لمْدِينَةْ.

روحِي وارواحِي يالعروسَةْ

اشْرِ الحلْوى الشباكِيهْ

وَحْدَه لِيكْ، وَحده لِيَ.

وتتخطين الطريق المواجه لبيته، باتجاه الدكّان. تشترين الحلوى، ثم تعودين بسرعة بضفيرتيك الجميلتين. تخاتلينه. تأتين من ورائه. تغمضين عينيه بيديك الصغيرتين. يتلمّسك. يستنشقك كوردة. تسألينه بصوت مضخّم.

- عمّي جلّول. شْكوُن أنا؟ ماراحْشِ تقول لي رِيمَا!

يضحك عالياً بأعلى صوته.

- مَاشِ رِيما ولكن شْكونْ يَغْلط في غزيْلة كِي الوردة؟

تلعبين معه، لعبة القطّ والفأر حتى يوقظه زبون، فتَضَعين نصف الحلوى الشبّاكية في فمه بينما ينكسر القسم الثاني داخل فمك الصغير وقهقهاتك التي تُسمع من بعيد. تتركينه مع عمله اليومي ثم تنسحبين راكضة باتجاه الدّار القديمة، بينما ينهمك هو نهائياً في تصليح الحذاء الذي بين يديه.

هذا هو جلّول الصبابطي. وهذه هي أنتِ.

تركّز ريما بصرها من جديد على منظر الأرض التي بدأت حمرتها تختلط بخضرة الغابات الهاربة باتجاه زرقة مائلة لبحر منسي. كلما سافرت معي، تختار تلقائياً الجلوس قرب النوافذ المدورة، لتطل لحظة النزول على منظر الأرض وتنتظر، مثل اللعبة، لحظة ملامسة عجلات الطائرة للأرض بصرخة فرح:

- هورّاه! وصلنا بسلام.

التفتت نحوي من جديد، وهي تضع رأسها على صدري.

- شفت بابا. صرنا لا ندخل القرية إلّا لدفن الأموات. مع أنني أذكر، قبل سنوات قليلة، كنّا ندخلها أثناء العطل لنحتفل بربيعها أو بصيفها. الدنيا بدّالة يا بابا.

ـ رائِحَهْ من سَيّء إلى أسوأ.

ـ هاذيك المرة عندما ماتَتْ عمّتي القايْمَة، ماخلاونيش ندخل للمقبرة. قالوا المرأة، حرام تدخل وتختلط مع الرجال. لكنّي صرخت بأعلى صوتي في وجه الإمام: آ السّي مُوخ. أنا مَشِي امرأة. أنا طفلة وصَافي. ودخلت بالقوة. قلت في خاطري. واش رَاحْ يْديرْ؟ وكِي جاني الرجل بو لحْيهْ. خفَت مَنّهُ. كان يريد منعي من تخطّي سور المقبرة ولكنّي تشجعت أكثر.

ـ واشْ أنت لاهي بالميّت ولإلاّ بالحيّ؟

أتذكر كلّ هذه الأشياء وأتذكر كذلك عندما احمرت عيناه وصار مخيفاً وحاقداً. كان يريد أن يعطيني درساً في تربية الأطفال لكنّي لم أُعطه فرصة للكلام. كدت أقول. رُحْ اِغْسَل وَسَخَك أوّلاً وتعالَ اِقنع النّاس بقضيتك. ولكنّي تفاديت النقاش معه. سحبتك من يدك اليمنى، انزلقنا داخل المقبرة بين الناس، وتركناه عند الباب يمضغ حقده، غارقاً مع الأطفال، ينشّهم كالدجاج وهم يدخلون من الثقوب السرية التي أحدثوها في سور المقبرة. حق أدنى، أن يحضر إنسان ما جنازة عزيز عليه.

عندما وصلنا إلى القرية، وجدنا النّاس يتهيأون للرحيل نحو المقبرة، اختلطنا معهم حتى قبل أن نرى أي واحد من العائلة. لم يسألها أحد هذه المرة، عن دخولها أو عدمه لأنها لم تكن مستعدة لسماع أي شخص، إلاّ قلبها وحبها لعمّي جلول الصبابطي الذي ترك فراغاً في ذاكرتها وأحدث فجوة جديدية في حياتها.

ونحن عائدون بعدما دفنا عمّي جلول، سألتني.

ـ مانيش نفهم وعلاش، الرجال وحدهم يحقّ لهم الصلاة على الأموات.

ضحكت. لم أكن أملك جواباً مقنعاً.

ـ ببساطة، لأن نساءنا أكثر حبّاً للحياة من رجالنا.

- بَرْكَه من الهفّ؟

- يابنتي واش نقول لك. كان القدامى أكثر تسامحاً من هؤلاء الرّعيان. أمام المشهد الجنائزي كان النّاس يرتعشون خشوعاً واحتراماً، أمّا اليوم، كأنّهم في حفل مكرور. لا يوجد أي إحساس على الإطلاق. النّاس مَاتوُ من الدّاخل.

كان أمامنا يوم واحد فقط قبل العودة إلى مدفنة كبيرة اسمها المدينة. في الصباح زرنا من جديد قبر عمّي جلّول ثمّ نزلنا الى السوق الشعبية نبحث عمّا تبقّى من محلّ عمّي حمّاد الزعيمي. أدهشني العدد المحدود من المتسوّقين. السوق لم تعد تسحب وراءها الأعداد كما كان في الماضي. الدنيا تغيّرت كثيرا. لقد انسحب القوّالون وعشّاق الدقّة والنقرة والكلمة والبندير.

سألتني ريما للمرّة الثانية:

- وين محلّ عمّو الزعيمي الذي حدّثتني عنه؟

- حبّيتك في الأوّل، تتعرفي على السوق.

أي سوق؟ لقد غادرها سكانها الأصليون.

بعد أن عبرنا كامل السوق، انعطفنا نحو زقاق ممتلئ بالجرذان، في عزّ النهار، وهي تَعوم داخل المستنقعات التي كوّنتها المجاري التي تملأ الأرض التي يلعب عليها الأطفال.

- وين هو محلّ عمّي حماد الزعيمي الطرّاقْ؟

- صرنا قريبين منه.

قفزنا فوق الخضر المرمية على الأرض، والمجاري والمستنقعات والبطّ الذي يشبه في ألوانه هذه البرك المتّسخة، حتى وصلنا إلى حائط صغير، قفزنا فوقه بسهولة.

- ها نحن قد وصلنا.

كان عمّي حماد الزعيمي رجلاً طيباً، واسع القلب. عندما دخل

النّاس من الهجرة الحدودية بعد الاستقلال، دخل معهم. استقرّ عند مدخل السوق من الجهة الغربية التي كانت إلى وقت قريب ثكنة عسكرية. أخذ البناية الصغيرة المطلّة على الطريق. لا أذكر إلّا ضحكته العريضة المملوءة أدخنة وفحماً، وهو يسمّر البغال والحمير.

ـ ها.ها. قادر نسَمّر حتى بني آدم اللي ما يعرفش يمشي.

ثم ينكفيء بشكل محدودب جداً ويبدأ في طرق الحديد المحمرّ بين يديه حتى تصير قطعة الحديد في شكل هلال غليظ بثقوب متعددة من الجهتين. يرفع رجل الحمار أو البغل أو الحصان، ثم يبدأ في عملية التّسمير.

منذ زمن بعيد لم أدخل هذه السوق. منذ أن خسرت بعض طفولتي داخل الأزقة الضيّقة. قيل فيما بعد وأنا في العاصمة، أنه مات مسلولاً، منسياً. وُجِدَ منكفئاً كعادته، على قطعة حديد، ويده جامدة على مطرقته كتمثال حجري. حاول أحد أبنائه أن ينزعها من يده ولكنه لم يُفلح. لم يستطع فعل ذلك إلّا بمساعدة الفقيه وبعض المتسوّقين الذين تعودوا على ارتياد المكان.

كان قائداً عسكرياً في المنطقة الغربية إبان حرب التحرير الوطنية. بعد الاستقلال، لم ينتظر طويلاً، دخل هو وفيلقه إلى القرية. قال: صنعة والدي ما تزال في يدي. وفتح دكانه داخل الثكنة العسكرية على أطراف الطريق الوطني، ليصبح رجل السوق الأوّل الذي يعرفه الصغير والكبير، والوحيد الذي يملك هذه المهنة ويملأ فراغها.

لم أهيء ريما كثيراً للوضعية المستجدّة. من كثرة ما حكيت لها عن هؤلاء النّاس الذين انقرضوا بسرعة بعدما بدأنا نعرفهم، أحبّته بعمق. كونت صورة مثالية عنه. كان بالنسبة لها رجلاً يشبه شيئا أسطورياً. كان يبكّر كلّ يوم أحد. يشعل موقده وناره في انتظار

القادمين، خصوصاً في الأيام الشتوية، عند مدخل البناية أو ضمن ما تبقّى منها.

فجأة سألتني ريما، بخيبة أمل.

ـ وينوُ مكان عمّي حمّاد الزعيمي؟

ـ هذا هو. نحن فيه.

ـ ؟؟؟...؟؟؟

كنت وأنا احاول أن استعيد نظري الذي انكسر على بعض الأحجار المحروقة ونصف حائط معزول ومُعرّى عن آخره، كتب عليه بخط أحمر معوج: *لا يغيّر الله ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ الجبهة الإسلامية للإنقاذ ـ F.I.S*. أحاول عبثاً أن أستعيد تفاصيل المكان الضائعة. كان الخرابُ هو الحقيقة الوحيدة المرئية. بجانب الحائط، تنام بشطط سيارة قديمة، محروقة، يختبيء داخلها الأطفال، بعدما أفرغوا أحشائها.

ـ وينو مكان عمني حمّاد الزعيمي الطرّاق.

التفتُ نحوها.

ـ هاه. هذا هو. كما ترين. لم يبق منه إلاّ هذا الخراب.

ـ مسكين. كيفاش كان عايش.

ـ أوف. هؤلاء النّاس كنِّستْ حتى آثارهم. تاريخهم نفسه اِمّحى. كان جمرة حيّة داخل رماد كثيف.

مثلك يا ريما، كنت صغيراً، أو أقلّ منك بقليل. أدخل السوق مع أُمّي. ملتصقاً بعباءتها كالخائف من كلّ الظلال التي يراها. أوّل شخص كنّا نمر عليه فجراً، هو عمّي حماد الزعيمني الطرّاق. تربط أُمّي بجانب محله بغلنا الأزرق الذي نتسوّق عليه عادةً. نُصبِّح عليه. يسلّم على رأسها وهو يضحك من كلامها وهي تقول له:

ـ مُوحَا خويَا. اتْهَلاّ في رجْلَيْنْ البغل. مايعرفش يَمْشي بلا صفيحة.

- إن شاء الله ما يكون غي خاطرك. نذيرلَهْ صُبَّاطْ طَالو والقرايَةْ وَالوُ.

ثم يعطيني كأس شاي ساخن، منعنع، يحَضّره عادة على جمرات متّقدة، ينتزعها من موقده الضخم.

- إشرب يالزْغَرْ. اشربْ. اليوم بارد. اليوم عمّك حمّاد وغَدْوَا رَبّي يعلم.

أشرب الشاي المنعنع ثم نتركه باتجاه عمق السوق. أنزلق من يدي أُمّي نحو الحلاقي. استمع هنا وهناك لكل القصص والحكايات الغريبة.

ثم تسألني ريما مرّة أخرى.

- وين عمر الدانجورو؟ عيسى لعور؟ موسى القوّال؟ جلّول لحول بيّاع الحلوى الشبّاكية وابنته رقية المعسلة، الذين حدثتني عنهم؟

كلهم ذهبوا يا ريما. انقرضوا مثل النبتات النادرة. لم يتبق إلّا أصداء أماكنهم وظلالهم المنكسرة. كلّ شيء اندثر. الدنيا لم تعد دنيا. والناس لم يعودوا أناساً. والسوق لم تعد سوقاً. واحْنا مَانَاشْ احْنا.

غيّر الرجال القليلون وجوههم. انسحب الحكّاوُون. حلّ محلهم بيّاعوا الراديوهات والمسجلات الصينية والطايوانية، والمولنياكس والساعات الألكترونية الرخيصة وبياعو الجملة. وغُلّبَ الناس، مثل سكان المدن، داخل حيطان إسمنتية متراصّة، متقاطعة وفق هندسة بليدة، هجينة وبدون أية لمسة فنّية. السوق، كانت فيما مضى سوقاً عربية، شعبية، مملوءة بالحبّ والحاجة والعفوية. عندما ندخلها، تستقبلنا عند أبوابها الواسعة، المفتوحة على الهواء، روائح الحديد الساخن، والعطور الشعبية، ورصاص اللّحامين، وتبن البرادعية خصوصاً عمّي مُوحْ الطويل بمِخْيَطِه الطويل وانكفاءته المعهودة على ركبتيه وكتان الخيش.

كانت ريما تريد الحلوى الشبّاكية، لكن جلول لحول مات، وابنته رقية المعسلة صارت عمياء وقيل لنا أنها لم تعد تأتي إلى السوق نهائياً. في الأخير اكتفت بالشوكولاطة التي كان يبيعها المهرّبون عند مدخل السوق. كانت تتكسر في فمها. وتلون شفتيها القرمزيتين باللون القهوي.

- حتى الشيكولا مْليحَه. ما عندك ما تقول فيها، تفكّرْني بعمّي جلّول الصبابطي.

ونغادر السوق نهائياً بدون ندم كبير.

11

6 H - 10 MN

يوسف قُتِل.

هذه القصاصة الباردة تشهد على ذلك بخطوطها الباردة التي لا تكاد تظهر:

اغتيل البارحة في بيته الفنّان والشّاعر والانسان يوسف. لقد وُجد مقطّعاً على فراشه وفي يده قلم رصاص يبدو أنه كان وسيلته الوحيدة للمقاومة. على جسده لوحة: المعدومين لفرانسيس غويا التي أعاد رسمها.

جريدة *الخبر (...) 199*

منذ أن أغتيل يوسف وريما تدخل بانتظام في غيبوبة متكررة. مرّة أخرى تشعر أن الخسارة كانت أقوى من أن يتحملها جسمها النحيف. شعرت بذنبي في داخلي وأنّبتُ نفسي كثيراً. قلت في خاطري لو بقيتْ مع أمّها لكان ذلك أفضل لها ولي. تقرأ كلّ شيء في وجهي. عندما دخلت إلى البيت يومها، بعد الظهر لم تسألني مطلقاً. تعودت قبل أن تسلم عليّ عند الباب، أن تقرأ تفاصيل وجهي. هذه المرة عرفت ان الكارثة كانت كبيرة. سبقتني إلى الصالة وجلست تنتظر ما سأرويه. لم تتجرأ على سؤالي. وتحت تأثير ثقل الجوّ، وصَمْتي، ذهبت نحو النافذة. تأملت جهة البحر، ثم التفتت نحوي.

ـ البحر اليوم مهوّل. أنا نخاف بزّاف كي نْشُوقوُ هكذا.

ـ وعلاه تخافي يا ريما، يوم أو يومان ويعود إلى وضعه الطبيعي.

قلتها وأنا أقوم بصعوبة من مكاني وأمدّ يدي نحو شعرها الذي كان يغطي جزءاً من عينيها.

كنت قلقاً بين أن أخبرها وأن لا أخبرها. الكارثة كانت كبيرة، وأنا نفسي تحملتها بصعوبة وإذ سمعت الخبر من غيري، ستحزن منّي كثيراً، وربما تفقد ثقتها في. هل أقول لها شاعرك يوسف قتل. أم أقول أنه مريض؟

أحسّست بما كنت أحسبه. ضَغَطَتْ على زرّ المذياع من تلقاء نفسها حتى تخَفّف عنّي ثقل الخبر، ثم عادت من جديد لتجلس بالقرب منّي.

ـ بابا أنت تعبان بزّاف.

ـ كانْشِ حاجة نفرّح في هذه البلاد؟

ـ أنتَ، وماما، وكلّ الدنيا.

كانت اذناها متنبهتين باتجاه المذياع. نظرت إلى الساعة مرّة اخرى. زمن النشرة يقترب، حرت بين أن أسبق النشرة وأخفف صدمة الخبر، أو أترك المذياع يقول ما لا أستطيع قوله. شعرت بنوع من العبثية في كلامي وفي إحساساتي، وارتباكاتي.

ـ شفتِ يا ريما. كلّ أصدقائنا راحوا. واللي خربوا البلاد عايشين كالسلاطين.

لم تقل شيئاً ولكنها رشقت سمعها على جنريك النشرة. ثم على الخبر:

[امتدت هذا الصباح أيدي الإجرام والخيانة إلى الفنّان والشاعر والأستاذ الجامعي: يوسف... الذي اغتيل في ساعة

مبكرة من صباح اليوم. فقد وُجِد بيته مبعثراً، ورأسه مفصولاً عن جسده، تنام داخله العديد من رصاصات مسدّس آلي وفي كفّه قلم رصاص. انتظروا التفاصيل في نشراتنا اللآحقة].

ريما لم تقل شيئاً. ولكنها بعفويتها شعرت بفداحة الخسارة. لم تبك. حتى الدمعات القليلة انكسرت داخل عينيها قبل أن تدخل في غيبوبة تامة. حاولت إيقاظها ولكنْ عبثاً. عادة عندما أدخل البيت لا أخرج. هذه المرة خرجت بدون تفكير واتجهت نحو مستشفى المدينة، على الرغم من إلحاحات فاطمة بعدم الخروج من البيت.

كانت الخسارة فادحة بالنسبة لريما. قبل مدّة قصيرة فقط رأته. تعوّد أن يسمع منها وهو عند الباب كلماتها المعتادة:

ـ عمّو يوسف! ردّ بالك على روحك.

فيردّ ضاحكاً:

ـ وهل يُعقل يا ريما أن يتجرّأوا على لمس الفنّان؟

ثم يعدل من موزيطه الذي لا ينزل من على ظهره حتى وهو جالس، ويرتّب كوفيته الآجورية الملتصقة دوماً بعنقه صيفاً وشتاء، في حركة طفولية تتكرر دائماً. ثم يسدل عينيه بسخرية:

ـ ما تخافيش ياريما، واش يديروا بيَ. لست مهمّاً حتى للضجّة الأعلامية.

ثم يودّعها ويغادر البيت، فلا نسمع إلّا نقرات صوت حذائه وهي تتكسر بهدوء على الأدراج.

يوسف، رجل بطيبة نادرة وجنون استثنائي. يمشي بسرعة. يقرأ بسرعة. يأكل بسرعة ويتأمّل بعمق وجنون. وكلما حزن، واختلطت عليه الأمور يقول بشكل حادّ، مبرزاً عن عيون تختلط فجأة ألوانها.

ـ يابوربّ هذه البلاد لم تغير عادة واحدة من ممارساتها. الذي

يشغلني فيها ليست الاغتيالات، فأنا أعرف أنه يتم ترتيبها بشكل متقن ومن طرف جماعة يعرفوننا جيداً، ويملكون كلّ التفاصيل والمعلومات عنّا. C'est une extermination planifiée لكلّ المزعجين. لكل الذين يحبّون أن يفهموا بزّاف وهذا يخدم أطرافاً عديدة، مثلما كان في السابق. اغتيل عبان رمضان وقيل استشهد؟ ذبح جان سيناك، صديقي العزيز بعد أن اختار وطناً لم يجد شيئاً يجازيه به إلّا الذبح. الفنان محمد راسم بدوره ذُبح هو وزوجته، قيل وقتها كذباً وبهتاناً، أن سبب الاغتيال مسألة تتعلق بورثائه. الرجل كان يعرف الشيء الكثير و«يفهم بزّاف» وفي هذه البلاد، كلّ من يَفْهم بزّاف يُمحى. تعرف! حتى قَتلتُنا متخلّفون مثل حكامنا، عندما يقتلون، يقتلون وانتهى لأنهم يعرفون جيداً أن جرائمهم ستُقيّد ضدّ مجهول ولا يكلفون أنفسهم عناء التنظيم المُحكم والتدبير. كلّ هذا لا يشغلني مطلقاً.

ـ مع ذلك، كلّ الكارثة هي هنا.

ـ لا.لا. افهمني. أحس أن القتلة معنا. يشربون معنا القهوة. يبكون معنا. يلعبون معنا ويعرفون حكاياتنا الصغيرة. ما يؤذيني أكثر أن يَمْشَوا في جنازاتنا. وغداً سيكونون من أوّل القائلين أن دماءنا كانت رخيصة، وأنهم لم يعدموا إلّا الخونة. ينتابني الشعور بأننا مقدمون على فاجعة بدون حدود.

يوسف تعوّد دائماً أن يقول ما يحسه بعفوية. حتى في الأمسيات الفنّية، لا يخبئ شأنه الداخلي الذي يشغله أبداً وهو يعرف مسبقاً أن العيون التي تتربص به كثرة، وهي نفسها التي قادته ذات صيف قائض قبل عشرين سنة إلى مصحة عقلية في المدينة، بقي فيها زمناً طويلاً قبل أن يخرج منها بعدما أصبح الأمر مفضوحاً وبدأت قضيته تتحول إلى مادة إعلامية، أُسكتَتْ في مهدها ومقابلها أخرْجَ هو من المصحّة.

ـ يوسف. أنا قلت لك منذ زمن بعيد أنك حكيم.

يضحك، ثم يردّ كالعادة، كلما سمع هذه الكلمات.

ـ أ...ر...أ...ي...ت؟

يقولها بشكل ساخر ومضخّم وهو يرسم ضحكة مملوءة سخرية على وجهه النحيف قبل أن يسترسل في نظريته التي تملأ كلّ انشغالاته عن الكائن المفترس والكائن الآلي. شغله الشاغل هو أن يربط بين الزراعة والأدب.

ـ تعرف. نحن في وضع مضحك. نستهلك الحضارة بتخلف، ولكننا لم نتخطّ بعد مرحلة الإنسان المفترس التي هي المرحلة الافتراضية الأولى. في أحسن الأحوال، نحن خليط من المفترس والمزارع والحدّاد. وبعض العلامات القليلة من الإنسان الآلي. أنت صنّفتُ كتاباتك بين الإنسان المزارع والحداد، وأخطر هولاء المزارع، لأنه يقتل وهو يظن أنه يدافع عن حقّ موروث!؟

ثم يلتفت نحو ريما.

ـ أنتِ الوحيدة التي تقع فوق التصنيف. خزرتك مرعبة. ستكونين عاشقة رهيبة، ولكن قبل ذلك على المزارع أو الآلي أن يتحوّل إلى إنسان لكي يستطيع أن يطلب يدك.

تضحك ريما. تقهقه عالياً. فهي تعودت على ملاحظات يوسف، ولكنه في كلّ مرّة يخرج لها بخرجة جديدة. جاءته برسمها وهي تكتم بدورها ضحكة ملعونة.

ـ أُنظرْ؟

ـ ما هذا؟ مثل؟ إنسان؟ رأس!

ـ عمّو يوسف. هذا أنتَ.

تشتهي أن ترسمه في شكل مثلث. كلّ النّاس في رسومات ريما يشبهون الأشكال الهندسية. دوائر. مربعات ومستطيلات، أو مثلثات.

– C'est la geometrie des visages.

يقولها، ثم يندمج في ضحكة عالية مع ريما. لا يضحك إلّا نادراً، وعندما يضحك يأكل ضحكته بسرعة. هذه المرة كان يضحك على غير عادته. مع ريما يصير أحياناً طفلاً صغيراً.

ـ يا ريما، يا ريما، ضحّكتيني راحْ أُضْحِكُكِ بقصة حقيقية.

ـ أنا أحب قصصك. إِحْكِ.

ـ اسمعي...

وننكفئ جميعاً حوله.

ـ وحق محمد، هذه ليست نكتة. وراس بابا. هي حقيقة من أولها إلى آخرها. في مسيرات العصيان المدني التي نظمها الإسلاميون في شهر جوان، كان هناك شاب لا يعيش إلّا على الزّطلة، ويشترطها قبل أية مسيرة. كان يؤتي به من عمق حيّ باب الوادي الشّعبي لصراخه ولصوته القوي. أسموه بالمناسبة بلال لدكنة بشرته. لم يأبه كثيراً لذلك لأنه كان يعرف مسبقاً أنه لا يلبس هذا الاسم إلّا بمناسبة التجمعات والمسيرات، وبعدها يعود إلى اسمه الشعبي مُوح الزطْلة. في مسيرة العصيان قالوا له: عليك الصوت وعلينا الزطلة. وبعدما ملأ رأسه نزل إلى شوارع العاصمة وظلّ يصرخ بأعلى صوته: *عليها نحيى وعليها نموت. لا ميثاق، لا دستور، قال الله، قال الرسول. دولة اسلامية...*

وأثناء إحدى المسيرات أُغمي عليه بالقرب من مكان للحلاقة النسائية. سحبته حلاّقتان إلى عمق المحلّ حتى لا تدوسه الأقدام الملتهبة الغارقة في صراخها المتواصل. وبدأتا ترشّان عليه العطور، وتمسحان العرق من على جبهته. وعندما استيقظ وجد نفسه بين العطور الطيبة والوجوه الملائكية الحنونة. أغمض عينيه من جديد وحاول أن يغرق أكثر. عندما فتح عينيه وجد نفسه من جديد في نفس المكان، وبصحبة امرأتين جميلتين، وبعض الوجوه الأخرى التي كانت تنتظر دورها في الحلاقة. بدأت الحمرة تعلو وجهه وتعلوه سعادة غامرة، فتذكر كلمة كان قد سمعها من فم

الإمام مباشرة: إن المؤمن أوّل ما يفتح عينيه داخل قبره، يواجهه الزبانية إذا كان عاصياً، وتحتضنه الحور الكواعب إذا كان مؤمناً. أغمض عينيه مرة أخرى وتنّهد عميقاً وزفر بلذة:

ـ الحمد لله الذي لم يخلف لعبده وعداً.

كان يظن نفسه داخل أروقة الجنّة. لم يخرج من المحلّ إلاّ بصعوبة، إذ لم يصدّق أنه حيٌّ. كان يريد أن يظلّ ميتاً حتى يكتشف سر هذه الحوريات في فراش الجنّة.

هوذا يوسف يذبح في بيته، تحت أكبر لوحة ظلت تملأ ذاكرته بالألوان: المعدومون Les fusillés.

– Merde! C'est de l'absurde.

هل يُعْقل أن تحدث فواجع مثل هذه ببرودة قاتلة؟ إلى هذا الحدّ كانت رؤيتنا متخلّفة؟

منذ زمن بعيد، والمدينة تنام بهدوء كبير على زيفها الغامض، كلّ الهمجية المخبأة، تخرج الآن دفعة واحدة مثل القيح الذي كان ينام طويلا تحت جلدٍ برّاق وميّتٍ. كيف واجه يوسف هذه الآلة السوداء والخراب وهو النحيف، البسيط، العاشق؟ كيف قاوم موته؟ كيف استنفر رهافته وهو يسمع صوت تكسّر أخشاب الباب الرقيقة؟ حتماً، فقد كانت الأقدام الثقيلة التي هزّت الباب من جذوره خشنة إلى حدّ يخيف. لم يكن لدى يوسف الوقت الكافي للصراخ ولا النحيب، ولا الاستعطاف. عندما لمعت سكاكينهم الطويلة في أيديهم، تأملهم كثيراً بعينيه نصف المغمضتين قبل أن يدرك أن هذه المجزرة كانت تستهدفه. أنا متأكد أن يوسف لا يطلب العذر ولا الصفح عن جريمة لم يرتكبها، ولكن لابدّ أن يكون قد طلب منهم استعمال المسدس بدل السكين الباردة، لكن هستيريتهم وساديتهم فعلت غير ذلك. فقد ذبحوه وقطعوا رأسه، ثم بعد ذلك ملأوا جسده النحيف بالرصاص. أنا متأكّد أن القتلة لم يقرأوا حرفا واحداً مما كان يكتبه، لكن الذي سرّب اسمه كان يعرفه جيداً. فالقراءة تضيّق مساحات التعصب ومدعاة للحبّ والتأمّل.

– لا يعقل. أيّ تأمّل في وضع لا يعطيك إلّا فرصاً صغيرة للخوف والذعر؟

ريما بكت يوسف كثيراً. من يومها، كلما تذكرته، كلما تحدثنا عنه أمامها تدخل في حالة خوف ونوبة بكاء، تنتهي بها إلى نوم مرتبك وكوابيس وغيبوبة. أحسّت بافتقاده.

كان يقرأ عليها بعض أشعاره التي كان يكتبها بالفرنسية.

كانت تقرأ عليه مذكراتها *سلطان الرماد*

كان يقول لها مازحاً.

ـ هل سيكون لي مكان داخل حديقة الشهداء الجميلة في كتابك.

ـ اسكت. أريد أن اسمع شعرك ولا أسمع كلامك.

ها هو ذا يصير بدوره مادة في مذكراتها الصغيرة.

للمرة الثانية تدخل في إغماءة قادتها حتى مسشفى المدينة. هذه المرة طالت أكثر. في المرة الأولى أصابتها عندما اغتيل عزيز. كانت عائدة من المدرسة، فجأة سمعت رشقات رصاص متتالية. الكثير من الأولاد انبطحوا تلقائياً على الأرض، بينما ظلت هي تركض صوب البيت وهي تصرخ: بابا.. ماما.. بابا.. ماما.. اختلط صراخها بصراخ سكان الحيّ وهم يدعون أبناءهم بعدم القيام من الأرض، كانت النوافذ تفتح وتغلق في ريتْم متكرر وجاف. كلّ النّاس كانوا يظنون أن الرصاصات كانت تأتي من المدرسة ثم من الساحة العامة، ثم من البيت نفسه. صعدت ريما الأدراج بسرعة كبيرة وهي التي تعودت أن تصعدها ببطء كبير وتحتج عليّ لماذا لم أختر بيتاً في الطابق الأوّل بدل الخامس. كنت دائماً أضحك من كلامها.

ـ آه يا لالّهْ ريما لو لو كنت تعرفين. محظوظون إذ وجدنا سكناً. غيرنا يقضون لياليهم في الحمّامات وأقبية الخوف. تلك قصة أخرى في هذه البلاد.

كانت تظن أن الرصاصات فينا. عندما رأتني، التصقت بي

بقوة. ظلت زمناً طويلاً وهي تبكي في الأدراج حتى غابت نهائياً عن وعيتها.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تصاب فيها بهذه الحالة.

حملتها بين ذراعي. كانت صفراء وخفيفة مثل الريشة. ولم تستيقظ إلّا بصعوبة بعدما ملأنا شعرها ماءً وعطوراً. قضت مدة طويلةً بعد هذا الحادث وهي تبيت ملتصقة بي في فراش النوم. ولم تدرك إلّا متأخرة ان الرشقات التي سمعتها كانت موجهة إلى رأس الدركي الشاب الذي كانت تلعب معه كرة المضرب كلّ مساء خميس عند مدخل البناية. كان يأتي مرّة واحدة في الأسبوع من الحرّاش ليرى والده. بقية الأيام يقضيها في مكان عمله.

وعندما بدأنا ننبّهه أنا وعمي إسماعيل بالخطر المحدق به حتى وهو في الحيّ، كان يقول:

ـ أولاً، أنا لا أحد يعرفني في الحيّ. ثانياً واش درث لهم؟ لست تافهاً ولست عظيماً. واللي غرّقوا البلاد، يعرفون أماكنهم.

وعلى الرغم من أن علاقته بريما ظلت شبه رسمية، فكان كلما جاء، يرسل أخته الصغيرة للبناية تنادي لريما وينزل هو معهما عند المدخل، يلعبون كرة المضرب. عزيز يحبّ الأطفال كثيراً. كانت له طفلة بسنّ ريما ماتت قبل سنتين. يقول انها تشبه ريما كثيراً، ولهذا، فهو كلما رآها وانتهى من اللعب معها، يتجوّل معهما داخل حديقة «تِيتُو» المطلّة على الحيّ ويحكي لهما القصص الجميلة. كان ساحراً في كلامه. تقول ريما.

ـ تسألينني يا ريما. شْكون أنا. رجل طيّب جاء من بعيد. في يديه أتربة وحرائق وقصص كثيرة، يبحث عن أميرة سُرقت منه في لحظة غفوة. تحمل كلّ أسماء الأطفال الصغار، ولن أعود إلى «جيجل» عندما أشيخ للتقاعد إلّا وهي معي...

عزيز رغم التنبيهات، ظلّ محافظاً على رتابته. كلّ صباح

خميس، على العاشرة تقريباً، ينزل من سيارة مدنية لشخص يقول عنه أنه صديقه الحميم. يقضي الليلة عند أبيه وزوجة أبيه وفي مساء يوم الجمعة. نفس الشخص يأتي. ينتظره قليلاً ثم يزمّر. يخرج عزيز بسرعة ليعود مع صديقه. كان مهيأً للقتل السهل. لم أستطع تحمّل هذه الحالة. من العبث أن نسهّل المهمّة للقتلة. نبّهته مرّة أخرى.

- يا عزيز، هذا تهور.

- يا ودّي واش راحْ يديروا بِبَئِيس مثلي؟

- اللي قتلوهم من قبل واش كانوا؟ كانوا أبأس منك ومني. الهمجية عمياء يا عزيز.

- إذا يحبّوا يقتلوا اللي دمّروا البلاد، أماكنهم معروفة. أمّا أنا. لا ناقة لي ولا جمل. عاش ما كسب، مات ما خلاّ.

نفس الكلام الذي كان يقوله يوسف. عندما أقول له عينك على روحك!!؟؟ يضحك، يصمت ثمّ يقول:

- وهل الخسارة ستكون كبيرة؟ واحد مثلي. زايَدْ ناقص. مواطن ضيّع حق المواطنة. يسكن بالقرب من مقبرة يزاحم الأموات في راحتهم. واش تحب. هكذا الدنيا.

ثم فجأة رصاصات. وبعدها لا شيء. انطفأ يوسف. بكاه الذين يحبونه فقط.

يقبض عزيز على وجه ريما. يتأمل عينيها طويلاً.

- آه يا ريما. من أين لك بهذا السحر كلّه؟ آه لو فقط يعود هذا الوطن إلى طبيعته، سأنجب بنتاً صغيرة وجميلة مثلك. أخاف عليكم جميعاً.

قلت له يومها.

- الذين خرّبوها عايشين مثل الملوك يا صاحبي. وحوّلوا

ثلاثين مليون مواطن إلى فئران تعيش بذعر داخل غيران مسدودة لم تعد قادرة على تحمّلها.

ـ عارف. بالليسانس، لم أجد مؤسسة واحدة تستقبلني إلّا الدرك الوطني. أؤدّي على الأقلّ واجباً وطنياً أعتقد أنه صالح. وبعدها ربي يدير تَاويل. أتمنّى فقط أن لا تذهب هذه الدماء مع الريح وأن لا يتركوا هذا الشعب في منتصف الطريق. وأن لا يتحوّل دم الذين يموتون ولا يحملون في قلوبهم إلّا وطنهم ورغبتهم المسالمة، إلى ماء بارد.

ـ علينا أن ندافع عن هذا الوطن يا عزيز، لكن المدافع عن وطنه باستماتة كبيرة يحتاج إلى قناعة بهذا الوطن، وبمثل عالٍ، وهذا المثل العالي علينا أن نخلقه، أن نتخيّله لنستطيع الدفاع عنه وإلاّ سندخل حرباً نحن مهزومون فيها من الداخل.

في اليوم الذي قتل فيه عزيز، أشياء غريبة حدثت، لم تكن اعتيادية على الإطلاق. شاحنة الخضارين التي غابت منذ مدة عادت من جديد. منذ الصباح الباكر الذي سبق اغتيال عزيز أربعة شباب، كانوا يعبرون الحيّ بكامله جيئة وذهاباً. ثم الأغرب من كلّ هذا أن صديق عزيز الذي زمرّ عليه، عندما نزل الأدراج ليلتحق به كالعادة، كانت السيارة قد أقلعت بسرعة، بعدها سمعنا رشقات الرصاص المتوالية. في البداية قلت ربما خاف. لكن فيما بعد عندما حاولت أن أتأمّل الحالة لحظة، لحظة، عرفت أنه في البداية زمرّ. انتظر قليلاً. انعطف الشبان الأربعة يميناً وشمالاً بعدما انقسموا إلى فريقين. وبعدها جاء صوت الرصاص. لا أدري ماذا حدث؟ لكن حاسّتي نبهتني إلى أن المقتول ليس إلّا عزيزاً. عندما تسلّمته سيارة الشرطة التي كانت قريبة من المكان كان قد سلّم روحه. ربما يومها أُغمي عليها للمرة الأولى.

لم تدرك إلّا فيما بعد أن المقتول هو عزيز، وعندما عرفت ظلّت مدة طويلة تصرخ بأعلى صوتها في اليقظة وفي النوم.

- يا ربي سيدي وعلاهْ قتلوهْ؟ وغلاهْ قَتْلوهْ؟ وعلاهْ قتلوْ؟

وها هو ذا مقتل يوسف يزيد من خوفها ويعمق عزلتها أكثر في هذا البيت المنفي على أطراف البحر. لا مريم هنا، لتمسد على شعرها ولا جيراناً يحتضنونها، إلّا أنا وهي وفاطمة وهذا الخوف العميق من موت صار فينا ومعنا.

12

6 H - 22MN

عيد ميلاد ريما هذه السنة، مرّ حزيناً. قضيّناه وحيدين أنا وريما وفاطمة، بعيدين عن مريم وياسين، وقريبين من الذاكرة والبحر. لأوّل مرّة نجد أنفسنا في هذه الحالة التي لم نتصورها مطلقاً أو نتصور حتى إمكانية حدوثها. حاولنا أن نتآلف مع الوضع ولكن عبثاً. فالدنيا كانت صعبة كثيراً علينا.

كلّ شيء بدأ منذ الصباح بحادثة مضحكة، ظلت تطنّ في رأسي وتؤكد على جهلي لجسد ابنتي. حادثة لم أكن مهيئاً لها على الإطلاق. لم أناقشها مع مريم، حتى عندما كانت دنيانا شبه طبيعية. ربّما لأننا لم نكن نتخيل يوماً، أن ريما يمكن أن تصير أمرأة بسرعة، وأنها ستحرق بعضاً من طفولتها.

ريما، كعادتها في وقت مبكّر، تلمست صدرها الذي كان يؤلمها، ثم تدحرجتْ نحوي وهي تحمل في رأسها خوفاً ودهشة وعلامات استفهام.

قالت،

ـ بابا. أشعر بألم في صدري».

«أين؟».

«هنا، وهنا».

تلمست حلمتي صدرها الصغيرتين. شعرت بانتفاخ خفيف، كانت كلما لامستها، تتأوه ألماً، فكرت أن أتلفن لأحد الأصدقاء من الأطباء. فقد كان انشغالي كبيراً، وخفت أن يكون من وراء المرض شيء خبيث. ولكن في هذه السن؟ وفي هذه الظروف. أبعدت كلّ التصورات التي داهمتني دفعة واحدة، ثم فجأة قلت في خاطري، لماذا لا أستشير أولاً الصديقة النفسانية إيماش، ربّما أفادتني قليلاً، خصوصاً وأنها هي الملجأ اليومي لكل المضار التي نتلقاها والصدمات التي ترهقنا في هذا المجتمع المريض.

تلفنت لها بسرعة. حكيت لها القصة بكل تفاصيلها. قالت.

ـ لا تقلق أنا جايَهْ.

لم تقل شيئاً آخر. عندما وصلت كانت بشوشة كعادتها ولم يَبْدُ عليها أي انشغال استثنائي. كشفت من جديد على صدر ريما. تلمسته بحنان. ابتسمت وهي تلتفت نحوي، ثم فجأة دخلت في موجة هستيرية من الضحك وريما تتجاوب معها رغم دهشتها التي ملأت عينيها. وشوشت إيماش في أذن ريما ببعض الكلمات. رأيت حاجبيها يصعدان نحو الأعلى وجلدة رأسها تتحرّك بدهشة. معقول؟! ثم انسحبت من صالة البيت وهي تُغَطّي ضحكتها التي فاضت من بين يديها كالماء. كانت تخاف من أن تهرب منها قهقهاتها الصغيرة.

التفتت إيماش نحوي وهي ما تزال تحاول أن تكتم ضحكتها التي كانت تبدو واضحة من عينيها.

ـ شوف يا سيدي. ماتْهَوَّلش روحك. بنتك صارت شابة. والفُولاَتْ صاروا نْهُودْ.

ضحكت طويلاً. وضحكت معها من غبائي وسذاجتي وخوفي الذي أصبح يضخّم حتى الحالات البسيطة ويبسط الحالات الضخمة بينما ريما كانت سعيدة جداً.

ألححت على إيماش أن تبقى معنا قليلاً وتعود مساء لحضور عيد ميلاد ريما ولكنها اعتذرت، بعد أن وضعت قبلة على جبين ريما.

- أتمنى لريما عيد ميلاد طيب. هذا اليوم صعب ولا أستطيع الحضور. عندي محاضرات من الصباح حتى المساء. أعود مهلوكة إلى البيت. صرنا مثل الآلة. أتحدّث في شيء، وعقلي في مكان آخر. ومع ذلك نحاول أن نقوم بالواجب الأدنى. أيدينا صارت مقيدة. الأصدقاء يُذبحون يومياً، ونحن ننتظر دورنا، بهدوء وخوف. هل نتقبّل الموت بصمت؟ نتسلّح؟ ما هو الحلّ؟ يومياً، وأنا أدرّس تمر بذهني كلّ هذه الحالات.

- طيب. تعالي في الليل وبَاتي عندنا مثلاً.

- مانقدرش. في الليل عندنا لقاء تحضيري في إطار R.A.F.D (التجمع الجزائري للنساء الديمقراطيات) لدراسة المسيرة الاحتجاجية المبرمجة نحو الرئاسة، ضدّ القتلة وضدّ حماتهم.

- معناه يجب أن لا نصرّ. حظاً سعيداً. وعينك على روحك.

- وأنت كذلك.

وعندما أرادت أن تركب سيارتها، التفتت نحوي وهي تقهقه مرّة أخرى.

Ryma est devenue jeune femme, n'oublie pas de lui acheter des soutiens gorges. Allez, bonne nuit à vous tous.

ضحكتُ.

ضحكتْ ريما وبحركة لا شعورية تلمست صدرها.

المساء كله قضيناه أنا وريما وفاطمة نضحك من سذاجتي. كنّا جالسين مع فاطمة في المطبخ. كانت منهمكة في تحضير الكَاطوُ. اليوم كله قضيّته في البيت. ريما رفضتْ أن أخْرجَ. كانت مقتنعة تماماً بأن اليوم لها وحدها. استمعنا إلى فيروز. من حين لآخر كانت فاطمة تقطع حالة تأملنا بضحكة عالية.

ـ يا خي مْبَوْقَلْ ياخي.

ريما لم تطلب شيئاً. حتى عندما قلت لها يجب أن أشتري لها هدية، رفضت وقالت. لا أريد شيئاً. أريد أن تنفّذ وعدك فقط.

ـ أي وعْد؟

ـ أن تأخذني معك نْشُوفْ المدينة القديمة.

ـ أنا عند وعدي دائماً. أنتِ لم تطلبي شيئاً كبيراً.

ـ لا أريد شيئاً آخر. أريد المدينة القديمة. اشتقت للبلاد ولعمّي جلول الصبابطي الله يرحمه.

كنت أشعر بعزلتها وارتباكها. لأوّل مرّة تقضي عيد ميلادها بعيدةً عن أُمّها. مريم كانت تملأ البيت. هكذا نحن دائماً، علينا أن نعيش حالة الخراب، لنعرف كم كنّا أغبياء. أحياناً ألوم نفسي على كلّ ما يحدث لنا. لولاي، لكانت مريم في وضع غير هذا. وفي أحيان أخرى أجد كلّ المبررات التي تطمئنني، ولكنها لا تستطيع تخبئة حالة الخراب التي كنت أعيشها وتعيشها معي ريما مجبرة، في هذا الظرف الشديد القساوة.

كان قلبي ممتلئاً بالهواء الساخن.

لم يكن هناك أشهى من البحر في مثل هذه الحالات. وحده لا يُغيّر لونه ولا يخون ملحه.

قلت لريما التي كانت صامتة أمام أنين فيروز.

ـ البحر! ألا يجب أن نحتفل في حضرته قليلاً بعيد ميلادك.

ـ هذه مغامرة.

ـ لنغامر. البحر طيب ولا يخوننا.

ـ ياالله نروحْ.

البحر لم يكن بعيداً عن البيت. يكفي أن نعبر بعض البيوت

الملتصقة، لتواجهنا بعدها الأدراج المؤدية إلى البحر ولنجد أنفسنا أمام امتداده النادر. مع ذلك كله، لم تتركنا فاطمة نتحرك بالحرية الرومانسية التي ملأنا بها رؤوسنا.

- لا يا خويا. مَشِ هكذا. أنتما عندي وأنا مسؤولة عنكما.

ثم تزحلقت بسرعة عبر الأدراج حتى وصلت إلى أسفل البناية. كنّا معلقين في النافذة. بقيت قليلاً متكئة على سيارتها، وعندما اطمأنت، أشرت لنا بالنزول. وعندما بدأنا ندخل بين البنايات كانت فاطمة قد التصقت بالنافذة وظلّت تمسح المحيط بعينيها بدون أن تتركنا لحظة واحدة.

جلسنا على الرمال الباردة. كان الهدوء كبيراً ومغرياً لمزيد من الرومانسية والحماقات وبعض الجنون.

يقين أن في عمق البحر، قدراً كبيراً من الدهشة والجمال لا نقدر على تحمّله لوحدنا، أنا وريما.

أشعلت سجارة بعد أن نزعت معطفي ووضعته على ظهر ريما الذي انعكف من جراء البرودة.

- بردانهْ.

- شويَهْ.

- البحر كبير وجميل. ويعطي الإحساس بالعزلة والوحدة.

- وأنتَ. هل تشعر بالوحدة. لولاك. كنتُ ربّما قد انتحرت. أتحمّل هذه الحالة بصعوبة كبيرة. تمنيت أن تكون مريم معنا.

- أنا كذلك أشعر أنّي مشتاقة لماما ولكنّي أحبك.

لا أدري ما الذي ذكرني بليلة البارحة. عندما كنت أتأمل ديواناً لصديقة شاعرة مغربية. العزلة أحياناً تستدعي الماء واللون والشعر. كانت كتاباتها رقيقة مثل شعاع شمس. اقتربت منّي ريما. سحبت الديوان من يدي. قالت.

- خَلِنّي نَقْرا لك شْويَهْ.

ـ ها، بكل سعادة.

رأت صورة الشاعرة على الغلاف. غمزتني بملعنة طفولية.

ـ هاهاه.. شابّةْ.

وعندما أرادت أن تقرأ الأشعار، واجهها الإهداء، بخط مغربي مستدير. بدأت تفكها كلمة. كلمة:

الحبيب. الصديق..ها أنا ذي كلي بين يديك. لقاء لمشترك جوهري على أمواج الشعر التي لا تُؤَجَل. بتقدير ومحبّة عالية.

واصلتْ.

ـ هل تريد قراءته؟

ـ طبعاً هو لصديقة تكتب أحاسيسها بصدق وجنون.

ـ يستحسن أن لا تقرأه. كلمة حبيبي هذه لا تعجبني. تستفزّني.

كانت تتكلم بانزعاج، وبثقة كاملة.

ـ أنت حبيب ماما فقط. وماما حبيبتك أنتَ فقط.

ـ فليكن.

ـ لا يا بابا. ما تزعفْشِ. أعرف أنك تحب ماما كثيراً. أنا أمزح فقط.

ثم بدأت تقرأ على مسمعي وأنا أصحح لها. أحياناً كانت تفهم ما تقرأه، وفي أحيان أخرى كانت تردّد فقط الأشكال والرسومات التي كانت تراها.

كانت الموجات المتتابعة تتكسر عند أقدامنا. الماء كان في البداية بارداً، ولكنه سرعان ما صار دافئاً شيئاً فشيئاً. الأضواء بدورها كانت تتكسّر وتتحوّل إلى شلالات من الألوان على سطح البحر محدثة تمزقات داخل الزرقة.

ـ شفتِ يا ريما لو سافرتِ مع مريم لكان الوضع أفضل ولكانت

مهمتي أسهل في هذه المدينة.

- يا بابا. هذا الأمر حسمناه. أريد أن أكون معك. لن أتركك وحيداً.

- إيه يا ريما. سنة تمضي وأخرى تجيء بسرعة. يا ترى كيف ستكون السنة القادمة؟ الزمن يركض. شَعرٌ يشيب وآخر يسقط وأنتِ تكبرين بجنون صرت عاجزاً على فهمه.

- أكبر لألحق بك وأحسّ بما تحسّ به.

«أريد أن أصغر لألحق بك وأحسّ عن قرب بما تحسّين به. ما زلت مشتاقاً لطفولتي».

تحدثنا كثيراً عن أشيائنا الصغيرة وتفاصيلنا العميقة. أمام البحر يجد الإنسان شهية خاصة للكلام. استحضرنا وجوهاً كثيرة كنّا نحبّها وكانت تحبّنا قبل أن تنطفئ ذات غفلة. حاولنا أن ننسى الموت للحظة ونمتلئ حتى الأعماق بالبحر. فقد كان الحزن حاضراً في كلّ لحظة وفي كلّ كلمة وفي كلّ قطرة موجة.

وقبل أن نسمع صوت فاطمة ينادينا. كنّا قد تركنا الشاطيء واتجهنا إلى البيت. كانت الظلمة قد بدأت تنزل على هذا الساحل المهجور. أخذتني ريما من يدي وبدأنا نركض كالطفلين ونتسابق باتجاه البيت.

كانت فاطمة معلقة في نافذة بيتها. عندما دخلنا عليها لم تستطع كتم ما في قلبها.

- يا خويا حيّرتوني. واشْ هذا؟ كنت نازلة وراءكما.

- البحر أعجَبنا ونسينا أنفسنا.

أكلنا الكاطو الذي حضّرته فاطمة. شربنا قليلاً وعَبثنا بشكل أقلّ. رصّعت ريما يديها بالحناء كما كانت تفعل جدتها عشية كلّ عيد في القرية. وضعت قليلاً من الزيت على يدها. رصعت كفّها بقطرات الشمع الحارقة، ثم غطت الكلّ بالحنّاء الورقية. تقول ريما

أنها كلّما وضعت الحنّاء في كفّيها ورسمت بالشمع وبحرقته نقاط بيضاء، تشعر بالأمطار تتهاطل في داخلها وبالشموس تملأ قلبها الصغير وبالقرية البعيدة، تأتي كالماء، دفعة واحدة.

بعدها، نامت على ابتسامة منكسرة وعلى حلم ظلّت تتأكد منه قبل أن تنسحب نحو فراشها.

ـ بابا ماتنساش واش وعدتني. نحب نعرف القصبة مليح، والمدينة القديمة.

ـ ما يكون غِي خاطرك. تصبحين على خير.

ـ تصبح على خير.

ثم تتشظّى في فراشها متعبة كنجمة قطعت سماء بكاملها مفردة قبل أن تنكسر في الفضاء إلى ملايين القطع الصغيرة المليئة بالنور، بينما رحت أتّكئ على شرفة فاطمة أتأمل ما تبقّى من هذا الصمت المخيف وهذا البحر المنسي داخل عزلته واتساعه وخوفه، وداخل خطوات موجاته الخجولة التي تتكسر بهدوء عند أقدام الصخور والبنايات المحاذية.

13

6H - 26MN

ـ بابا، والله واحد ما يعرفك. مغيّرت تماماً.

قالتها ريما ونحن نعبر زقاقاً صغيراً في المدينة قبل الدخول إلى عمقها.

كنت قد تنكّرت بنظارتين، وقد قصصت شعري قليلاً بمساعدة فاطمة، بعدما حنيّته قليلاً قبل النوم ووضعت بريّطة إسبانية على رأسي وعصا صغيرة في يدي. لم يبق شيء مهمّ مني. بينما ارتدت ريما ألبستها الوردية الجميلة. في لحظة من اللحظات نستْ خوفها نهائياً، وتغاضتْ قليلاً عما كان يمكن أن يحدث لي، لو تعرّف أحد القتلة على شكلي. أوف. ليكن. نحن في حاجة ماسة إلى بعض النسيان لنتمكن من العيش.

انحدرنا باتجاه الأقواس المحاذية للمسرح الوطني أو الأوبّرا القديمة. وقبل أن نبدأ في الصعود باتجاه القصبة، كان علينا أن نعبر ساحات المدينة الواسعة والانحدارات الموصلة إليها، مروراً بساحة الأمير عبد القادر التي لم يبق فيها شيء من الأمير إلّا هو وحصانه في عزلة دائمة، يقاومان صمت النّاس وسخريتهم، رغم أن الأمير الذي كان صغيراً عن حصانه في التمثال السابق، صار هذه المرة عالياً. عالياً لدرجة أن ملامحه الريفية صارت نائمة، وعوّضت

بملامح رجل مدينة كبيرة. أزمة البلدية المواجهة له والتي كتب عليها *بلدية إسلامية للجزائر الوسطى*، بدأت تمحّي تحت فعل الطلاء الأبيض وعمليات المحو والكتابة، إذ كُتبَ عليها من جديد *بلدية الجزائر الوسطى* لكن اللون الأخضر لكلمة إسلامية لم يَمَّح كلية، يذكّر بلحظات الخراب التي كادت فيها البلاد أن تتدحرج نهائياً نحو موتٍ محتوم، أو بلعبة القطّ والفأر التي مارسها كتبة البلدية. هؤلاء يكتبون اليوم شعاراتهم، في اليوم الموالي تُمحى الشعارات وتُكتب في مكانها شعارات معادية وهكذا. حتى تحولت حيطان المدينة إلى لوحات تُقرأ عليها كلّ البشاعات والتخويفات.

كانت الدنيا تتغيّر بسرعة مذهلة في المدينة. رئيس البلدية كان مصمّما على الذهاب إلى أقصى حدود تصوراته باتجاه أسلَمَةِ المدينة وتحويلها إلى بازار متهالك. قام بتجنيد جميع من كان معه. وأغلقوا البلدية واتجهوا في البداية نحو المسرح الوطني. كان على رأس الفرقة الرئيس الذي نزلت عليه الرحمة فجأة مع أن الذين يعرفونه جيداً يقولون أنه كان من المسيطرين على سوق المخدرات التي كانت تُسرّب عبر باب الوادي وفونْتين فريش وبعض جهات القصبة. عندما غادر سجن البرواقية التحق مباشرة بأفغانستان ومن هناك عاد بلقب الحاج أبو أسامة.

عندما اقتربوا من المسرح الوطني أخرجوا العمّال بسهولة وشمّعوه بعد أن شمّعوا قاعة العروض التي كانت تتهيّأ لاستقبال المغنّية البرتغالية ليندا دي سوزا. المدير عندما ذُكِر له ما كان يفعله رئيس البلدية في المسرح الوطني، خرج من الأبواب الخلفية حيث تعوّد إيقاف سيارته. من يومها لم يظهر له أثر. ثم مرّوا على مركز الثقافة والإعلام تلاسنوا مع مديره. شمّعوا الأبواب على العمّال لأنهم رفضوا الخروج. لكن بمجرد ابتعاد رئيس البلدية ومجموعته، خُرّب التشميع وعاد المركز كالعادة الى استقبال زوراه وزبائنه.

وعندما دخلوا إلى المتحف الوطني، مثلما يدخلون شارعاً خالياً، كان ضجيجهم همجياً ومخيفاً. جرى الحارس نحوهم وهو

يشدّ على الزرواطة التي كانت تنام في يده اليمنى. لكن رئيس البلدية، الذي اختلطت لحيته السوداء بوجهه المرتبك، بملامحه العنيفة، أسكته بعينيه الفاّزّتين.

- واشْ. ماعرفتيش؟

- لا. من تكون؟ أخرج يرحم والديك.

- أنا رئيس البلدية. خذني لمكتب المدير. شفْتوا.

ثم التفت نحو أصدقائه الذين كانوا ينتظرون أوامره.

- لا يخرّبون العقول فقط، ولكنهم يضعون زانيات لتسيير الأماكن الحساسة.

كان الحارس قد انسحب بسرعة نحو المديرة. وقبل ان ينهى رئيس البلدية كلامه، كانت المديرة بلباسها الأحمر تقف على عتبة المدخل.

- هاه! واشْ تحب عند هذه الزانية.

- شوفي يا حرمة. مانْطوّلش معك الكلام. أُحدّثك بشكل سلمي. أخرجي ودعينا نغلق بيت الأصنام هذا. يرحم والديك.

- تأتي بأكثر من عشرين نفراً وتسمّي هذا عملاً سلمياً، كيف سيكون الأمر لو كان عنيفاً؟

- شوفي أنا ما نعرفك ما تعرفيني. كلمة وقصّص. أعطيني المفاتيح وروحي بالسلامة. الله يهوّنْ عليك وعلينا.

- أيّة مفاتيح.

كان عمّال المتحف قد كوّنوا حلقة دائرية واسعة حول المديرة وحول عمّال البلدية.

- نريد تشميع المحلّ، وإذا ماعجبَكْشِ الحال طيري برّا.

- ما نطير وَالوُ. هنا يْموتْ قاسي. ثم إن هذا ليس مَحلاّ للزلابية

وقلب اللّوز. هذا متحف وطني وإذا لم تخرج سأطلب الشرطة والوالي. وإذا ركبتَ راسك. ها هم العمّال قدّامك تريد تجْويعَهم بقرار مجنون.

ـ أنا رئيس البلدية. ونْخَرْجك الوقت اللي نبغي.

ـ لعلمك، لست تابعة للبلدية، فأنا معينة من طرف وزارة الثقافة. وإذا كنت تستطيع فعل شيء إفعله. أعرف القوانين أوّلاً يا سيدي الرئيس قبل أن تقدم على فعل مثل هذا يضعك في وضعية غير قانونية على الإطلاق.

ـ أنا مانستعرفش بربّ الوزارة دْيَالَكْ.

ـ هذا شغلك. على كلّ سأبلغ الوزارة بهذا الهجوم الهمجي.

التفت نحو أصدقائه. كان يغلي مثل برميل زيْتٍ، لكنّه شعر بيديه مكتّفتين. تأمّل من تحت أهدابه حزام المحيطين بهم جميعاً من عمّال المتحف.

ـ ماشِي. لو كنْتِ رَجُلاً لكان لي معك حديث آخر.

ـ رجال باش؟ بهذا الحقرة العلنية، وهذه الشتائم.

ـ نهارْكُمْ جايْ. وحَقْ رَبي كلكم ياكلكم الموُسْ والتّعلاقْ.

ـ ياسيدي طز في هذاك النهار. كِي تحْكمها نحرَقْ روُحِي قبل ما تلمسني أنت وإلا غيرك.

ـ خَلِّ النّهار هذاك يْجي ونْشُوفو.

ـ واشْ! خبزة وْطَاحَتْ على كلب راقَدْ. رُوحْ. الله يْسَهِّل عليك أنت وجماعتك. بيننا القانون.

ـ لاحوله ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم. آه لو كان ما جِيتِيشْ امرأة!

ثم اتجه الجميع وفي أيديهم خرقاً ملونة بالأبيض والأخضر وقضبان حديدية، نحو الحديقة العامة لإتمام البرنامج البلدي الذي خططوا له طويلاً ووضعوه قيد التنفيذ. كانت الحديقة تحتوي على

أكثر من خمسين تمثالاً لأجساد بشرية رجالية ونسائية عارية أو شبه عارية. زيّنت بها الحديقة قبل زمن بعيد جداً. بعضها عمره أكثر من قرن. كان المكان خالياً في مثل تلك الساعات الصباحية. في البداية كانوا يريدون تحطيمها كليّة، لكن الوزراة تدخلت ومنعتهم، وهذه المرة وجدوا الفكرة التي تقيهم شر الوزارة التي ما تزال على صدورهم كالصخرة الثقيلة التي عليهم تحملها ولو زمناً، حتى تؤول الأمور إليهم نهائياً. كانت الألبسة عبارة عن تبابين قطعوها ثم ألبسوها للتماثيل وأعادوا خياطتها من جديد. وكلما كان ذكر التمثال بارزاً كسروه ثم ستروه بقطعة القماش. بينما التماثيل النّسائية فقد غلقوا ما بين الفخذين بكتلة إسمنت سوداء صارت مثيرة للانتباه أكثر مما كانت عليه. تقاسموا المساحات على طول الحديقة، وبدأوا في تلبيسها واحداً واحداً: أبيض. أخضر. ثم أبيض. أخضر وهكذا، ضمن انتظام مضحك تماماً.

في المساء نفسه، كان النّاس مسمّرين في المكان، يتوقفون قليلاً أمام التماثيل. يضحكون ثم يمضون. بعضهم كان يتجرأ اكثر، فيزحلق يده من تحت التبّان، يتحسس ما يوجد حقيقة تحت اللباس، بسخرية كبيرة.

ـ هذه هي مشكلات البلاد الأساسية! هذا هو إبداعهم وعبقريتهم وبرنامجهم! خسارة.

ينكّتون قليلاً ثم ينسحبون وهم يستعيدون بشاعة المنظر. مع أن الحديقة، منذ أكثر من ثلاثين سنة هي، هي، يأتيها النّاس ليستريحوا قليلاً. التماثيل لم تكن لتثيرهم. فقد تعوّدوا عليها. صارت جزءاً من تأملاتهم. يمرون عليها بدون أسئلة مثيرة.

ـ شفتِ يا ريما. في أي شيء يختلف رئيس البلدية هذا عن الذي حطّم تمثال مدينتنا في بداية الاستقلال. نفس العقل ونفس الكارثة. عقولهم في أحذيتهم.

ـ خسارة. مع إن البلاد جميلة وواسعة.

ـ المخيف في هذه المدينة التي بدأت تخسر روحها، أن يظل النّاس صامتين على هذه المقتلة.

عندما رفعت رأسها باتجاه بناية تركية قديمة، بدأت تتهدّم، كنّا قد دخلنا حي القصبة. لم تجد شيئاً يثير دهشتها سوى مدينة تنهار وأزقة زاد ضيقها من كثرة الأوساخ التي تُصَرّف عن طريق الحمير والبغال، وأسواق نُزعت عنها شعبيتها لتتحوّل إلى أسواق لتهريب البضائع والسلع التي تدخل البلاد بطرق محْمِية تكاد تكون شرعية، براً وبحراً وجواً. سلع طايوانية وفرنسية وإيطالية، ومغربية وسورية... لا يمكن أن يكون كلّ هذا تهريباً. لا بدّ أن تكون هناك شبكة تسيطر على تجار الشنطة الصغار، تختلط فيها بعض أجهزة الدولة والخواص النائمين في الظلّ. يبعثون الشباب العاطل في رحلات قصيرة إلى كلّ أصقاع الدنيا، وهناك يجدون من يملأ شنطهم الكثيرة. يقضون ليلة سعيدة هناك وفي الصباح يعودون. في المطار يُستقبَلون من مجهولين. تمر شنطهم بدون تفتيش. وبعد يومين يعاودون نفس الرحلة إلى بلاد أخرى وهكذا. لا يمكن أن يكون من وراء ذلك أناس صغار وبسطاء؟ المؤكد أن هناك جهازاً بدون ملامح يتحكم في حركة الجميع.

ورغم خيبات ريما من وجه المدينة القديمة، فقد كانت رغباتها تزداد عمقاً لاكتشاف تفاصيلها الغامضة، تفاصيل هذه الذاكرة المسروقة والمكسورة بفعل النيران والحروب، والفيضانات والنهب، والخوف والمدافع التي أكلت تفاصيلها الحميمية، وفعل الزمن الذي يحفر على الجدران خفاياه وبقاياه.

كان تنكّري مضحكاً، ومع ذلك، من حين لآخر، كنت أنسى نفسي. بحركات لا شعورية أنزع نظارتي، أو بريطتي الإسبانية وأنا أشرح لريما زاوية غامضة في المدينة، بينما تكون بشكل متواتر، مثل المنبه الذي يدقّ في أوقاته المحدّدة.

ـ بابا! نظارتكْ؟

ـ بابا! البرّيطة رَاكْ قْلعتها. رجّعها لمكانْهَا.

استرجعت ريما كلّ حركاتها العفوية الطفولية. نسيت قليلاً حالات الخوف المتكرر التي يملأ مخبأنا الذي دفع البحر إلى الإستكانة والصمت. كانت طفولتها شهية. ضفرت شعرها في شكل ضفيرتين مثلما كانت تفعل مريم قبل أن تخرج من البيت صباحاً قبل أن تضطر إلى قصّ شعرها تحت تأثير الخوف، وضرورات التنكّر اليومية. مع ذلك فالإحساس بأن يداً وعيناً تراقب فرحتنا وإصرارنا على الحياة، وتحاصر خلوتنا، لم يغادرنا أبداً. أصبح جزءاً من حياتنا الداخلية اليومية. لا نمشي إلّا به. تآلفنا معه مثلما نتآلف مع أي مرض خطير لنستطيع العيش وممارسة الحياة.

اندمجت بسرعة أنا وريما بأحجار المدينة، لم يكن النّاس يولوننا أي انتباه. لم نصادف أي وجه يعرفنا، ولا أي وجه يثير فضوله خوفنا. كنتُ ببرّيطتي كحوّات عاصمي سعيد بصيده وكانت ريما كسلّة ورد جميلة. كثيرة الألوان. ما كان يثيرنا ليس الخوف، فقد نسيناه بسرعة، ولكن حيطان هذه المدينة الشعبية العريقة التي بدأت تتهالك الواحدة بعد الأخرى. فكلما سقطت دار، أو بيت صغير مواجه لرطوبة البحر، ولرياح المدن البعيدة، سقطت أجزاء كبيرة من الذاكرة.

تساءلت ريما، ونحن نعبر زقاقاً ضيقاً ينفتح في شكل فجوة على البحر.

ـ بابا. أنا أتعجّب كيف بُنيَت هذه المدينة. بكل هذا التداخل العجيب.

– Aujourd’hui, je serai ton meilleur guide!

ـ بالرغم من غياب ماما، أنا سعيدة.

ـ أنا مثلك. تأسرني كلّ هذه التفاصيل المدهشة داخل مدينة بنيت لتكون جزءاً من سحر هذه البلاد. ماذا بقي من إيكوُسِيوم ICOSUIM؟ فقد وُلدت كمدينة في القرن السادس قبل الميلاد. تصوري هذه العراقة المذهلة؟ كانت علاقاتها واسعة مع

الجهة الأخرى من المتوسّط. خصوصا مع إيطاليا الجنوبية والمستعمرات الإغريقية. وبعد سقوط كَرْتَاج في سنة 146 قبل الميلاد، دخلت مباشرة ضمن المملكة البربرية المستقلّة عن موريتانيا، لتُدْمَج عندما لُتِّنَتْ في القرن الأوّل الميلادي في مُوريتانية القيصرية. وبعد تدمير أجزاء كبيرة منها أُعيد بناؤها في القرن العاشر زمن الزّيريين، ليصبح اسمها فيما بعد جزائر بني مزغنةّ. مرّة أخرى دُمّرت الكثير من أجزائها في مرحلة الإبادة الأولى عندما كان الأتراك يتحصّنون بحيطانها، وعندما خاف الباشا غراب أحمد، من هجمات إسبانية جديدة، قام بتدمير باب عزون. وقام بمحوه نهائياً سنة 1573 ولم يترك إلّا اسمه وبني في مكانه حيطاناً ثقيلة كالرصاص لا اسم لها ولا ذات، كرهها البحر وكرهته. حتى حي البحرية الذي كان مليئاً بالحياة والحركة، انتهى وتبعثر تحت التدمير المحلّي، ودكّ المدافع التي لم تتوقف نيرانها. لم يدرك الأتراك، أن كلّ بيت كان يسقط، وذاكرة تمّحى، هو جزء من البحر ينشف ويتبخّر. حتى الحيطان التي بُنيت فيما بعد على الأنقاض، كانت تنسفها الاختلافات والصراعات. فالغاوون الأتراك، لم يغيروا من عاداتهم وتقاليدهم. اللبن والأنتفاخ والساطور والقرصنة والتدرّب وبيع الحيطان الواحد بعد الآخر. كانوا يبنون الأسوار الغليظة لدرء هجمات الأعداء ويبيعون مفاتيح المدينة للذي يعطي أكثر.

أنظري! هاهنا بقايا أحد الأبواب التي اندثرت، إذ كان بالمدينة ستة أبواب تضمن المرور بين القلعة والأسوار. لم تكن الإنكشارية التي كانت تأكل رؤوس حكامها، كلما دعت الضرورة تفرّط في شيء. فقد امتلكوا أجمل الأشياء في المدينة والثكنات السبعة المواجهة لِباب المدينة الأساسية: باب عزون وباب الجزيرة. بينما احتل الباشوات كلّ قصور المدينة التي كان بعضها يتحطّم على رؤوسهم من جراء هجمات سكان الضواحي أو مدافع الإسبان. كانت الجنينة الواقعة في تقاطع الشوارع الرئيسية للمدينة بين باب عزّون

وباب الوادي ومركز البحرية هي المكان الذي يجد فيه الباشوات لذتهم وراحتهم. يتنفسون البحر ويحلمون يومياً بترويض موجه وسفنه. وهذه الحجارة المتهالكة، هاهنا، على أطراف مشارف هذا البحر الذي انكسرت ألوانه، هي بقايا المرفأ القديم الذي بناه خير الدين في المنتصف الأوّل من القرن السادس عشر، لم يبق فيه شيء مهمّ ولم يرمّم كما يجب، بدأ يتهاوى منذ زمن بعيد مثل الأشجار الميّتة بعدما نخرت حجارته الأملاح والرياح وأمواج البحر التي كانت تتكسر شتاء عليه. حتى الأجزاء الصغيرة من حيطانه تحوّلت إلى كومات محشوة بالحسرة والتبن الغامل الذي لم يعد قادراً على تجميعها.

عندما كنّا نصاب بحالات القلق والوحدة والخوف من سخف المدينة التي خسرت ماضيها وحاضرها، لا هي مدن حديثة بباراتها ومسارحها ومراقصها ومصانعها ولا هي مدن قديمة بطقوسها وتقاليدها وحياتها البسيطة، كنت أنزل أنا ومريم إلى هذه الأماكن التي كان بعضها واقفاً. نتداخل مع الحيطان، نتعمق داخل الشقوق التي تقاوم ملوحة البحر ونختلط مع الذاكرة والناس العابرين على هذه الأماكن، حتى ساعة متأخرة من الليل، لننتهي فيما بعد إلى المسمكة التي كانت كلّ أنواع أسماكها تُعرض حيّة قبل أن تُطبخ.

- ولا تخافون من ظلمة الليل؟

لم تكن المدينة بهذه البشاعة. ولم يكن الزمن مخيفاً مثل الآن. ولو أنّ المدينة الجديدة كانت وقتها قد بدأت تتنازل عن الكثير من بريقها وأشواقها للرجال الغامضين الذين حكموا رقبتها بعنف شديد. ولكن شيئاً عظيماً فيها يقاوم كلّ هذه الخسارات وهذا الخوف. البنايات ظلت تسند بعضها بعضاً وتقاوم العواصف والرياح. تتداخل فيما بينها مثل اندماجات النساء والرجال. الساق على الساق. والذراع على الذراع، والصدر على الصدر، والشوق على الشوق. أيام الجمعة، عندما نجوع ونحن نعبرها طولاً وعرضاً يستقبلنا الشوّايون والحرايرية وخبازو المطلوع والزلاّبون وبيّاعو

التّفاوح (البهارات) المحلية والأفريقية والهندية. نضحك معهم. يضحكون معنا. ننساهم، ينسوننا تحت زحمة الذين يريدون أن يجدوا مكاناً داخل المطعم الشعبي القديم. في الجامع الكبير، يتقاطع النّاس بسرعة. يصلّون ثم ينتشرون داخل تقاطيع المدينة يبحثون عن عملهم وشؤونهم اليومية. بعض الوجوه يملأها نور استثنائي. في شيخوختها شيء من المقاومة ضدّ التفاصيل المنهكة. لحى بيضاء مثل القطن، أو الصوف البلدي المغسول. رائحة الطيب تكسر الأطعمة والروائح الأخرى. إنه يوم الجمعة. يتزيّن الناس. يتعطرون. يتسوّكون، أفواههم الضاحكة باستمرار، تعبق بالمسك وعود النوار. الصباحات عادة للنساء، الحمام والألبسة الجديدة والعودة باكراً لتحضير الكسكس. الظهر للرجال. يتطهّرون ويصلّون ثم يتغدّون وينامون قليلاً. تخرج النساء من جديد باتجاه عمق المدينة، بحثاً عن شيء ما. عن لذة ما، لا توفرها البيوت والشرفات المطلّة على البحر والغرابة.

عندما وصلنا إلى زقاقنا، كان الجوع قد بدأ يحفر فيّ، وفي ريما.

بدأت الأمطار تندي الأرضية القديمة للزقاق.

ـ بابا. م م م. هذه الرائحة الجميلة تجوّع الجائع وتكْسِرُ الشبعان؟

ـ أنت جوعانه؟!

ـ يبدو.

ـ هذه رائحة الأطعمة، ولكنها كذلك رائحة التربة عندما تلمسها الأمطار الأولى.

ـ كلّ هذا يذكّرني بعمّي جلول الصبائطي.

ـ كلّ شيء انقرض. كان في هذه الأرض حكّاؤون، أطباء شعبيون، خياطون، سرّاجون، مساكون، سبّاكون، وغيرهم... كلهم

اندثروا الواحد بعد الآخر مثل وُريقات النّوار اليابسة. انكسروا كأعواد الحطب وسط هذا الخراب الكلّي الذي حول مدينة مذهلة إلى دغل مخيف.

ربما كانت تتأمل، وتلمس كلّ شيء تصادفه، وتحاول أن ترسم صورته في ذهنها، لأنها كانت تعرف مسبقاً، أنه بعد سنة ربّما لن تجد شيئاً من هذا، سيندثر ويتحول في أحسن الأحوال إلى ذاكرة. ذاكرة معطوبة في كلّ تفاصيلها الحميمة.

لكن جوعها لم تستطع نسيانه.

انزلقنا باتجاه مطعم شعبي. طلبنا حريرة. أجابنا الطاهي الذي كان له شكل يشبه كلّ شيء إلّا الطاهي. قال:

ـ ماكانش.

قلنا له:

ـ طيب. نريد كسكساً شعبياً.

قال:

ـ ماكانش، إلّا الكسكس الملوكي Couscous Royal والبروشيت والدجاج والفْريث.

وجوه النّاس لم تكن سمحة على الإطلاق. ربما كانت تأكل ولكن بسعادة أقلّ.

قبل زمن ليس ببعيد، كنت أنا ومريم نأتي إلى هذا المكان. ندخل *مطعم الأقواس* الذي أُغلق بعد أن عاد صاحبه عمّي موحَا إلى قريته تحت الضغط. المطعم كان صغيراً بل هو عبارة عن زاوية مغلقة في شارع. الكسكس، كانت زوجته عمّتي زوليخا هي التي تحضره في البيت، ثم تأتي به إلى المطعم. تفتله ثم تُقْبِلُ وهي تحمله على رأسها في مَيْدونة. عندما يراها يبتسم:

ـ الله يبارك فيك يالالة زوليخا.

ثم يندفنان داخل المطعم.

كانت مريم لا تستطيع أن تكتم إعجابها بالطريقة التي كان يُحضَر بها الكسكسي. عندما نهمّ بالخروج، يسألها بابتسامته المعتادة:

ـ هاه يالالة مريم، كِيجَاكْ الطعام؟

ـ ما عندي ما نْقُول. يعطيكم الصحة. لازم نعرف من عمّتي زوليخا سِرّ هذا الكسكس.

ـ سرّ المهنة. إذا كشفت السرّ سنفقد كلّ زبائننا.

في اللحظة نفسها تخرج عمّتي زوليخا من وراء الحجاب الفاصل بين المطبخ والمطعم.

ـ ياخويَا شْكون قالّك. اللي ما يحبْشِ يْجي الله لا يْجيبه. مريم عزيزة علي.

ثم تسحبها إلى عمق المطبخ وتظل تقص عليها القصّة التي روتها لها أكثر من عشر مرّات عن جدّتها ومهارتها والتي تقاتَل الخيالة على طعامها. وفي كلّ مرّة تضيف لها بعض الشيء مما يعطي نكهة جديدة. بينما يضع عمّي موح رأسه بين يديه وهو يكتم ضحكته.

ـ خلاص الحكاية. اليوم تكمّل النّهار ثَمّ. راحْ تْسَمَّعها كلّ حكايات العائلة.

وعندما تنتهي، تخرج مريم، وبجانبها عمّتي زوليخا مزهوة.

في الطريق تقول مريم، وهي تتسلّى كعادتها في ضفر شعرها في شكل ضفيرتين.

ـ والله، النّاس اللي مثل عمّتي زوليخا، لا يطلبون شيئاً سوى أن نقدّرهم ونستمع إليهم، فقط. ويستأهلون كلّ خير.

ثم ننساب كالماء التّائه داخل تفاصيل المدينة القديمة.

ربما لم تُعجب كثيراً بالكسكس الملوكي، ولكنها كانت جائعة

ولم يكن أمامها أي أختيار، ولهذا تَحمَّلَتْ غلاظة الطباّخ المتّسخ واكفهرار وجوه النّاس الذين كانوا كأنّهم يحملون الدنيا على أنوفهم.

سألتني ريما عن بقية الرحلة. اقترحتُ عليها بالمناسبة أن نمرّ على عمّي رزقي القبائلي. لم أرَهُ منذ زمن بعيد، منذ أن اختلطت أشواق المدينة وكثرت أحزانها. لم تمانع. سرنا مباشرة، ثم دخلنا زقاقاً يكاد يكون مظلماً ثم بدأنا ننحدر، كأننا كنّا ندخل قبواً. كانت أسطح البنايات قريبة منّا تماماً، بل في أحيان كثيرة، كنّا على ارتفاع يتجاوزها، لنخرج بعدها في ساحة مليئة بالأطفال وهم يلعبون بكرة مصنوعة من مزق الكتّان ملفوفة على بعضها بعضاً. كانت ريما مندهشة من هذه البنايات. كيف تتداخل، ثم تنفصل. وتتساءل كيف يُعْرَف بيت هذا من ذاك.

عمّي رزقي عندما رآني، عرفني على الرغم من تنكّري. عانقني بحرارة.

ـ عرفتني؟ واش راكْ عمّي رزقي.

ـ كيفاش ما نعرفشْ لحبَابْ؟ رَاكْ تْشُوفْ. عايْشِينْ وصابرين. لكن البركة فِيكُم. استخفَظْ على روحك ياوليدي.

ـ واش تحب عمّي رزقي. نَفْعل ما نستطيع فعله. لا أعرف بالضّبط من يأتينا الخطر.

ـ ومع ذلك الحذر واجب.

ثم انتبه إلى ريما التي كانت تتأمله بعينين مدوّرتين، تستنشق رائحة الطيب التي كانت تملأ المحلّ الصغير. وضع يده على فمه. ثم قال.

ـ سبحان الله. فولة وانقسمَتْ على زوجْ. لا بدّ وأن تكون ريما اللّي حكيتِ لي عنها.

ـ هي بالذات والصفات.

- سبحان الله. تقول مريم، صغيَّرة.

ثم أدخلنا إلى عمق المحلّ. وقدم لنا كأسين من الشاي المنعنع. سألته:

- هل مِن جدِيد؟

- أعرف أنك تحب القديم، رَاحْ نْسَمْعَك شريط سجلته من أسطوانة قديمة كانت عندي وإذا عَجْبك خُذْهُ.

بدأ النحيب يعلو شيئاً فشيئاً ليتحوّل إلى خيط من نور يخترق ظلمة قاسية لا حدَّ لها. كان قوياً لدرجة أنّي أحسست بنفسي في غير المكان الذي كنت فيه ولكن داخل مدينة جميلة لا أحد فيها سواي، وأينما أنطلق صوته بأصدائه يعود إلي من جديد.

سألني:

- أنت سمعك رهيف. هاه، هل عرفتها؟

- امرأة بها شيء من امتدادات الفرقاني الصوتية، وعلو جسور قسنطينة.

- نعم. هَذَاكْ هوَ. مغنيّة قسنطينة الكبيرة. أليس فيتوسي.

- وِينْ كانتْ مخبيّة يا عمّي رزقي. كلّ هذا الصوت وهذا الجمال، يُدفن؟

- السياسة. خَلِّ البيِزْ بغطاه أحسنَ. القلب امتلأ دوداً. الصمت في مثل هذا الضجّيج أفضل، طحنونا بالخطابات يا وليدي. آليس، لم تعرف مدينة أخرى سوى مدينتها قسنطينة، ولم تعرف حنيناً ولا نشيداً إلّا الحنين الأندلسي الذي ينام في قلبها هادئاً كجمرة. خَلّ البيزْ بغطاه.

- والله يا عمّي رزقي أنت تؤكد لي كلّ ما عرفته لوحدي بحاسّتي. لا المدرسة ولا الشارع ولا حتى صمت النّاس الذين يعرفون الحقيقة ويفضلون دفنها. لقد بدأ تدمير هذه المدينة منذ

زمن بعيد. خوّفوا كلّ النّاس بخطاباتهم ونعيقهم، وأجبروا كلّ النّاس على مغادرة الأرض التي نبتوا فيها في أولى سفن الخيبة والموت. لقد جُمِّعتْ كلّ الأناشيد يا عمّي رزقي ووطئ عليها في دروب المدينة الضيّقة، التي لم يعد ضيقها الجميل يعني الشي الكثير للناس بعد أن تحولت إلى مجرّد معابر للبغال والحمير، أوالناس. كانت جدتي تأخذ المانيفال LA MANIVELLE بين يديها ثم تبدأ في تدويرها وتضع أسطوانة الرميتي أورنيت الوهرانية، وتنسحب إلى زاوية نصف مظلمة وتظلّ هناك تعيش هاجس الأغنيات بعمق. أصلاً لم تسأل يوماً عن جنسية المغنّي أو دينه. تعرف يا عمّي رزقي آلاف الكيلومترات من الأشرطة القديمة تنام في مخازن الإذاعة بحجج سخيفة. الخطابات! الخطابات الجاهزة يا عمّي رزقي هي التي قتلت كلّ شيء. دمّرت كلّ خصوصية لهذه البلاد. كلّ واحد يعطي لنفسه الحق ضدّ كلّ واحد، اختلط الحابل بالنابل. قالوا خَلَّطْها تَصْفَا. والله ماتَصْفاه يا عمّي رزقي. كلّ ما في هذه البلاد الآن، يقود نحو الخراب الحتمي والكلّي. قتلوا كلّ شيء. واللي بْقى راهم يكَمْلوا عليه اليوم لتصير بلادنا قفراً ورمالاً ميتة.

كانت ربما تتأمل وتسمع بانتباه شديد، وكنت أشعر بها تتألم بعمق. لم يكن من الضروري أن أسمّم يومها بهذه الأحاديث لكن الفجيعة كانت كبيرة. الله غالب. أمام الحريق لا نملك شيئاً آخر سوى المواجهة، حتى ولو حوّلتنا المواجهة إلى رماد.

تركنا عمّي رزقي وكلماته الأخيرة ما تزال ترن في رأسي كناقوس خطر وتنبيه.

- أحرز روحك ياوليدي. أولاد الحرام بزّاف.

عمّي رزقي معدن صافٍ مثله عمّي مزيان الباريشت. لم يغيرا المهنة رغم الإغراءات والتهديد. لا يمكن تصور القصبة القديمة بدونهما. عمّي رزقي، منذ أن وُجِد عمّي مزيان الباريست مذبوحاً داخل محلّه، صار لا يفتح دائماً، ولكنه يصرّ على الفتح، وينسحب

إلى عمق محلّه. لم يعد يجلس عند الباب مثلما كان يفعل قديماً. حتى الأغاني دفنها في الداخل. ولكنه يصرّ دائماً أن يظل داخل هذه المدينة القديمة ويفتح باب محلّه للزوّار القليلين.

فجأة واجَهَنا القصر القديم الذي حوّله القتلة مع المدرسة الوحيدة في الحي، إلى ملجأ للمتضررين من زلزال العاصمة. كانت البلديات في أيديهم. أحياناً أقول في لحظات اليأس، لا بدّ أن يكون الله متواطئاً معهم. لا يعقل ما يحدث بهذه الكثافة وهذا الخوف؟

ـ شفتِ هذا القصر.

ـ ما يزال واقفاً. لكنّه يتهاوى.

ـ هذا قصر الداي الذي كان من خلاله يطلّ على العاصمة. الزلزال الأخير أكل جهته اليمنى والجهة اليسرى مثلها مثل هذه المدينة ما تزال تقاوم الموت المؤكد. قالوا أنهم سيبنونه ولكنهم لم ينزعوا حتى الزبالة التي تراكمت بجانبه حتى صارت مثل الجبل. لم يجدوا مكاناً يأوي إليه المتضررون من الزلزال إلّا هذا المكان الذي عجز حتى عن حماية نفسه من كوارث الطبيعة. مع أنه البارحة فقط، كان دايات الجزائر وساستها، وريّاسها، وانكشاريتها يأتون إلى هذا المكان ليفصلوا بين منازعاتهم، في مدينة عشقوها. امتلكوها. فنفرتهم قبل أن ينفروها.

ـ ولكن يا بابا، الدايات والأتراك هم الذين حموا البلاد من الإسبان.

ـ صحيح، ولكن عندما أعجبتهم استعمروها.

ـ كانوا مسلمين ولم يكونوا كفّاراً، كما قال لنا المعلم.

ـ يا بنتي الاستعمار استعمار، فقد أرجعوا البلاد قروناً إلى الوراء ومنعوها من تدبير شؤونها. تقاتلوا على بحرها وبرّها، ليس حبّاً فيها ولكن حبّاً في مالها. فقد كانت بلاد الجزائر ممتلئة.

ـ لكن معلمنا يقول، أنهم نشروا الإسلام.

- ونشروا الأوبئة كذلك والقتل، وعلقوا خصومهم على الأخشاب، وبقروا بطونهم. جزءاً كبيراً من التأريخ الذي نقرأه كُتِبَ بمقاسات محدّدة. نحتاج إلى بعض الموضوعية لنفهم المأساة التي تأكل اليوم الأخضر واليابس.

شعرت بريما قد بدأت تتعب في نهاية النهار، فاقترحت عليها أن نصعد بواسطة التّليفريك نحو المرتفع الكبير المطلّ على المدينة القديمة والجديدة وبعدها نعود إلى البيت، وأكون أنا من جهتي قد نفذت مهمّة الدليل على أحسن وجه. سألتني.

- هل المكان آمن. مَا كَايَنْ وَالو.

- لا يوجد مكان آمن في هذا البلد ولكن أحسن من الأماكن التي يعرفنا النّاس فيها.

ثم صعدنا. كانت الرحلة قصيرة ولكنها جميلة. كلما تسلّق التليفريك إلى القمّة، بدت الغابة المختبئة بين البنايات كأفرشة خضراء. تظهر الأسقف القرميدية الآجورية، والخضراء والسوداء القديمة، وساحات بيوتات باب الوادي، والقصبة، وحركة النساء داخل البيوت، وحركات النّاس والدواب التي تشق طرقها بصعوبة داخل الدروب الضيّقة وهي تحاول أن تنقّي الأرض الزبالة. نرى البحر وهو يظهر شيئاً فشيئاً من وراء البنايات العالية التي نبتت هنا وهناك بشكل ناشِز. تجولنا قليلاً، وبِصَمْت كبير داخل ممرات الأقواس في كنيسة *السيدة الأفريقية* التي تحتضن كلّ جمال المدينة الذي كان ينكسر عند أقدام البحر مثل الأحجار الكريمة المبعثرة في ساحة ضيقة. سألتني عن عدد من مسيحيي الجزائر. عن المكان. عن تاريخه. لماذا لا نرى مسيحيين في الطريق، كالمسلمين مثلاً. سكان حي اليهود الذي تجولنا فيه ولم يبق منه إلّا اسمه، هل خرجوا كلهم.

- يا ريما. هذا تاريخ منسي. اللاتسامح والخطابات الوطنية المنفوخة هي التي سحقت كلّ شيء. لا يمكن أن يعيش إنسان في

وطن يُشتم فيه يوميا وربّما يقتل. الجزائر متعددة تاريخياً وأرادوها أن تكون كما توهّموا. وها هي النتيجة الآن. باربارية وفاشية لا تؤمن بشيء آخر سوى بطغيانها.

ثم اتجهنا نحو مقام الشهيد، هذه الكتلة الأسمنتية التي أكلت ملايين الدولارات واختبأ وراءها السراقون والقتلة لتحويل كلّ خيرات البلاد نحو المدن الغربية البعيدة. هذا الشهيد الذي ركبوا ظهره، لو يحدث أن يستيقظ ذات يوم، سيلعن اللحظة التي تحوّل فيها إلى اسم في شارع منسي أو كلمة داخل كتاب لا يُفتح أو الى رقم في بنك. كان يهمني كثيراً، أن ترى ريما نادي الرسامين القديم الواقع بالحديقة المطلة على البحر. كان عبارة عن بنايات رثة نصفها منهار، لا حياة فيه، مع أنه إلى وقت قريب، كان ملتقى الفنانيين والكثير من اللوحات والقطع الموسيقية خرجت منه.

قلت لريما، وهي نتأمل الحجارة المفحّمة التي يستعملها عادة السكارى الذين يلتجأون إلي هذا المكان ليلاً.

- لقد برمجوا بناء متحف وطني للفنّانين قريب من هنا.

- وِينْ رَاه هذا المتحف؟

- لا شيء. يُبرمجون ويأكلون أموال البرنامج. عاجزون عن كلّ شيء - شاطرون في النهبّ وحده، لا يحتاجون إلى بنايات. هذه الحيطان وهذا المقهى المفتوح على الغابة والبحر، مراسِم الفنانيين، يكفي أن تُرمّم قليلاً لتصير متحفاً ورمزاً للفنانين، ومكاناً يفد إليه السوّاح. هكذا تبدأ الأشياء صغيرة ثمّ تكبر. ولكن فاقد الشيء لا يعطيه. هكذا هم دائماً، لم يتغيروا أبداً. وهذا هو عقلهم وثقافتهم. يزمّرون في يوم ويغيّطون ويعدون، وفي الغد، ينسون كلّ شيء ويعودون إلى وظائفهم الأساسية. هذه البلاد يا ريما. قتلتها الرداءة C'est la dictature de la mediocrité. وليس شيئاً آخر.

التفت نحو البحر الذي بدأت زرقته تميل نحو السواد من كثرة

ظلال الغيوم المتكسرة على سطحه. تنفست بعمق. شعرت بملوحة ما على رأس لسانها وبرطوبة تسد حلقها قالت.

ـ بابا. أشعر بتعب. ندخل إلى البيت.

عدنا وبدل أن نكون فرحين بعيد ميلادها والجولة الاستثنائية المسروقة من الخوف، كلّ واحد كان مشدوهاً داخل فراغه الخاص.

لم تقل ولا كلمة، طوال الرحلة نحو البيت.

كان قلبها في ذاكرتها.

وكانت ذاكرتها في قلبها.

وكان القلب والذاكرة ينشبان الأظافر في الفراغ والفجيعة والصمت.

14

6 H - 39 MN

هو الوقت يبدأ في مزاحمة هذه الذاكرة بقوة.

مزاجي معكّر، لكن الصباح يأتي. بهدوء مستميت ولكنه يأتي، يتسرب عبر النافذة بعد أن بدأت غشاوة الظلام الشتوي تنسحب. ليكشف عن بحر بدأ يتثاءب لاستقبال عاصف لا أحد يعرف تفاصيله. كانت جدتي قبل أن تموت منذ عشرين سنة تقول.

ـ آه ياوليدي. أنا كبرت. خطوة في الأرض وأخرى في القبر. إذا بتُّ نقول ما نَصْبَح. وإذا اصبحْت نقول ما نبات.

وذات ليلة باتتْ ولم تصبح.

وعلى الرغم من أن عمري لم يكسر بعد سقف الأربعين سنة، صرت أفكّر مثلها. رِجْلٌ في الغموض وأخرى داخل القبر. إذا بتُّ نقول ما نْبَاتْ وإذا أصبحتْ نقولْ ما نَصْبَحْ.

لقد تقلّص الزمن وانكسر وصار قصيراً أمام الحياة، التي بعد أن كانت حلماً لم تعد إلّا مشروع موت مؤجل ينتظرنا في كلّ زاوية داخل هذه المدينة. أحياناً تنتابني عبثية عجيبة. أتساءل بسخرية وأنا آخذ كلّ احتياطاتي من القتلة: يمكن أن تُكسر مثلاً وبكل بساطة رقبتي وأنا أنزل بهدوء أدراج البناية؟ أو قد تدوسني سيارة وأنا

أقطع الطريق، وأغيّر الأرصفة؟ قد أُفاجأُ بسكتة قلبية تافهة غير محسوبة على الإطلاق؟ وسعيد لكون لا أحد يعرفني داخل المدينة، ولا أحد يناديني باسمي من بعيد، لا أحد يقول لي صباح الخير ولا أقولها لأحد. سعيد أن أمر منسياً داخل مدينة حرثتها طولاً وعرضاً مدّة العشرين سنة الأخيرة.لابدّ أن يكون شيء من العبث قد سكننا.

البحر.

لا شيء سوى البحر الذي يفتح عينيه بتثاقل، يرفض أن تُسحب منه تفاصيل نومه. أو ربّما كان مثلي، يرفض أحياناً أن ينام. ما جدوى النوم إذا كان ملجأ للخوف والغفلة والموت والكوابيس. مع ذلك يظل اللون الوحيد الذي يربطنا بالحياة داخل هذا الرماد.

الأوراق مبعثرة أمامي. لقد صرت عاجزاً على لمس كلّ هذه التفاصيل وهذه القصاصات التي مرّضتني وزادت حساسيتي. صارت كالموت. حفرة مظلمة بدون قاع. لا أنا تخلّصتُ منها وعِفْتُها نهائياً، ولا هي تخلّصت مني، فتحترق وتتبعثر في الفراغات. لا هي عاشت بدوني، ولا أنا استطعت أن أسلّم فيها. أحياناً أتساءل عن قيمة هذا الخراب وهذا السواد وهذه الحروف الضائعة هنا وهناك: يا تُرى، هل تملك هذه الأبجدية القاصرة كلّ هذه القيمة الحياتية لتدفعني نحو ترك كلّ شيء والاهتمام بها بشكل مطلق؟ آخذها أينما ذهبت داخل هذه الرحلة القاسية، رحلة اللايقين. من تكون؟ مجرّد كلمات مرصوصة وصور وورق أصفر، بعضه أكلت أطرافه الفئران ورائحة الورق المليئة بالحشرات التي تؤذي العين والأنف والحنجرة محدثة حساسية لا تطاق.

لكنها أوراقي!؟ طوال الثلاثين سنة الماضية لم أدّخر شيئاً سوى الكلمات والورق الذي تحوّل إلى فجوات وشقوق داخل الذاكرة.

أشياء كتبتها وأخرى كتبتني. قد أحتاجُ إلى سنة بكاملها لإعادة تصفيفها وتنظيمها وقراءتها ومعرفة تفاصيلها. تنشب أظافرها فيّ مثل الخائف من الموت وهو يواجه الرعشة الأخيرة. لا

أخاف من الموت. لا نخاف منه عندما يصير حتمية يومية. لكن مع ذلك أشعر كأن الحياة في هذا المكان تتضاءل بسرعة عجيبة. أينما تعشّش الذاكرة، تنسحب الحياة. ماذا أفعل إذن؟ لماذا لا تكون هذه الحروف المقتولة هي وسيلتي المثالية لتجاوز حالة انتحار حتمية وأحيانا لازمة. البحر الذي يتسرّب من شقوق النافذة مثل أشعة الشمس الصباحية، وحده يمنعني الآن من الإقدام على هذه المغامرة. أحياناً أقول إن ارتباطي بريما، يمنعني كذلك من التفكير في هذا الموضوع. هل ستغفر لي فعلاً انتحاري هذا؟ ثم أقنع نفسي وأتجاوزها وأقول. ليكن!؟ ستكبر الطفلة وتعذرني. انتحاري نفسه، قد يزيل من طريقها هذه العقبة لتندفع نحو السفر باتجاه أمّها وأخيها. من حقها أن تحلم بحياة، غير هذه الحياة الكئيبة التي يفرضها القتلة الكبار على الأطفال. حياة رسمتها كثيراً في كراساتها المدرسية بألوان زاهية، لتتركها فجأة وتتّجه نحو كرّاسة ضخمة وتبدأ في تدوين الموت اليومي والقساوات المتوالية واغتيالات الأصدقاء الذين يُحصدون يومياً برصاص القتلة. ريما مثل الريشة. أخاف أن تنكسر مبكراً، إذا لم يكن ذلك قد حدث. فكرت أن أُقنعها بالعدول عن كتابات المَوت هذه، وهذه المذكرات الرمادية لكن صديقتي إيماش، التي تحب ريما كثيراً، نصحتني بغير ذلك. قالت:

- ريما صامتة كثيراً والكتابة وسيلتها الوحيدة والشاقّة للحياة. بالعكس، يجب دفعها نحو الكتابة والحياة معاً وتسجيل كلّ ما تعيشه وتراه وأن لا تقتصر على الموت. فهذا قد يشغلها ويدفع بها إلى إفضاءات قد تريحها نفسياً.

ريما صارت مثلي. تشبهني حتى في حماقاتي. لا تحمل معها يومياً إلّا كراستها ورغبتها في تدوين كلّ تفاصيل السواد والموت.

أوف!! ورق!؟ ورق!؟ ماذا بقي من هذه الأكوام؟ هل تستحق أن تُقرأ كلها؟ ما الفائدة سوى التدمير النهائي واليأس. وهل أنا بحاجة إلى اليأس لأموت مبكراً؟ حتى لو أردت فعل ذلك، وقرأتها كاملة، لن

أستطيع إنجاز هذه المهمّة اليائسة إلّا بعد سنة على الأقلّ. وهل سأعيش سنة؟

شارفت الدنيا على الصباح، ولا أدري سبب هذه الرغبة المجنونة للقراءة، للعودة إلى هذه الحفرة المظلمة التي اسمها الذاكرة. أنا في حاجة ماسة إلى بعض الراحة قبل الموت في المدينة.

وأنا أطوي الوريقات وأجمعها، لتركها وبداية الاستعداد للخروج، قفز غلاف أزرق بلون البحر. لا بدّ أن يكون لمريم، هي الوحيدة التي تصرّ دائماً على الكتابة على الرسائل والأغلفة الزرقاء. فتحته. وهل يعقل أن تصير ذاكرتي بهذا الثقل وهذا البياض. فتحتها. رسالة مريم الأخيرة. حتى الآن، تحدثنا كثيراً في التلفون ولكن لم أردّ عليها. لا أريد أن أكتب لها رسائل عادية مثل تلك التي نبعثها من باب الواجب. رسائلي دائماً هي حالات من الحنين واليأس أكثر منها تحاليل وأخبار. رسائلي هي أنا. ولهذا فالنزول إلى المدينة هو واحد من الفرص التي أنجز فيها كلّ تفاصيلي المعلقة. فقد برمجت أن أنزوي في قاعة الأساتذة وأكتب لها بلذة. إننا حتى ونحن في أقصى درجات الخوف، نكتب. ولا شيء سوى الكتابة. وحدها العلامات تبقى، وما سواها يذهب مع الريح. حتى فاطمة لا أريد أن أشغلها بتفاصيلي وهمومي. فهي غارقة في مأساتها اليومية التي تشبه الطاحونة بين الإذاعة، والسينما، والمجلات العربية التي تراسلها، والجريدة الأسبوعية الكئيبة التي تتعاون معها. تنكّت أحيانا بمرارة:

ـ شفت؟ من يشبهني؟ سبع صنايَعْ والرزق ضايع. وفوق هذا أشتغل في أوسخ جريدة وطنية لكن وساختها لم تمنعها من سحب «3» ألاف نسخة في كلّ إصدار. لقد حشوا أذهان الناس بكلّ القذارات. ربّوهم ليكبروا ضدّ أنفسهم.

ـ لماذا تشتغلين فيها وأنت تعرفين أنها رديئة؟

ـ واشْ تحبني ندير. لم أخسر شيئاً مهماً معهم. أوصلُ أفكاري

كما أريد. اخترقهم من داخلهم، أكسب قراءهم ومناصريهم. أنا أنجز صفحة السينما وهي مقروءة جدّاً.

ـ جيد. ولكن هل تعتقدين أن هذه الصفحة تقرأ حقيقة؟ أشكّ. فهي موضوعة داخل ركامات وصفحات كلها معادية للسينما أصلاً: حجابك وجسدك. أقوال الشيخ محمّد الغزالي في المرأة. محاضرة القرضاوي. تاريخ الجوسسة. الاختيارات الدينية في الجزائر. المثقفون المستغربون. عذاب القبر. المشكلات الجنسية وحلولها الدينية... الفنّانات المتحجّبات. أسرار الكواليس... كيف يظهر ما تكتبين داخل هذه المزبلة من العناوين؟

ـ والله والو. هؤلاء تجّار. عرفوا من أين تؤكل الكتف. لعبوا على الدين والمراهقين ولهذا لا أحد يستطيع أن ينكر أنها أكبر جريدة وطنية والوحيدة التي تصدر بالألوان.

ـ هذه الجريدة تصنع قنابل موقوتة في طلاب الثانويات خصوصاً. وهي أخطر من أي خطاب ديني مباشر. تلعب لعبة سياسية من ورائها مافيات وبارونات.

ـ والله رَاكْ تْكبّرْها. يسمحون لي على الأقلّ بالتنفّس داخل هذا البؤس الذي نعيشه يومياً. أسافر إلى الخارج. مصر. لبنان. المغرب. تونس. باريس. سويسرا...أجري حوارات مع فنانين وفنانات خصوصاً. كاتبات. سينمائيات. مسرحيات. أقول ما أريد. لا ينزعون كلمة واحدة مما أكتب. لم أعد أمثّل، وبدأت أنسى السينما والكاميرا والحياة تزداد كلّ يوم قساوة. راتبي لا يُعيّش حتى ابنتي التي صارت احتياجاتها مرهقة. لا أريد أن أنتحر ولا أريد أن أغادر هذا البلد. أُحكّم حساسيتي الخاصّة في التعامل مع الأشياء وبعدها نَزْدَمْ بقوّة.

ـ عندك حقّ. وأنتِ تعرفين أحسن منّي أنهم لا يتعاونون مع شخص، خصوصاً امرأة متفتحة، إلّا إذا كان ذلك يخدمهم طولاً وعرضاً.

- أعرف. ولكن واش رَاحْ يَرْبْحوا مني؟

- وَالو. لا شيء. سوى اسمك. وإعطاء وجه تعدّدي لأحاديثهم الفكرية والمصلحية. أنا متأكد أنهم لا يفعلون ذلك حبّاً فيك وأنت تعرفين انتهازيتهم. لبسوا الخطاب الديني وحَجّبوا نساءهم، بعدما عاثوا فساداً في البلاد.

- أوف. حكاية الحب. حتى أنا لا أحبّهم، وأعرفهم جيداً. لنقل انهم بحاجة إليّ وأنا بحاجة إليهم. مصلحة متبادلة، حتى إشعار آخر.

- هكذا أفضل .Comme ça c'est plus clair

لدى فاطمة صفاء داخلي لا تشبه فيه شخصاً آخر على الإطلاق، وعفوية تزداد، كلما تعمّق الحوار معها أكثر، لكن حماقاتها لا تحصى بسبب مأساتها اليومية. فقد تزوجت مبكراً، وتركت زوجها عندما وصل الخلاف إلى عمقه. تقول دائماً:

- أنا مَقْدَرتشِ نَرْفَدْ رُوحي، يْجيني هوَ بَاشْ نَرْفَدُه على ظهري! لا يَاخُويا. يَزِّي. يَرحَمْ والديكْ. غْيَيْتْ. خَلاصْ هْنا بركاتْ.

أنجبت منه بنتاً بدأت تكبر وسط هذا الخوف بسرعة. صارت تخاف عليها ولهذا فهي تلحُ وتتعب من أجْل أن لا تحتاج شيئاً. لكن المدْرَسة كارثة.

- بدأت تْصلّي. ومن حين لآخر تْسَوَّلني على الحجاب والسَتْرة في العمل في بلد الرجال فيه بَطّالون. وحياتَك. أحياناً أخاف منها.

موزعة بين انشغالات الأعمال الكثيرة، وأمٍّ عمياء، وأختين مطلّقتين، وثالثة في طريقها إلى الزواج. تقول: كلّ ما ربحته أمّي من استشهاد والدي، هو البيت الذي نقيم فيه، وكلّ ما ربحته أنا من وزارة الثقافة المحترمة، هو هذا البيت الذي أنتَ فيه.

- يا الله يا سِيّدي. خير مِن غيرنا على الأقلّ. الحدّ الأدنى أفضل من لا شيء.

هي قساوات الحياة، والخوف، بل والذعر من قادم لا نعرف ملامحه.

كانت الرسالة الزرقاء، رسالة مريم، ما تزال ترتعش في يدي. كنت أشعر بتعب خاص، وبرغبة كبيرة في قراءتها من جديد، واستغلال هذا النزول نحو المدينة، للردّ عليها. مريم تكتب رسائل من قلبها كما تقول وتريد رسائل من القلب وإلاّ لا داعي. في هذه الصفة نتقاطع كثيراً. تأملتها، ولم أمنع نفسي مرّة أخرى من التساؤل، يا ترى، أمّا تزال مريم قادرة على كتابة الشعر والكلمات الجميلة، كما كانت تفعل؟ أما زالت مثل ريما لا تعرف إلاّ رسم الأميرات وعرائس البحر والبحث عن أزهى الألوان وأكثرها إشراقاً؟

ها هي ذي الرسالة التي قرأتها بسرعة وسط زحمة الموت والأحداث السريعة، تقفز في وجهي من جديد بخطوطها المنكسرة والممددة والدائرية وتفرض نفسها عليّ وكأني أتلقّاها الآن من بين الوريقات والقصاصات القديمة والوثائق التي صارت موحشة مثل هذا المكان.

جنون نادر أن نجد أنفسنا أمام حروف تنكسر نحو العمق، مخترقة بياضات الورقة بحدة، وأن نتساءل، يا ترى هل نملك قدرة إضافية لإنجاز قراءة هذه التفاصيل؟

فتحتها عن آخرها. بها رائحة مريم.

شوقي الذي فيّ.

نشوتي البعيدة.

حبيبي.

منذ زمن بعيد لم نتراسل. وصار تواصلنا شبه مستحيل. أنت اخترت أن تنتحر بطريقتك، وأنا اخترت انتحاراً موازياً لا أريد أن أندم عليه مطلقاً. زيارتك الأخيرة لباريس تركت في حلقي مرارة،

Un goût amer d'inachevé. ولكن قبلت ذلك على مضض، لأن الخيارات صارت ضئيلة ومحدودة جداً. وماذا كان بإمكاني أن أفعل وأنت تستعد للدخول نحو وطن لا أدري إذا كان معنا أو ضدنا. فنحن نموت مبكراً، ولا يمكننا أن نسبب له إزدحاماً كبيراً بوجودنا المؤقت. نحلم دائماً أن نظل صغاراً ولا نؤذي في أسوأ الأحوال إلاّ أنفسنا، لأننا عندما نتعدّى عتبة الطفولة نموت.

أيها العزيز على القلب والذاكرة.

أحسدك على لغتك المجنونة. على الصحو الذي تكتب به رسائلك. فأنا منذ زمن بعيد لم أعد صاحية، بين عيني أنت وريما الصغيرة التي التصقت بك كأنفاسك ودمك. افتقدكما كثيراً داخل هذا الفراغ الواسع والجميل الذي اسمه باريس. أحبك، ولا أدري لماذا عليك أن تتحمّل حماقاتي الكثيرة. أنا أعرف أخطائي جدّاً. أحبك، وعندما نحبّ نصير أنانيين جدّاً. إنك تقتحم عليّ بقوة كبيرة، كلّ نصوصي اليائسة التي أكتبها.

كنت تقول لي دائماً عندما نشرب كثيراً وتتألق كعادتك: حمّلتِني مسؤولية الخراب. ها أنذا أحملك مسؤولية الحياة.

ها أنذي اليوم، أقول لك نفس الكلمات القاسية، إنني أحملك نفس مسؤولية الخراب الكلّي. فأنت تدفعني بقوة صمتك إلى ملامسة النار كالكهنة وسط أدخنتها المقدسة، وقطف تيجانها ووضع شعلاتها داخل كفّي أو قلبي.

إني في عزلة قاسية ومتعبة. لقد غادرت بيت الصديق الذي أعاره لنا، وأعيش الآن في ستوديو صغير على أطراف باريس، وأشتغل في الجامعة كأستاذة زائرة لمدّة ثلاثة أشهر وبعدها يفرجها الله. الحياة هنا صعبة ولكنها ليست مستحيلة. ياسين يكبر بسرعة ومعه تكبر أسئلته ومخاوفه. هو كذلك يحن إلى البحر، وإلى بعض أصدقائه وحماسهم إلى [illegible] الطويلة. أحياناً عندما تقهرني الوحدة، أقرأ كتاباتك وكتبك، أتوسّدها وأترك نفسي أنساب داخل

عذوبة البلاغة. أشعر بحاجة كبيرة إلى فتح كلّ الأبواب الموصدة في داخلي. والنوافذ والشوارع الهاربة منّي إليّ.

أعطني المفاتيح ودعني أمضي نحو حتفي. فأنا متعبة وأريد أن أنام قليلاً. سأخرج، ولا داعي لأن أغلق الباب ورائي. قيامتك لا تملك باباً. مشرعة داخل فراغات الخوف والجنون. عصياني الكبير أن أحبك. وعصيانك الكبير أن لا تسمع إلاّ إلى انتحاراتك. من حقّي أن أحبك للحياة والدنيا. ومن حقّك أن تكون مسكوناً بشيء شفاف اسمه اليأس. ولكنّي متعبة ولهذا أقول لك. أعطني المفاتيح ودعني أخرج. هذه النار التي أشربها يومياً، صارت تؤذيني كثيراً ولم أعد أملك طاقة ضافية لتحمّلها.

أُعذرني. أنا أهذي كثيراً ولا أملك غير ذلك في الوقت الحالي.

اكتب. اكتب لي أي شيء تراه جميلاً. أريد أحاسيسك في الكتابة وليس واجباتك. أعرف أنك تكره فعل الأشياء من باب الواجب. ألم تقل لي ذات مرة، أن الحب عندما يصير واجباً، من الأحسن التخلّي عنه نهائياً؟ أكتب. أوَ ليست الكتابة مغامرة داخل الحقيقة والوهم وضد كلّ المستحيلات؟ ها أنذي أركب معك بعض مستحيلات كلما شعرت بالحاجة الماسة إلى وجودك بجانبي داخل هذا الخوف.

في الماضي القريب، كنّا نتحدّث بشوق وحزن كبيرين عن أصدقائنا الفلسطينيين الذي سُرق منهم وطنهم وحقهم في الحياة. لقد جاؤوهم بربع وطن. وهو وطن على الأقلّ. كنّا نتحدّث عن أصدقائنا العراقيين الذين تشردوا قبل الحرب ودُمّرت أشواقهم وأحلامهم، ها هم اليوم، من مات قهراً مات، من رجع إلى وطنه بعد الإعفاءات الوهمية، رجع، لينتحر هناك بعد أن نخرته سنوات المنفى. كنّا نتحدّث عن التشيليين، والمغاربة، واليمنيين والكوبيين وغيرهم، لكن اليوم، يبدو أن كلّ الجبهات صمتت. ونسينا الجميع في زحمة الأحداث المتسارعة. عندما جاء دورنا في المأساة، وجدنا أنفسنا وحيدين، معزولين. مقتولين في دواخلنا. كلما اشتقت

إليك، ولم أستطع مقاومة شوقي. أنزل إلى مقهى Le Départ الذي تقاسمنا فيه بعض الضحكات المسروقة وبعض النبيذ الأبيض. أحياناً يكون فارغاً، وفي أحيان أخرى يصير متجشّئاً بالبشر. بشرنا نحن تحديداً. أراهم مكدودين منكسرين على طاولات قديمة مثل أواني رخامية عتيقة. صحفيون. سينمائيون. كتّاب. مسرحيون. أساتذة الجامعات. بسطاء... يتحدثون عن المشاريع المكسورة، عن وضعياتهم الإدارية، عن البطالة، عن العنصرية، محوّطون بالجرائد الوطنية ذات العناوين العريضة السوداء وأخبار الموت اليومية. يعيشون بتوقيت الوطن. يحزنون. يحتسون البيرة الرديئة والرخيصة. يدخنون السجائر الوطنية. يتناوشون، ثم ينسحبون باتجاه ما، هم أنفسهم لا يعرفون وجهتهم أحياناً. أبحث عنك. أبحث عن شعرك وقامتك التي ترفض أن تنحني أو تكسر. فلا أجدك.

أشتاق إليك. أعشقك وأشتهيك. غيابك يؤذيني. لا شيء فيّ سواك. سوى لغتك ودهشتك الطفولية. وها أنت تنسحب مخلفاً وراءك إنهاكات وجروحات من الصعب ترتيبها في سن الأربعين. سن الخوف وبداية الانحدار نحو النهايات الفجائعية. لقد انسحب كلّ الذين كنّا نحبّهم، وانطفأت كلّ العيون الطيّبة. لقد بدأت رحلة اليأس الكبير بكل مخاوفها.

أيها العزيز على القلب والذاكرة.

هل تصدق أني من فرط خوفي عليك، لم أعد أُتقِن الكتابة إليك، ربّما لأنّي لم أعد أجدُ ما أقوله لك سوى أنني أذكرك كثيراً، كثيراً لدرجة أنّني أحياناً أجد نفسي أعيش بتوقيت كلّ هواجسك اليومية الصغيرة. من يوصل ريما يا ترى إلى المدرسة؟ من يأتي بها من هناك. أمّا تزال تتدرّب على الرقص والموسيقى كما كانت تفعل؟ هل تجد وقتاً للتفكير في هذه الأشياء. من يقوم بإحضار حاجاتك في مدافن البحر؟ من يُحضِر لك بريدك؟ بمن تلتقي؟ كيف تعيش وتنام وتتلقى أخبار الموت الأحمق. وجودك في الوطن يشعرني بعقدة

السعادة، وربّما عقدة العيش بهناء بعيداً عن الخطر، بينما اخترت أنت هذه الحياة المجنونة. لماذا أعود في كلّ مرّة وأطرح عليك هذه الأسئلة الساذجة التي استهلكناها بدون أن نصل إلى نتيجة. سبق أن أجبت على كلّ ذلك في مقال قديم كتَبْته عن زميلة شاعرة انتحرت في ظروف غامضة، قرأته مرّة ثانية بالمصادفة وأنا أفتش عن كلماتك هنا، وهناك، وكأنك تكتبه اليوم لكن دون أن تعي ما تقوله من فرط عنادك المجنون وتماديك في استدراج القدر إلى حماقة لن أغفرها لك في نهاية الأمر: ربما كان ذلك وهماً. ربما كانت اللغة ذاتها وهماً، ولكن من قال أن بقية القيم التي نتوازن من خلالها ونعطي بها لحياتنا معنى من المعاني، ليست وهماً بدورها؟ ما معنى الحب؟ الكراهية؟ النضال؟ الخلود؟ المقاومة؟ الكتابة؟ العدالة؟ الشيء المؤكد في مغامرة الإنسان هو الموت.

وها نحن نموت داخل العزلة والكلمات. أيها المجنون، أريد لك مغامرة أجمل وأريد لأطفالنا قدراً غير هذا. سمعت أنك ستُعيّن وزيرا للثقافة في الحكومة القادمة وسمعت كذلك أنك رفضت وكنت على يقين أنك ستفعل ذلك وأنك لم تحدثني في الموضوع لأنه بالنسبة لك محسوم. أنت والإدارة اثنان. كما كنت تقول دائماً. قد يضغطون عليك ويصورون قبولك نضالاً وطنياً. لا ترتكب حماقة كهذه. ليذهب جميع سياسيي الجزائر إلى الجحيم، وليبحثوا لهم عن آخرين غيرك يُهدونهم وجاهة هذا الموت المجّاني. من كلّ قلبي أتمنّى أن ترفض هذا القدر الذين يريدون زجّك فيه. أنت أكبر، ولا أريد لبراءتك الطفولية الكبيرة أن تقهر وتختطف وتختصر في ربطة عنق وبدلة رسمية (أنا في الحقيقة لا أملك إلّا أن أضحك عندما أسمع مثل هذه الأخبار المضخمة أكثر من حقيقتها. اقتُرحَ عليّ ذلك من طرف شخص كبير. أكنُّ له احتراماً كبيراً، لأنه رغم تسيُّسه، فشخصية المثقف ظلّت طاغية وأساسية، وظلّت علاقته بالانتاج والكتابة كبيرة، ورفضت، أولاً لم أكن مؤهلاً للمنصب. أنا فاشل في إدارة نفسي وشؤوني الصغيرة، فكيف أفلح في إدارة مؤسسة

كالوزارة، هي أكبر مني. ثم إن طموحي الكبير أن أظلّ عاشقاً حرّاً، أكتب الكتب، وأسافر وأنزل للبحر كلما رغبتُ. المسألة إذن منذ البداية كانت محسومة ولا أدري كيف نزلت إلى الصحافة؟) *لك وجاهة التاريخ والأدب وكرسي شاغر في قلبي.*

أيها الغالي.

ليس هذا ما أردت كتابته إليك، ولكننا، نجلس أحياناً لنكتب شيئاً فنكتب غيره دائماً. إنها حماقة الكتابة. أمنيتي الكبيرة أن أقرأك دائماً وقريباً. هاه! تذكرت. صديقك البكري، التقيته في باريس. رجل طيب جداً ومجنون مثلك ولكن تنقصه بعض النباهة. الأحداث والخوف والحذر الزائد، ضيّعوا له بعض ردود فعله التي كنّا نعرفها فيه. توقّعت أن أراه قبل سفره، ولكنه سافر بدون أن يخبرني. كنت أريد أن أرسل معه بعض الأشياء لك ولربما، ولكن يبدو أنه نسيني ثم أنه مهبول بعض الشيء ويصطدم وهو يمشي بكل شيء حوله بما في ذلك السيارات وأعمدة الكهرباء، فكيف أحمّله برسالة مثلاً، مثقلة بشوقي إليه (ضحكت. ضحكت كثيراً مثل المجنون. فالصورة مطابقة للبكري. الأمير الضائع Le prince maladroit وهو يدحص الناس ويعتذر في كلّ خطوة يخطوها. وعندما يريد تفادي هذا الحرج، يفضل أن يجلس في أقرب مقهى حتى تقلّ حركة المارة، ولكنه بمجرّد جلوسه، يُسقِط، بحركة لا إرادية كلّ ما على الطاولة. فيحمّر ويعتذر. مسكين البكري. شخصية ضرورية لهذه المدينة المقتولة).

حبيبي، قلّل من خطايا النّبيذ والويسكي قدر الإمكان ولكن أكتب لي دائماً وأنت سكران فتطرّف مزاج حبرك في مثل هذه الحالات يغريني بالكتابة والإنخطاف.

أتساءل مثلك داخل هذه العزلة القاسية. سوى أن أصدقاءنا ما يزالون يموتون هناك بالرصاص والغفلة، ويقتلهم هنا، المنفى وقساوته. لم نتهيّأ لمواجهة هذه الحالة القاتلة. هذه الليلة لم أنم

مطلقاً. لا أدري لماذا، ربّما لأنّي انتظرت تليفونك الذي لم يأتِ على غير عادته على الرغم من وعدك.

الشتاء هذه السنة هجم في وقت مبكر جداً في هذه المدينة التي آلفها أحياناً ولكن غيابك يجعلها مستحيلة.

وأنا أكتب. أسمع الآن نقرات الأمطار على الزجاج الخلفي المطلّ على شارع صغير في المدينة. شارع بدون اسم ولا ذاكرة. لا يعبره النّاس كثيراً ولا السيارات، وهو بذلك يوفر متعة الصمت والعزلة. البيت دافئ، لكن برودة ما تملأني. هل هي الوحدة القاسية، وحدة العاشق الذي تعوّد على عينيك وقلبك وسماحتك، وحدة التوحيدي كما كنت تقول، الذي نفره الأصدقاء والأقرباء الصغار والكبار. تسألني ماذا أفعل الآن؟ لا شيء. أو على الأقلّ لا شيء يستحق الذكر. أقرأ بعض الكتب في غيابك أملاً في ملءِ هذا الخواء الذي يقهرني دائماً. ومن قال أن الخواء سهل. إنه الفترة الوحيدة التي نسمع فيها تكسر كلّ الأشياء الثمينة في دواخلنا. أحياناً أقفز من نومي كالمذعورة أبحث عنك. أينك؟ أين تختبئ الآن؟ قبل قليل كنتَ هاهنا في نفس الفراش. ثم أهدئ عصفور قلبي. أصمت وأنا أتأمل سقف هذا البيت الصغير. أستحضرك بكاملك. لا أستطيع تحمّل كلّ ذلك لوحدي.

تصور! كلما سمعت خبراً يأتي من وراء البحر، كلما رنّ التلفون، أتخيّل أبشع الصور، مع ذلك أظلّ أرفض هذا المصير وأخاف عليك. لم نُصنع لهذا القدر. أنت وحيد الآن كبقية الأصدقاء هناك. في عالم يشتهي أن يكون على غير ما هو عليه، يريد أن يتغيّر، ولكن هل سيسعفه القتلة والذين يقفون عند العتبات، ينتظرون الفرصة المناسبة لفتح قلوبنا الممتلئة بالنور، لملئها بالظلّمة والقساوة. أرفض معك هذا القدر. فهو ليس لنا.

حبيبي.

ماذا تفعل الآن. هل لي أن أطرح هذا السؤال الكسول؟ كيف

تعيش هذه القساوة؟ كيف تخرج؟ كيف تدخل؟ كيف هو طعم الخوف في حلقك؟ بماذا تشعر وأنت تغادر البيت صباحاً واضعاً يدك على قلبك أو في جيبك، موهماً كلّ من يراك بأنك مسلّح. كيف حالك وأنت تواجه الموت كلما نزلتَ إلى المدينة؟ أنا بدأت أنسى هذه الحالات التي كانت مشتركة بيننا، نوع من التبلّد يثقل رأسي، فأنا لم أُخلق لهذه الراحة القاسية والفتّاكة. هذا الخوف الذي كنت أعيشه معك كلما دخلنا عمق المدينة أو غادرناها. صرت هنا لا أتذكره إلّا عندما أكون وحيدة في شارع خالٍ، فتستيقظ فيّ كلّ حساسياتي القديمة، أشتاق، أتدحرج معك نحو كلّ الأماكن التي كنّا نحبّها، حتى ولو كان ذلك بخوف كبير. أقبل أن أختصر المدينة داخل سيارة حتى لا يرانا القتلة، لكن شرط أن نكون مع بعضنا البعض.

في ماذا تفكر الآن؟ هل ما تزال في قلبك تلك المرأة التي عبرت ذات يوم جهنّم بكاملها لتصل إليك وهي لا تحمل شيئاً مهمّاً سوى بعض الأحرف وأوراقاً بيضاء ومداداً أسود. هكذا نحن دائماً. عندما نلتقي في حاضرنا، نحرقه بالأسئلة عن الماضي ونرهقه وعندما يصير هذا الحاضر ماضياً نتشوّق له ولأصغر لحظاته، بحنان كبير.

هل هو قدر العاشق أم قدر الكتابة ذاتها، التي لا تستقرّ إلّا على الخوف والنار والرهبة؟

ثم ماذا يا حبيبي لو تحدثنا أكثر؟

لو صمتنا قليلاً.

فأنا متعبة ولا أريد أن أرهقك.

لا شيء بعد كلّ هذا، سوى أنّي تمنّيتُ أن أكون معك في عزلتك لنصدق ولو لأيام قليلة، أننا عاشقان شجاعان، ولكن هذه المرة كذلك، ستكون وحدك الكبير وأكون أنا أثناء ذلك أحضّر تفاهة الدّروس التي لا أجد فيها أية رغبة ولا متعة، مثل الدواء تماماً، والتفرّغ قليلاً لياسين الذي أتعبه البرنامج واللغة، ولكنه يتحسّن

بسرعة، وتحضير البيت، وتنظيفه، وغسل الصحون الصغيرة، ثم الانزواء نحو النافذة الخلفية لتأمّل الشارع الواسع والتمتع باسترجاع وجهك، ومدينتنا والكتابة.. الكتابة دائماً.

أرأيت؟ الكتابة كالمتعة، نهب دائم وحيلة. فالحياة تعلمنا أن نكون قراصنة الخوف.

قبلاتي.. قبلاتي.. قبلاتي..

مريم التي تتمنّى لو أنها لا تحبّك جداً.. جداً.. جدّاً.

كلمات مريم هكذا دائماً.. تتدفق كالزرقة.

عندما انتهيت من قراءة الرسالة، شعرت بفراغ كبير في صدري، وكأني أقرأها للمرة الأولى. كلّ شيء كان ممتلئاً بالحياة. تمنّيت أن أسترجع حماقاتي القديمة بدون تفكير، والنزول نحو الخطوط الجوية واقتطاع بطاقتين، لي ولريما، ثم السفر مباشرة وعدم الالتفات ورائي، لكن الأشياء كانت أكثر تعقيداً وأن العفوية التي كانت تسكنني، سُرِقت منّي نهائياً. هل هو الخوف؟ المدينة المسكونة بهاجس القتل؟ السنّ الذي بدأ يركض بسرعة؟ أفكر أن أكون مجنوناً لا حدّ لجنونه، لكن في لحظات الصحو، أقول، جيد، على الأقلّ مريم الآن على قيد الحياة، لو بقيت هنا لقتلت. عقدة القَتَلَة: امرأة تعشق أو تفكر أو تصرخ. أبوها كان دائماً يقول لها:

ـ يا مريم يا بنتي، خذي حذرك. القتلة في كلّ مكان.

ـ يا بابا، أنت قلت لي اللي يسكت على الشرّ شمْاتَه. وأنا ما عندي إلّا لساني. نهار اللي نجي بين يدّيهم خلّيهم يديرو واش يحبّو.

ـ معك حقّ ولكن ابنادم يستحفظ على روحه على الأقلّ.

ـ عندما تقف أمام قاتلك الأحسن أن لا تصمت، لأنه سيقتلك. علينا أن نواجهه بعينين صافيتين. نحن الآن نقف أمامه. على الأقلّ نفضحه. الموت كاينَهْ وتْكوُنْ.

أي صمت ينفع أمام القاتل؟ الأمر لم يعد شجاعة ولكنه صار قدراً. لا نملك شيئاً سوى الصراخ والكشف وركوب الرأس والموت وقوفاً. إنهم يذبحون كلّ شيء. الناس. الصيف. الربيع. الشتاء. الخريف. المدينة. الهواء. النور.

يذبحون كلّ ما بقى واقفا من حرب الدمار الماضية.

15

6H - 47 MN

كانت رائحة الأوراق تتسرب إلى الأنف بقوة مصحوبة برطوبة مؤذية.

فكرت أن أتوقف قليلاً. فقد بدأ التعب يملأ قلبي من هذه الذاكرة.

شرّعت النافذة على وسعها من جديد. كنت في حاجة ماسة إلى خيط هواء بارد على الرغم من حساسيتي التي تستيقظ في مثل هذه الأوقات. انتبهت من جديد إلى الساعة الحائطية. وعلى الرغم من انهماكاتي داخل القصاصات كان الزمن ينزل على رأسي مثل قطرات باردة جدّاً. ثقيلاً، ثقيلاً ومخيفاً. كأني في أعماقي كنت خائفاً من لحظة الخروج.

قمت نحو النافذة من جديد، بعد أن طويت كلّ القصاصات والملفات التي فتحت كلّ الجروح التي في القلب. كان البحر قد ظهر كلّياً وأصبحت زرقته في متناول بصري.

كانت ربما تقف ورائي. استيقظت من نومها المتعب. هي متأخرة اليوم عن عادتها. سمعت صوتها الذي يتدحرج ورائي داخل هذه الصالة الفارغة.

- بابا. صباح الخير.

- صباح الخير حبيبتي. كيف أصبحتِ اليوم.

- ما زلت عيّانة. أشعر بالدوخة، مانيش عارفَه وَعْلاشْ؟

- على كلّ. ما يحدث في هذه البلاد لا يريح أبداً.

- غداً أو بعد يجب أن نذهب إلى الطبيب.

- يا خِي قال لَكْ هَذِيكْ المَرّه ما عندي وَالُو! حافظ أنت شويه على نفسك. كلّ هذه الأوراق قرأتها..! بزّاف عليك.

- أوف. لم أقرأها كلها. قطرة من ذاكرة. ذاكرة الماء؟! وهل للماء ذاكرة؟»

- ما نعرفش!؟

ضحكتُ.

- ذلك هو السؤال.

- يا ترى ماما لم تتلفن بعد؟

- وعدتْ أن تتلفن قبل خروجي. هي تعرف الأوقات جدّاً وتحترمها بصرامة.

وقبل أن أنهي كلامي، رنّ التلفون الموضوع في زاوية مهملة، وباردة. بالعادة، كلما رنّ وضعت يدي على قلبي. فهو يحمل بشكل يكاد يكون يومياً أخبار الموت.

سبقتني ريما إليه. كانت مثل العصفورة رغم تعبها وصفرة وجهها.

- ماما.. ماما.. حبيبتي. كيفك.. تْوَحّشْتك.

- ....

- بابا..آه..كما تعرفينه، راسْهْ عاصي.. اليوم سيذهب للجنازة.

ثم ابتلعت ريقها بصعوبة. كان حلقها ناشفاً وجافاً مثل وديان الأحراش. واصلت.

- قلتُ له خذني معك ولكنه رفض.. هاهو بابا.

أخذت السماعة من يد ريما. كانت مستسلمة لهذا الخروج المنحوس الذي عليّ أن أقوم به.

- ألو مريم.. كيف أحوالك وحال ياسين. نسيت نقولْ لك، رسالتك وصلتني. رائعة كعادتها.

- يكفي من المديح الخاوي. أكتب حتى لا أموت.. تسألني عن أحوالنا، نحن مثل بعضنا البعض تماماً لا شيء تغير.. هم يكبرون بسرعة ونحن نشيخ بشكل جنوني. توحَّشْناكم.

- واحْنا كذلك.

- ياخويا. يرحم والديك، ألم تقتنع بعد، بأن الموت صار عند بابك؟

- عارف.. مخّي صار مغلقاً.. المؤكد، الحياة هنا أقلّ تعقيداً مما تتصور. الموت حاضر يومياً، لكن النّاس مصرّون على الحياة وإلى النهاية..

- يا رجل، عن أي حياة تتحدث؟ لأجل من تنتحر الآن؟ من أجلنا، لسنا في حاجة إلى شهادات جديدة! من أجل الوطن؟ يريدك واقفاً تدافع عنه وليس في قبر.

- أنا عاجز عن تفسير هذه العبثية التي صارت تملأني.

- أنتَ هو أنتَ. عندما تصمّم لا تستمع إلّا لنفسك. ليكن. هل نزولك ضروري إلى المدينة؟

- إني أختنق يا مريم في هذه المدفنة. ماذا أملك سوى حضور الجنازة. تعرفين ماذا كان يعني يوسف بالنسبة لي؟ لم تكن علاقتنا

عادية. ثم عندي العديد لكن المشاكل التي عليّ حلها دفعة واحدة لأتفادى الخروج غداً أو بعد غد.. الجنازات يا حبيبتي صارت متنفّساً. نرى الأحياء، نتعلم من شجاعتهم ومقاومتهم. الدنيا لم تتحوّل بعد إلى قيامة ولو أنها صارت قاسية جدّاً. باغتتنا ولم نكن مُحضّرين لها بجدية.

- واش نقول لك. حافظ على روحك. ياسين يسلّم عليك. نحبّك بزّاف. عينك على ريما.

صوت الآذان يأتي خافتاً من بعيد في شكل حنين جنائزي. شعرت بالبرودة. لملمت نفسي داخل معطفي. هذا الصباح لم أسمع كالعادة لا مواء القطّ الغريب الذي دخل معنا هذا البيت في نفس اليوم، مثله مثل الورّام الذي يحطّ على شباك النافذة. يأكل حبات الروز التي أبعثرها كلّ صباح، ويُدوِّر عينيه الحمراوين باتجاه البحر ثمّ يطير ولا يعود إلّا مساء.

ريما كانت حزينة ومريضة. غابت عنها أسئلتها الاعتيادية وطقوسها الصباحية مع قطّها وكراستها. سمرتها انسحبث باتجاه صفرة مائلة نحو بياض مرضي. الطبيب، قال، هذه ليست علامات الأَنِيميا. ريما بها شيء آخر. التحليلات الأولية لم تظهر شيئاً. عليّ أن أعيدها غداً أو بعد غد إلى الطبيب لإجراء تحليلات أخرى.

سمعت تكسرات الماء في المغسل. كانت ريما قد انزلقت نحو الحمام. مضمضاتها كانت تصلني. غسلت وجهها ثم تدحرجت نحوي بتثاقل. قبلتني من جديد، ثم انسحبت باتجاه الزاوية البعيدة للطاولة وأخرجت كراسة مذكراتها: *سلطان الرّماد* التي بدأت تسجلُ فيها تفاصيل حياة الأصدقاء الذين قتلوا. وكلما جلست، شعرت بآلامها الحادة، لأنّي كنت أتصور أحاسيسها وهي تجلس في نفس المكان، ولكن هذه المرة لتدوين أغتيال أبيها. كانت أحياناً تسألني عن بعض التفاصيل الحياتية للأصدقاء المغتالين لتسجيلها. ولكنها مع الزمن أصبحت تكتب لوحدها كلّ شيء. عندما تتعب، تغلق

كراستها، وتكتفي بتفاصيل التلفزيون والإذاعة الوطنية والصحف اليومية أو ما تعرفه هي نفسها من خلال علاقتها بالشخص نفسه.

كانت منشغلة بقلمها. التفتت نحوي.

ـ بابا، أنا مثلك لا أعرف الكتابة إلّا إذا كان القلم الذي بين يدي مريحاً.

سحبت قلمها الملوّن الذي اشتريته لها من المدينة القديمة، ثم انكفأت على فمها، تدوّن التفاصيل التي أصبحت تشغلها، من حين لآخر تضعه في فمها. تشد عليه قليلاً بأسنانها. تفكّر، ثم تنظر إليّ كمن يكتشفني للمرة الأولى. تقرأ خوفي قليلاً، ثم تنهمك من جديد في الكتابة. كنت قد بدأت أحضّر الطاولة مع فاطمة لشرب قهوة الصباح التي لم تعد تعني لي الكثير، منذ أن سرقت منّا عاداتنا داخل المدينة. القهوة بالنسبة لفاطمة مثل الهواء الذي تتنفّسه. لا تثق إلّا في قهوتها. كلّ مرّة أهيئها فيها، تسخر منّي.

ـ أنت خايب في القهوة. الماء والزغاريت.

فاطمة هي فاطمة، بروعتها وكرمها، ونزقها. تحب وتكره في اللحظة نفسها. هكذا هي. لكن فيها شعاعاً منيراً حتى في أبأس اللحظات، لا يملكه غيرها. سرقوا منها الأشرطة وفرص التمثيل منذ أن كُسِر القطاع السينمائي الوطني وعُوّض بمجموعة من السراق، بنوا مجدهم على المؤسسات الوطنية. مالك البائلك! يا الله! ادخُلْ يا مباركْ بحمارك.. حطموا كل شيء وسبقونا إلى البكاء والخطابات الحزينة والمتأسفة عما آلت إليه البلاد.

ـ وحقّ ربّي طحّانين. خرّبوا البلاد وما زالوا حابينّ ينشفوا كلّ شيء.

كانت ريما غارقة في الكتابة وتأمل البحر الذي كان يبدو لها بعيداً، بعيداً جدّاً.

قلتُ لها.

- واش رَاهَا تكتب حبيبتي؟

- أوف يا بابا. مجرّد كلام فارغ.

- هاه أريد أن أستمع قليلاً إلى كلامك الفارغ. للفراغ صوته الخاص.

- اسمع يا سيدي:

ثم انكفأت على كرّاستها تقرأ: *ما زلت مريضة. شيء ما يؤلمني أجهله تماماً. في هذا الصباح لم أقم باكراً كعادتي. حتى قطّي لم أعد أراه. أشعر بانقباض في قلبي وبألم عميق لا أعلم مصدره، وبتعب لا أدري من أين يتوالد كالمرض. منذ مقتل عمّو يوسف، صارت الكوابيس تملأني. البارحة مثلاً رأيت خليطاً من الخوف والدم والبكاء. شخص رأيته يُقتل أمام عيني. أحياناً أراه يشبهني، وفي أحيان أخرى يشبه ماما وياسين ولكنه لم يكن يشبه بابا. هذا الشيء البسيط أسعدني كثيراً. أحياناً أقول عن بابا أنه رجل كبير وعاقل. أغار من رزانته وحبّه وطيبته وتدفّقه. وفي أحيان أخرى يخيفني جنونه. سمعته يتحدّث مع صديقة في التلفون. كان يقول لها، أتمنّى إذا صادفني القتلة أن لا يجدوا شيئا يأخذونه منّي. أريد إفراغ قلبي قبل أن أنتهي على أيديهم أو على أيدي غيرهم. ولهذا أتمنّى أن أقول كلّ شيء في ظرف قصير. لا أريد أن أترك نصي في منتصفه. أحياناً يكون بابا محقّاً في تصوّره وفي أحيان أخرى أتساءل إذا ما بقيَ لي مكان داخل هذه المغامرة المخيفة والمجنونة. لا أدري سوى أن بابا مصمّم على النزول إلى المدينة. أقنعني بخروجه، رغم أنّي حزينة عليه وعلى عمّو يوسف الذي قتل قبل يومين على حين غفلة. كان رساماً وحكّاءاً رائعاً. كلهم بدأوا يموتون الواحد تلو الآخر. بابا سيخرج هذا الصباح. أقنعني ولكنّي لم أستطع إقناع خوفي بالتعقّل والتريّث. البحر هو البحر. صوته لا يُسمَع إلاّ قليلاً ولكنّه يُشمع. الشمس لم تصعد بقوة،*

أو صعدت ولكن الغربان التي تكاثرت في المنطقة تحجب عنا نورها. بابا لم يتنكّر بشكل خاص. ولكنه حضّر نظارتيه السوداوين. شعره ما يزال مموّه منذ أن قصته له طاطا فاطمة عندما خرجنا باتجاه المدينة القديمة. لباسه هو هو. سروال القطيفا والقميص الصوفي المربّع ذو اللون الأحمر والأسود. حذاؤه هو نفس حذائه اليومي الذي بدأ يصفرّ عند الرأس بل ويتمزّق شيئاً فشيئاً. لم يجد الوقت الكافي لشراء غيره. المحلات نفسها لا تُطمئن على الأقلّ، وهو لا يريد أن يفاجئه القتلة وهو يجرّب حذاءً جديداً. قَتَلَةٌ غبيّة. هكذا يقول...

لم أجد ما أقوله، فقد كانت كلماتها حادّة ورقيقة كشعلة نار.

ـ والله يا ريما صارت كتابتك مدهشة.

ـ أوف يا بابا، أنت دائماً تنفخني أكثر مِنَ اللاّزِمْ.

ثم وضعت القلم في فمها وبدأت تفكر من جديد وهْي بين حفرةْ البيت وفضاء البحر الذي كان يبدو بعيداً. وعندما رشقت عينيها في سقف البيت، بدا لها أنه في كلّ مرّة كان يزداد انحناءً.

كانتْ متعبة. قاومتْ قليلاً ثم أحْنتْ رأسها على الطاولة من جديد.

ـ ريما، يا حبيبتي، أنتِ متعبة. ارتاحي قليلاً؟

ـ خذني الى فراشي. وكِي تْحَب تَخرُجْ قُلْ لي.

ـ طيّب.

حملتها بين يديّ. كانت خفيفة. وضعتها في فراشها. غطّيتها. أعطيتها بعض الأقراص. حاولت جاهدة أن ترسم ابتسامة بين شفتيها، لكن شجاعتها خانتها ولم تسعفها قوتها.

ـ بابا، أَوْعِدْني أنك ستكون حذراً.

ـ هذا وعد.

وضعها الصحّي يشغلني وهذه الظروف القاتلة لا تشجّع على

الخروج من هذه الحفرة. تحاليل الأسبوع الماضي لم تبرز شيئاً يذكر وهذا أسعدني وأسعدها، لكن الطبيب أكّد على ضرورة المعاودة، فهي تنحف وتصفر كلّ يوم أكثر. منكسرة وكئيبة. خوفي يتضاعف أكثر. أقول في خاطري، ما قاله لي الطبيب.

– Tu sais, peut-être c'est la peur qui lui fait tout ça. Ryma est une fille trés fragile mais aussi trés sensible.

ماذا أفعل؟ أحياناً أقول أنَّ مريم كانت محقّة. فأنا أقتل هذه البنت عشرات المرات يومياً كلما خرجتُ، مثلما أقتل نفسي بالتقسيط. أنانية. كان من المفروض أن أبقى على الأقلّ من أجلها قليلاً، مع مريم في باريس. أُعوّدها على حياة أخرى وبعدها أعود. ولكنّي لا أتحمّل هذا الابتعاد. المنفى هو أكبر عقوبة تُسلّط على الإنسان، ومن يتحمّله، فقد حقق درجة عليا من النضال. ابن البلد يعيش الكارثة يومياً ولكنه ينساها بمجرد دخوله في الحياة اليومية. هو مجبر على نسيانها لكي يستطيع العيش. لكن المنفى يتلقّى الأشياء فقط ويتحملها بدون أن يستطيع تجاوز هذه الحالة. فهو يبلعها. ثم يعيدها، فيمضغها ويلوكها ويظلّ هكذا حتى تدمّره.

ـ هل تحتاجين إلى شيء من المدينة يا ريما؟

ـ لا شيء. سلامتك. قوّمني قبل ما تخرج. الآن أغلق الستائر والباب قليلاً، أنا متعبة، الضوء يؤذيني. أريد قليلاً من الظلام ربّما كبستُ دقائق قبل خروجك.

كانت فاطمة قد أعدت فطور الصباح. سمعت صوتها وأنا أسحب الستائر الغليظة، يأتي من المطبخ.

ـ يا الله يكفينا دلال ودلع. الفطور جاهز.

كانت ملامح الصباح قد ارتسمت نهائياً. النافذة مفتوحة عن آخرها. رأيت البحر ينزلق بكامله نحو الصالة. يتمدد على الطاولة العريضة التي تضع عليها فاطمة أشرطتها وحوائجها وأضع عليها

هذه الأوراق التي كلما فتحتها، أيقظت كلّ حساسيتي القديمة. أوراق، أحلم يومياً بتنظيمها وترتيبها وتوليفها ولكن عبثاً. أحياناً كنت أحلم بإعادة كتابتها، لكن ذلك صار مستحيلاً من مستحيلات الدنيا التي نحن فيها.

كانت زرقة البحر تزداد إغراء كلما انزلق الوقت نحو السابعة وكلما التصقت تكسرات البحر العميقة، بأفق السماء البعيدة. وغوغات النوارس التي استيقظت، تكاثرت بقوة. لكن نشيد الورّام تأخر كثيراً. رأيت السماء صافية على غير عادتها في هذا الفصل. تخيلتها في ذاكرتي كقطعة حلوى شباكية بنفس اللون. قفزت في ذهني صورة قديمة، لا أدري أين كانت تختبئ. منذ أكثر من ثلاثين سنة وهي مدفونة في عمق هذا الدماغ المرهق. وأنا صغير كنت أظنّ، وبعدها صرت على يقين، أن سطح السماء الأزرق، هو عبارة عن زجاج شفّاف بنفس اللون. وأصبحت أنا الذي يحاول إقناع النّاس بالفكرة، أتنافس معهم لضرب السماء بالحجارة ونظل نرميها في الفراغ، حتى نسمع صوت التكسّر الناتج عن شرخ يشق زجاج السماء. أحياناً تسقط الحجارة على رؤوسنا، ونقسم ونحن نمسح الدم من على الجبهة أو على القُنّة، بأن سبب الدم، هو قطعة زجاج سقطت من السماء إثر التكسر، ونبحث في الأرضية عن أية زجاجة مرمية ونقتنع بأنها هي، ثم نقنع الآخرين وعندما يشكّ فينا نقسم بالسماء.

- وحقّ السماء الزرقاء.

كان عليّ انتظار موت الظلمة وها هي ذي تنسحب بكل غشاواتها.

أشرب القهوة إرضاء لفاطمة حتى لا تشربها لوحدها، إذ لم يعد مهماً أبداً بالنسبة لي أن أتناولها أو لا أتناولها. لم تعد تشغلني مطلقاً منذ أن سرقت منّي قعدات *لابراس ومقهى الأندلس واللوتس*.

هذا الأخير الذي قبل أن يُسرق من أملاك الجامعة حُوّل إلى محلّ أجوف لبيع المهرّبات لم يعد له أي معنى. حتى اسمه غُيّر. كان علامة من علامات المدينة. في السبعينات كان مقهى لليسار العربي والعالم الثالث الذي وَجَد في الجزائر قلعته، وبعدها حُوّل إلى منتدى للطلبة المغضوب عليهم والفنانين، ثم انسحب منه الجميع عندما سكنه الأمن السرّي بألبسة مدنية مموّهة.

لا شيء يشغلني الآن. سوى هذا اليوم بكل تفاصيله وريما. على أن أنزل إلى عمق المدينة، وأن أمرّ بغابات بوشاوي الخالية وممرّات الطريق السريع التي أتخيّل في كلّ مرّة امتلاؤها بعساكر دورية مزيّفة Des faux barrages، وريما مريضة ولا أملك حيالها إلّا الانتظار. نقرتني فاطمة على رأسي وأنا أحاول أن أشرب القهوة بصعوبة كبيرة.

ـ واش من بابور غرق؟ الدنيا هكذا. واحد يموت وآخر يأتي. هل يجب أن نموت كذلك لنقنع الآخرين بأنّا ما زلنا نحبهم. خلّيك يا رجل. أفتح عينيك.

ـ أوف لو كان عليّ!! ما عاد عندي ما نخْسَر. تعرْفِينني رجُلا زَوَاليا. عاش ما كسب، مات ما خلّى.

ـ يا سيدي إذا كان على ريما، فهي في عيني.

ـ والله يا فاطمة، كثّرنا عليك. مشاكلك الكبيرة، أهلك وابنتك التي تحتاج إليك، وزدنا لك مشاكلنا التي لا تنتهي.

ـ واش درت لكم. بنتي تربّت عند جدّتها، هي أمّها. لم أفعل ما يستحقّ الذكرسوى هذه الحفرة التي نتقاسمها جميعاً حتى يحنّ الله.

ـ الحياة يا فاطمة، تبدو لي أحيانا حالةً من العبث، بحيث لا أستطيع ولا أريد أن أتوقف عندها كثيراً لفهمها. المثقف في هذا البلاد بهدلوه. جرّموه. عزلوه. قتلوه، واليوم يجهزون عليه. هو

أضعف حلقة في عملية التدمير هذه. يُقتل ويُذبح مثل الخروف ولا يمتلك وسيلة واحدة للدفاع عن نفسه.

ـ حتى النظام، نظام سفلة. أوصلونا لوضعية صرنا لا نرى الحلول إلّا من خلال رحمتهم. لو عرف القتلة بأننا نملك قوة نارية مثلهم، لما تجرأوا على ذبحنا مثل الخرفان ولكن...

ـ الميزان اختل كثيراً. ليست قوة القتلة هي التي تخيف، ولكن ضعف الدولة وهزالها وعدم جدارتها. تصوري صار القتلة الآن يستكثرون فينا حتى الرصاصة. بكل بساطة نذبح كالخرفان أمام أولادنا. وقتلنا يرضي كلّ الذين يريدوننا أن نصمت نهائياً.

ـ أشياء كثيرة ما فهمت فيها والو. عبد الرحمّن جار أُمّي. ذبح قبل يومين على مرأى من النّاس وعلى بعد عشرين متراً من مركز الأمن؟ خرج كعادته كلّ صباح يشتري صحفه اليومية. منذ أكثر من ستة أشهر وهو متوقّف عن العمل بعد التهديدات التي تلقّاها في جريدته. انكفأ على نفسه، لا يفعل شيئاً سوى القراءة والإندفان داخل البيت. سمعتْ أُمّي صرخته الجّافة. طلّت من النافذة. رأته يقبض على عنقه ويدافع عن نفسه بالصحف التي كانت في يده اليمنى. صَرختْ بأعلى صوتها. أغلق النّاس نوافذهم وأغمضوا عيونهم. شتمت كلّ سكان البناية. وفي النهاية نزلت وفي يدها إزار أبيض. كان قد فرغ من دمه ومات. غطّته، في اللحظة نفسها وصلت الشرطة. قرابة الشهر وهم يستجوبون أمّي، لدرجة أنها ذات مرّة فقدت صوابها مع المفتّش الذي كان يسألها:

ـ يرحم والديك. تتركون القتلة وتكرّهوا لي حياتي؟

ـ هذا واجبنا وواجبك الوطني. تعطينا صفاتهم لنتمكن من معرفتهم.

ـ لكن الصفات أعطيتها لكم ولمجموعات أخرى جاءتني إلى البيت. صرت أخاف لا أعرف من هو الذي يأتيني إلى البيت، شرطي،

أم شيء آخر. عفّوني يا وليدي يرحم والديكم. بهذه الطريقة توصلوننا إلى أن نتحول إلى شركاء في الجريمة. نرى القاتل ولا نعلن عنه، خوفاً من بهدلات الذهاب والإيّاب والزيارات العلنية اليومية إلى البيت.

أُمّي لا تنسى صورة عبدالرحمن وهو يتدحرج عند المدخل، يقبض على عنقه المذبوح قبل أن يسقط عند البناية. رَدَحَ قليلاً ثم هَمَدَ. عندما كانت تضع عليه الإزار لعنت ربّ هذا الشعب الذي يختبئ عندما تُرتَكَبُ الجريمة. يتأملها من وراء شقوق النافذة، وعندما يعود القتلة من حيث أتوْا، ينزل الجميع للتفرّج على بقايا المجزرة. هذا الشعب متواطئ مع القتلة بصمته. لا يعقل. سمعت أحد الجيران يتمتم لصاحبه بأسف، تقول أمّي:

ـ يا خِي وغْلاَهْ قَتْلوه؟ كان ناسْ مْلاَحْ مِسْكين. حَدُّه حَدْ رُوحُهْ.

ـ يَا خُو نقول لك الصَّحْ الصَّحْ. مَادَارْشْ مْليحْ. كان صَحَفياً شيوعِياً. شَتَم المؤمنين في كتاباته. هكذا سمعت أولاد الحومَةْ يقولون.

ـ ما نعرفشْ نَقْرا، ولكن شَفْتُو. يشري الجريدة كلّ صباح. يقول صباح الخير. ثم يعود إلى بيته.

ـ حتى أنا ما نعرفْش نقْرا. بَصَّحْ النّاس اللي يَعرْفوُه قَالوا لي بلّي صحفي شيوعي.

ـ تصور! هل يُعقل، أن يُسجن شعب بكامله داخل الإشاعة ويُدفع نحو تنشيط مخيلة، هي في أساسها ميّتة أو مقتولة؟

قالتها فاطمة وهي تضغط بقوة على كأس القهوة الذي كان بين يديها.

ـ أشرب. أشرب قهوتك. أنا أستر الهمّ فقط. أكاد أجنّ عندما أسمع هذه الأشياء.

ـ كارثة. الإشاعة يشرّبونها لنا يومياً في كأس القهوة. نتحمّلها على مضض ولكن نشربها.

ـ والله، إنهم يدفعوننا نحو التواطؤ ضدّ أنفسنا. أمّا هم عايشين كالملوك. هل سمعت أن واحداً ممن نهبوا البلاد قد قُتِل. حتى الذين قُتِلوا، ليس ذلك أكثر من حسابات مافيا.

ـ ما حدث لبوضياف، اليابس، بوخبزة، قاصدي مرباح، علّولة.. وغيرهم، عمليات مرتبة بشكل دقيق وكبير، نعرف القتلة ولكننا لا نعرفهم، ولن نعرف دائماً الرؤوس التي تختبئ في الظلام وتملك حتى درجة حرارة أنفاس الجميع. أكاد أقول مافيا مالية ـ سياسية ـ دينية من مصلحتها أن تتخلّص من كلّ الذين يملكون أسرارها أو قادرين على فضحها.

ـ تحبّ الصّح، الصحّ. أنا يائسة تماماً من إمكانية إرساء ديمقراطية في هذه البلاد بدون تكسير هذه المافيا وهؤلاء قبل أن ينكسروا، يخربون كلّ شيء. فالمصالح الكبيرة التي يملكونها مذهلة ومن الجنون أن ينقلبوا من قتلة وسراق وحرامية إلى ديمقراطيين. الفارق الوحيد بين الأمس واليوم، أنهم انسحبوا قليلاً نحو الظلمة وتقاطعوا مع قتلة آخرين ركبوا أيديولوجية الإسلام مثلما ركبوا هم أيديولوجيا الوطنية التي تحوّلت في النهاية إلى فاشية وجدت ظالتها في فاشية أخرى هي الفاشية الدينية. يائسة ومع ذلك عليّ أن أعيش وأموت بحدّ أدنى من الكرامة.

انتبهت إلى الساعة.

ـ حديثك لا يُملّ يا فاطمة ولكنه الوقت.

ـ واش نقول لك. أحرس على نفسك قدر ما تستطيع.

انزلقت نحو فراش ريما. كانت نصف نائمة. عيناها غارقتان في دهشة ما.

قالت بصوت مبحوح ومنكسر.

ـ بابا نحبّك بزّاف.

«وأنا كذلك. واش الدوخة؟ أنا رايح. أعدك بأنّي لن أتأخّر.

– Fais attention, papa. Ils sont trés dangereux.

ـ Prends surtout soin de toi. سأتخذ كلّ الاحتياطات. أنا رَايحْ حبوبتي. ما تْحَيْرِيشْ».

ـ إحرز روحك بابا.

مسدت على رأسها. كانت فاطمة تقف ورائي بقامتها الطويلة. شعرت بظلها وبأنفاسها. سلّمتْ على ريما. ثم التفتتْ نحوي.

ـ ماتفكّرش كثيراً. ريما صديقتي. اليوم أتركها ترتاح هنا ما دامت متعبة، وسأمُرُّ على معلمتها لأخبرها عن تغيّبها.

وأنا أغلق الباب بهدوء، لمعت عيناها ببريق يشبه النور. سمعت صوتها مرّة أخرى.

ـ بابا انحبك قَدْ عَيْنيّ.

ـ وأنا انحبّك قَدْ لَبْحَرْ.

شعرت فعلاً بشيء ينقصني. ريما عادة هي التي تسبقني إلى النافذة قبل أن أخرج، وبشكل دائم تمسح بعينيها الحادّتين كلّ المساحات الأرضية والفضاء، وموقف السيارات والمحيط، البناية والحديقة. ثم تفتح الباب، وتنزل الأدراج واحداً واحداً، وتفتح أبواب صناديق الغاز والكهرباء ثم تعود راكضة.

ـ بابا. لا شيء. تستطيع الخروج.

وتظلّ معلقة حتى أغادر المكان نهائياً. تلوح، ثم تبعث قبلة بكفّها الصغير. وعندما أغيب بين البنايات أشعر بها تنسحب بتثاقل نحو حجرتها لتبدأ تنظيم أدواتها للذهاب إلى المدرسة. وعندما ترى

شخصاً في الحارة تمنعني كلياً من الخروج ولا حتى النزول بشكل عادي.

قبل أيام، رأت رجلاً يتكئ على سيارتي. عادت بسرعة وأنفاسها تتقطع.

- بابا. ما تَخْرُجْش. هناك رجل يتكئ على سيارتنا.

أطَلّيت من النافذة. عرفت الشخص.

- لا نستطيع أن نمنع كلّ النّاس من الإتكاء على السيارات. ثم أنه دِيدي (عبد القادر) بائع السجائر.

- ما نحبّوشْ. يتمسخر بي كثيراً. دائماً يقول لي لاتْشِي.

- تْشِي. La Tchi - Tchi ما تَخرجْشِ حتى يْروحْ.

- أنا لا أنوي الخروج مطلقاً. وديدي ينتظر صديقه على ما يبدو، لأنه يصفّر له.

وبالفعل، بعد لحظة طلّ عليه صديقه. ثم نزل باتجاهه وسارعا إلى مدخل الحيّ لبيع السجائر.

في الأيام الأخيرة تركا زغباً خفيفاً ينبت على وجهيهما ولكنهما لم يغيرا من لطفهما ومزاحهما الدائم. كلما مررت عليهما مع أصدقاء آخرين، أجدهما ينكّتان ويقهقهان عالياً.

لكن منذ ذلك اليوم، لم أعد أراهما على الإطلاق. فقد انسحبا نهائياً من مكانهما الاعتيادي.

سبقتني فاطمةْ. فتحت الباب. تماماً كما كانت تفعل ريما، أو هي وريما. نزلتْ عبْر الأدراج. سمعتُ تكّسر خطواتها على الرغم من حذرها. مسحتِ المكان بعينيها ثم أشّرتْ لي بيديها. أوصلتني حتى السيارة، ثم عادت إلى النافذة لتطلّ عليّ من جديد. رأيت في لحظة من اللحظات، ريما بجانبها أو تخيّلت ذلك. بل سمعت كلماتها في أعماقي.

ـ بابا. تَهَلاّ في روحك.

أغمضت عينيَّ، وتركت السيارة تنزلق باتجاه المدينة.

لم أرَ الورّام الذي تعودت على طيرانه كلما سمع محرّك السيارة ولكنّي رأيت غراباً بعينين مدورتين كاللعبة الزجاجية. لم أرَ إلّا أرقام الساعة وعقاربها التي كانت تزحف نحو السابعة تماماً.

لم أصادف القطّ الأبيض الذي جاء معنا إلى بيت فاطمة، لا في البيت ولا في الأدراج ولكنّي شعرت بوجوده.

لم أرَ شيئاً، بينما يوم آخر نحو الموت، كان قد بدأ.

القسم الثّاني

الخطْوَةُ وَالأصْوَاتُ

1

7H - 40 MN

السيارة جيدة ولا شيء يثير الخوف.

منذ أن وَجَدْتُ، قبل سنة تقريباً، زيت الفرامل سائحاً على الأرض والخيوط المرتبطة به مقصوصة صرت أسرق من نفسي ومن خوفي دقيقتين على الأقلّ لمراقبة السيارة وضبطها. لا أريد أن أترك شيئاً للصدفة.

كان البحر يتثاءب، في ساعاته الأخيرة من النوم.

كلّ صباح يرحل نحو يوم مجهول في مغامرة مجنونة.

حالة تستعصي فيها كلّ الأسئلة وترخص فيها الحياة، يتداولها الموت والمفاجآت والرغبة المحمومة للتمتّع بآخر التفاصيل الجميلة التي تتسرّب بسرعة بين أصابع اليد.

كانت وغوغات النوارس تأتيني من قريب وأنا أعبر طريق البحر. من ورائي كان ينسحب شيئاً فشيئاً برج سيدي فرج العتيق الذي يتحوّل ليلاً إلى جزيرة عائمة داخل الأضواء والألوان ورائحة السّمك والملوحة.

أتمنّى أن أضع طويلاً داخل كفي كلّ هذا الغموض وأسحقه مثل التربة اليابسة وأطوّح به في الفضاءات. أحلم أن يستمر هذا الشوق

وهذه الزرقة التي تجتاحني، لكن حسابات الخوف تغطي كلّ هذه الألوان لتعوّضها بالدكنة والرعب والجوّ الرمادي. فجأة أنغَلِقُ داخل ارتعاشة عندما تسحبني غابة بوشاي باتجاهها، غابة كانت إلى وقت قريب متعة العشاق ومأوى المجانين، صارت فجأة مظلمة. في كلّ خطوة نخطوها، نترقّب مفاجآت الوجوه الغامضة التي تغلق الطرقات وتسدّ كلّ الممرّات، متنكّرة في أزياء عسكرية للجيش الوطني أو في ألبسة الدّرك الخضراء. أتساءل في صمت وتلقائية وخوف ضامر، كيف ستواجه الموقف؟ وراء أي سيناريو ستختبئ؟ هل ستتوقف أصلاً عندما يخرجون لك من وراء شجرة؟ تتساءل، ربّما كانوا دورية حقيقية!؟ وإذا توقفتَ وكانوا غير ذلك؟ يقتربون منك بهدوء ثم ينحنون قليلاً، يحيّونك. يتأملون داخل السيارة. يمسحونها بعيونهم ثم يطلبون منك أوراقك والبطاقة الوطنية القديمة التي كتب فيها بجانب المهنة: طالب. يمكنك بهذه الصفة أن تموّه قليلاً مع أنك لو خيّرتَ. لقدّمْتَ لهم بطاقة كُتبَ فيها: نجّار، لا يتعامل إلّا مع الخشب. أو بكل بساطة، بدون مهنة. هذا أفضل. بقدر ما تثبت أمّيتَك، فأنت في مأمن مطلق. تكتشفهم أنت بدورك. يَاهْ هَاذُوهُمَا؟ لا شيء يعطيهم قيمة سوى مسدساتهم التي تلمع كالسكاكين. ماذا تفعل؟ كيف تواجه قتلة مُدججين بالموت والخراب؟

تتحسس جسدك، ثم رقبتك. ثم تغمغم بيأس.

ـ أوفْ! فليفعلوا ما يشاؤون.

وفجأة نغادر غابة بوشاوي: السيارة بانزلاقها وهدوئها وأنا بكل هواجسي وجنوني، لندخل الطريق السريع الرابط بين الغابة والمطار، ثم بين المطار والمدينة. أشعر ببعض الدم يجري في عروقي ووجهي وبطيوري الصغيرة تغادر أقفاصها وخوفها. أبدأ في استرجاع برنامجي اليومي. لحظة، لحظة ومادة مادة وأحياناً حتى الأزمنة. أقرأ الوريقة التي كُتب عليها:

أولاً: رسالة إلى مريم.

ثانياً: المكتبة والبريد.

ثالثاً: المطبعة والاستفسار عن روايتي.

رابعاً: الحوار مع نادية في المطعم. (لا أحد يعرف المكان إلّا أنا وهي).

خامساً: المقبرة وحضور جنازة صديقي الفنّان.

سادساً: العودة في حدود الخامسة (إذا كانت هناك عودة؟).

أتساءل، يا ترى، هل سيُسعفني اليوم للقيام بكل ذلك، هل سيعطيني القتلة مُهْلَة؟ هل يمكنني أن أسرق منهم كلّ هذا الشوق وهذا الحنين إلى مدينة أحبها وتقاتلني وتخاتلني؟

يقصر طريق المدينة بسرعة، عندما يصير طريقاً يؤدي إلى الموت، إلى القاع. أقول أحياناً لصديقتي فاطمة التي يملأني خوفها عليّ. بين بيتك والمدينة ظلالٌ وخوف وهوّة سحيقة، ومدينة تنزف. كانت قبل ذلك تجلس في الكرسي الخلفي، ونظل نوشوش، ونتضاحك أحياناً لنكاتها البذيئة التي تقهقه لها حتى قبل أن تحكيها. نحطّها في الإذاعة ثم نواصل نزولنا أنا ومريم نحو عمق المدينة قبل أن تتغير عاداتنا نفسها وننزل أنا ومريم كلّ واحد في جهته. نخاف أن نقتل مرّة واحدة، ولا نريد أن نسهّل كذلك مهمّة القتلة. أمّا فاطمة فتعود في سيارتها التي تبيتها هناك في الإذاعة من حين لآخر. الكرسي الآن صار فارغاً. أتحسسه. أسترجع وجه فاطمة بقسماته وانكساراته.

ـ ما تْخَافْشِ على رِيما...

مسكينة فاطمة، تحمل على ظهرها مشقّة كبيرة. بدأت تتكسر بسرعة وتجفّ كالحطبة. هي كذالك لا تستطيع أن تتنفّس هواء آخر غير هواء هذا البحر المنسي. مرّة وهي تسترجع كوارثها اليومية وثقل العائلة والمحيط، صرختُ في وجهها:

ـ يا الربّ العالي، سافري. طيري. أخرجي من هذا الرماد المظلم.

ـ واش تحبني ندير؟

ـ ولا شي. فقط انسي روحك شوي. أخرجي من هذه الدوائر المغلقة فهي قاتلة.

ـ هذا ما أفعله. من حين لآخر.

ـ قَصْدي بَدِّلي المكان. شوفي مَكاناً آخر.

ـ وين تْحَبْني نروحْ؟ وفي هذه الظروف القاسية! كلّ من تْروح عنده تضيف له مشكلاً وخوفاً. مشيت لوهران وعدت في يومين. عنابة ما نعرف فيها حتى واحد. قُدّامي غليزان، مدينتي الصغيرة التي صارت قرية متخلفة وذكورية. أحزن لرؤيتها. العاصمة على الأقلّ أستطيع الذوبان فيها بدون أن أُجبر على التملق للناس. هذا الحريق ولا ذاك الرماد.

ـ مع أن غليزان كانت مدينة للفرح.

ـ وين ذاك الزمان!!؟! وين الرمِيتِي التي ملأت الأعراس، وين رجال البلاد الرائعين، والأسواق والاسطوانات التي كان يتقاتل النّاس من أجل سماعها، وِين القْهَاوي التي كان يتفاخر روّادها بأنهم اليوم استمتعوا إلى آخر ما غنّتْه الرميتي. يا حَسْراه! خلّينا.

ـ والآن لو يجدها تافه أُمّي سينزع روحها، هكذا ببساطة لأنها تُسْعِد الناس.

ـ الرّميتي. دَارَتْ مْلِيح. حملتْ حقائبها وشَقّتْ بحر المنفى بحثاً عن شيء حار، لا تعرفه إلاّ هي.

ـ اللي بْقَى يلحق اليوم. أمّا الموت أو المنفى في زمن ضاقت الدنيا وضاق فيه المنفى نفسه.

ـ يا سيدي، يبدو لي أنه لا خيار. هنا يموت قاسي. مصيرنا صار ملتصقاً بهذه الأرض.

أنْعطِفُ نحو الشمال لأصعد باتجاه حيّ البيار الذي شهد قبل يومين اشتباكات عنيفة. كان هادئاً. لا شيء يثير الإنتباه إلّا علامات الرصاص التي كانت شاهداً على مرور القتلة. محلاّت فارغة بعدما نُهب كلّ شيء منها ونُزعت أبوابها الزنكية. أشجار مقصوصة من جذورها ملقاة على الرّصيف مثل الجثث. حيطان مثقوبة بمختلف العيارات. زجاج النوافذ المكسورة يملأ الطريق. بعض السيارات المتفحّمة ما تزال في المكان الذي نفّذ فيه القتلة جريمتهم.

عندما بدأت أنحدر باتّجاه دوّار ساحة كندي، واجهني حائط كبير كُتب عليه بخطّ سريع وسيّء:

أيها الكفرة، يد الجهاد ستطالكم حتّى ولو كنتم في حصون منيعة أو تعلّقتم بأستار الكعبة. وقل إنّ الإرهاب من أمر ربّي.

ليس بعيدا عنه، على حائط البريد المركزي، كُتِبَ هذه المرة بخط أجمل وأوضح، صاحبه امتلك الوقت الكافي لتجميله وتمطيطه:

لن يبقى لائكي واحد في هذه البلاد الطاهرة. بلاد الإسلام والفتوحات وأرض علي والعبّاس.

تمتمت في أعماقي عفوياً. هذه المدينة غير عادية. مجنونة أحياناً. غزتها أقوام عديدة وتداول عليها القراصنة الأتراك. سكنوها، صيروا أهلها جزءاً من أنماطهم الحياتية. كان انكشاريتها يتقاضون رواتبهم من قنصهم. عندما يدخلون المدينة، قادمين من البحر، ويمرّون عبر شوارعها الضيّقة، ينقّونها من سكانها ثم يندفنون داخل المسالك الصعبة. يأكلون القطط والكلاب الضالة وينكحون الدجاج والأغنام والبقر. يقولون عنهم، أنهم كانوا *يطمعون في النملة*. السكان، سكان الأحياء المواجهة للبحر، عندما يسمعون هديرهم، يغلقون نوافذهم الضيقة ويختبئون في أقبية البيوت الخلفية. والنساء ترتدين ألبسة الذكور خوفاً من توحّش الإنكشارية. في سكان العاصمة اليوم بعضاً من هذه الجينات الانكشارية. ينظرون إليك. يتفرسونك من رأسك حتى النعل، وكأنك

مجرم. لا يبتسمون إلّا نادراً. يشعرونك بالغربة والوحدة. ملامح المدينة التي قاومت الوافدين القتلة اندثرت وحلّت محلها ارتسامات عجيبة لم نكن نعرفها فيها جيداً.

بدأت أغادر حيّ البيار وساحة كيندي التي زوقت بالرخام الذي منذ أن أُلصق بحائط الأنفاق لم يَلتفِت له أحد ولم تُعوَّض أية رخامة مكسورة. حتى مشروع الطريق التحت ـ أرضي حُوّل فجأة إلى دكاكين وبقيت السيارات كلما وصلت إلى مفترق ساحة كيندي تتكتّل وراء بعضها البعض، بدون نظام، في انتظار فرجة تأتي بعد صراعات وخناقات قد تصل الشتم، ثم سحب السكاكين، هذا في الأيام التي كانت عادية! الغريب اليوم، نفسيات النّاس المشدودة، زادت هدوءاً. يصبرون رغم قلقهم. لا أحد يزمّر على صاحبه ولا ينزل. بل لا أحد يرفع صوته ويصرخ. ينتظر حتى يتفكك الإزدحام شيئاً فشيئاً، بعدها يتسرسب نحو عمق المدينة.

تخطيت الحاجز العسكري الأوّل وعندما وصلت إلى وزارة الدفاع كنت أتخطّى الحاجز الثاني لأنعطف بسرعة نحو اليمين باتجاه الجامعة المركزية، مروراً بنزل الأوراسي ثم قصر الحكومة فقاعة ابن خلدون، ثم بائع الورود الذي لم يغادر زاويته مطلقاً. ثم نفق الكلّية فالجامعة.

ها قد وصلت بسلام.

فكرت أن أوقف السيارة داخل الجامعة كالعادة ثم فجأة وجدتني مشدوداً إلى كلام صديق نصحني كثيراً بعدم الخروج بانتظام، وبتغيير مكان توقيف السيارة والدخول إلى الجامعة، كلّ مرّة من باب. مرّة من الباب الشمالية، ومرة من الباب الشرقية الرئيسية. قُتِل بنفس المرض الزمني الذي نصحني بتفاديه.

ـ على الأقلّ الجامعة آمنة!

قلتها وأنا أضحك من تحذيراته وأُداريه في نفس الوقت. ردّه كان سريعاً:

- يا رجل واش راك تخرط! ألم تفكّك قنابل موقوته داخل الحرم الجامعي وفي مكتب المدير نفسه، من أدخلها؟ من وضعها! الدّاء هنا. الخراب داخلي. إنه في عمق الأشياء. في نظامها وحركاتها التي اعتدناها. احذر يرحم والديك. لا تكن مجنوناً. عندك أولاد صغار.

- طيب. وماذا نفعل؟ هل نندفن؟

- مجهودات صغيرة لا تضرّ ولا تؤذي. تفادَ الأوقات النظامية. لا تخرج دائماً في نفس الوقت ولا تدخل في نفس الوقت..

- واستعمل باب الجامعي بفوضى، مرّة الشرقية ومرة الشمالية..

- كلش تعرفه. والله ماتحشم. المفروض أن تتفرّغ. حياتك في خطر دائم.

- واش تحب. احذر قدر ما أستطيع بدون أن أحوّل الحياة الى جحيم. إبْكِ على روحك. شْكون يفكر فيك ويعطيك تفرّغ؟

- الجامعة هذا واجبها.

- طلبنا وننتظر مثل الكثير من المواطنين الصالحين.

- ياسيدي يفرّغونك للعشرين طالباً الذين تشرف عليهم مثلاً. وهكذا تحافظ على علاقتك بالجامعة من جهة وبطلبتك وعملك من جهة ثانية.

لقد اندثر صاحبي، لكن شيئاً من العبثية صار يتحوّل في داخلي إلى نظام. رغم حزني وضيق صدري وخوفي ورعشاتي الليلية من كلّ حركة، أجد رغبة ولذة كبيرة في الصراخ والقهقهة عالياً عالياً. من ينصحني يُقتَل وأنا ما زلت حيّاً. أنا العبثي الذي ينصح بدوره أصدقاءه بعدم الانضباط بالأوقات والنزول بشكل دائم. أنا أكذب لأني أوّل من يخترق نصائحه. أعرف أنّي أكذب ولهذا أضحك. كلها نصائح سخيفة على الرغم من ضرورتها. النّاس أموات ويريدون أن

يثبتوا لأنفسهم بأنهم أحياء. العمل وسيلتهم الوحيدة لفعل ذلك. تكونت لدينا حالة عجيبة، نتكلم عن صديق قتل قبل يومين: يا ربّه لماذا ذهب إلى المطعم؟ المفروض أن لا يأتي هذا الصباح؟ وعلاش رَاحْ يخْدم وهو عارف نفسه أنه مهدد؟ أنا قلت له ماتروحْش لثمه! ثم عندما نلتفت نحو دواخلنا ونصير شفافين ندرك أنها مجرّد صدفة. الصدفة التافهة، إذ كان يمكن أن يحدث لنا، ما حدث له.

أشعر كأن هذه المدينة لم تولد لنا ولم نولد لها. الواحد فينا يعاند ويقتل الآخر. وفي النهاية لكل واحد منّا معبره وطرقه. تنغلق أبواب، تنفتح قبور، تنغلق قبور، تنفتح أبواب. عندما أيأس أتذكّر مرّة أخرى كلمات صديقي الفنان المقتول، يوسف الذي أتعبه سحر اللغة:

يا صديقي..

يا بعض صديقي..

يا كلّ صديقي..

يا أنا.

ضمَّ البحر بين يديك وارحَلْ.

خذ لونه في عينيك وهاجر.

خذ كلّ موجة هاربة منه وأخرج من هذه الدنيا.

وإذا لم تستطع خذ نحيبه وصراخه وارحل.

وإذا لم تستطع أعشقه وودعه،

رُدّ له بعض رماله وحجارته، وسافر.

وإذا لم تستطع ضع يدك في جيبك وانتحر.

كلما انغلقت الدنيا وضاقت في أعيننا انفتحت فجوات لم نحسب حسابها مطلقاً.

آخر مرّة، كنت أتهيأ للدخول إلى قاعة الأساتذة، وقفت في

وجهي إحدى طالباتي كعمود النور. جليلة. تذكرتُ ملامحها الرومانية التي كدت أن أنساها. وقبل أن أسألها أي سؤال تقليدي. واجهتني، بجرأة لم أجد لها أي إجابة مقنعة سوى خوفها الصادق علينا. اِقترحت علي مفاتيح بيتهم في شرشال. عندما عدت إلى البيت كنت منتشياً لأن الدنيا لم تغلّق أبوابها مطلقاً. انكفأت على صدري وسط هذه النعومة النادرة التي قليلاً ما أشعر بها وإنغمست في قراءة الكولونيل شابر لبالزاك. فجأة رنّ التليفون.أكره التليفون ولكنّه قدر يومي.

ـ نعم. أنا هو. من أنت؟ شْكُونْ؟

ـ طالبكم رحيم؟

ـ رحيم بودغن.

ـ أي نعم. أنهيت رسالة الدكتوراه. والبحث صار جاهزاً.

ـ جيد. أعرف هذا. سنحاول أن نجد طريقة لمناقشتك حتى لا تظلّ معلقاً. أنت تعرف أن المجلس العلمي عينّ لك لجنة المناقشة. يكثّر خيرهم. وسط هذا الموت، ما زال هناك أناسٌ يتحسسون قلوبهم ويعملون جاهدين لجعل الحياة ممكنة.

ـ لا يا أستاذ. الإشكال ليس هنا.

ـ طيب أين؟ بعض أعضاء اللجنة معجبين بالبحث ولم يبق الكثير على المناقشة؟

ـ لا بعض أعضاء اللجنة خائفين من المناقشة.

ـ أتفهم خوفهم، لكن على الأقلّ الحفاظ على الحدّ الأدنى من الشجاعة العلمية. ثم اتفقت مع الإدارة على أن تكون المناقشة مغلقة.

ـ لا. لا. المقصود هو أنتم.

أجبت بعفوية مطلقة، وطفولة، قد تقتلني يوماً.

ـ ما فهمتش. إذا كان خوفهم عليّ فأنا متحمّل مسؤولياتي حتى النهاية.

ـ لا، ليس هذا إطلاقاً. يقولون إنّكم مهدّدون وإذا شاركوا في المناقشة سيصبحون مهددين بدورهم.

ـ معقول. خائفون على أنفسهم؟! أنا أصرّ على أداء الحدّ الأدنى من واجبي وإذا أصرّوا على عدم المناقشة نغيّر اللجنة. فالرسالة جيدة وتشرف من يناقشها.

ـ ولكن أنا. أنا يا أستاذ؟ وضعيتي.

ـ لا يمكن أن تصل حالة الجبن بالناس إلى هذه الدرجة.

ـ لا. عُوضت اللجنة بلجنة أخرى ونوقشت الرسالة.

ـ أين ومتى وكيف؟ أنا لا أعلم بكل هذا. وهل قبلتَ؟

ـ ضع نفسك في مكاني. أنا أعتذر.

كانت الدنيا تدور في عيني. كدت أرتكب الحماقة القاتلة. كنت مستعدّاً للنزول إلى الجامعة ومناقشته حتى لو قُتِلت.

يبدو أن الله هذه المرة، كان معي. تماسكت.

ـ تعلّم أن لا تعتذر. عندما نقوم بشيء علينا أن نتحمل مسؤوليته حتى النهاية. أعتقد أنك لا تختلف عنهم. أكدت لي، قاعدة كنت أرفضها دائماً، هذا المجتمع لم أعد أفهمه. لقد ضيّع كلّ علاماته في الطريق. النّاس ليسوا مجبرين على الانتحار معي ولكنهم مجبرون على الحفاظ على الحدّ الأدنى من ماء الوجه.

ـ يا أستاذ، والله يوم المناقشة ذكرناك بخير. ناقشت لأنّي كنتُ مضطراً، لأن هناك منصباً شاغراً، لأستاذ محاضر اغتيل ولا أحد شغل مكانه. أريد أن أستفيد من التعليمة الوزارية الجديدة التي تنصّ على تعويض الأساتذة المغتالين أو الذين غادروا الوطن. أرجوك افهمني يا أستاذ!؟

ـ يرحم والديك اسكتْ. ارحمني يا أخي.

تمنيت أن أقول له ما أسخفك، ولكن شيئاً في خاطري منعني. النّاس يموتون. الرجال يذبحون كالأغنام ويحرقون، ويصرّون على

مقاومة تكاد تكون غريزية، ويحدثني هو عن منصب لرجل اغتيل أو اضطر إلى أن يترك بيته وناسه ويختبئ في مكان ما داخل هذه المدينة القاتلة؟ أي طالب، وأية جامعة، وأي أساتذة؟ خراب في خراب. وموت يلد موتاً آخر.

تنبهت إلى أن السماعة كانت ما تزال في يدي. أغلقتها حتى أني شعرت بأنّ أنفه قد انكسر من دهشة اكتشاف رجل متوحش ينام في أعماقي. خلته بقامته المطوية عند الأكتاف ووجهه المتفحم وهو يبحث عن كلمات أخرى لم أكن معنياً بها مطلقاً ولا قادراً على تحمّل بلاغتها البذيئة. النّاس يموتون وآخرون يتقاتلون على الفرص والأماكن؟ لأوّل مرّة تتحول الحسرة إلى كلمات مرة: ما أكثر سذاجتك يا ولد الناس. افترض أنك قتلت وهذا جائز جدّاً. والله لن يبكيك إلّا أطفالك وأحبّتك، وبعض الأصدقاء القليلين ثم تتحوّل إلى ذاكرة تموت شيئاً فشيئاً داخل زحمة الأخبار اليومية. الأنانية صارت سيدة المكان.

لا يمكن أن ينتهي هذا الوطن، بهذه الفظاعة؟! لا بدّ أن يوجد ناس طيبون ويجب أن ننحتهم من حجر إذا لم يكونوا موجودين. ثم أسمع حزناً داخلياً ينهمر كشتاء حلّ قبل وقته. رُوحْ يا ولد الناس، رُوحْ، الله يْسَهّل عْليك. روح، ما بْقى في هَذهْ البلاد لا خير ولا بَاسْ. رُوح. ارفَدْ حزامَكْ وغادر نهائياً. إلى أين أنْتَ ذاهب؟ صوب أي ماء؟ وأي ريح ساخنة؟ وأي فراغ؟ وأيّة قيامة؟ ما زلتَ صغيراً على دنيا شاخت قبل أن تكبر. ارْحَلْ. اجْرِ ولا تلتفتْ وراءك نهائياً.

أوف، أي مزبلة أنا غائص فيها.

التفتُّ يمينا وشمالاً، فجأة غيرت فكرة توقيف السيارة عند باب الجامعة نهائياً. كانت الوجوه الواقفة على أطراف شارع باستور ومنحدر الجامعة غير مريحة ومتواطئة أحياناً. أصبحتْ معظم الوجوه مكسوة بالحديد والصدأ والزنك والزفت وعلامات الهمجية. ليكن. وجدتني أتجاوز ساحة أودان، الخطوط الجوية الجزائرية، ثم أتسلّق شارع محمّد الخامس وأنعطف باتجاه زقاق صغير يمرّ تحت

جسر المدينة ويؤدي مباشرة إلى ديدوش مراد. بحثت عن نقطة صغيرة أوقف فيها السيارة، عملية عادةً شبه مستحيلة ولكن هذه المرة كان الزقاق شبه خالٍ من الحركة والسيارات والناس. أوقفت السيارة بحذر، قبل أن أدخل الشارع الخلفي المؤدي إلى سوق الفلاح لأختلط بالناس. الاختلاط يورث بعض الطمأنينة. جدّتي يرحمها الله، كانت تقول دائماً: الموت يا وليدي في الجماعة نزاهة. لم أكن أريد الموت. أختلط بالناس الشعبيين لأحيا. سعادة عظيمة أن لا يعرفك أحد على الإطلاق في هذه المدينة. كانت الأوساخ متراكمة كتلاً، كتلاً عند مدخل السوق، والناس يتقاتلون للحصول على شكارة سميد أو فارينا. كلّ واحد يحمل ثلاثة أكياس ثقيلة. واحد في اليمنى وآخر في اليسرى وثالث على الرأس، وهم يثرثرون مع المنتظرين دورهم، والواقفين بدون سبب يُذكر.

ـ شَفْتَ هفّيتْ. قُلْتُ له بللي عندي عشرة أولاد ياخُو. راهم يْقولوا بللّي الفارينا رَاحْ تنقطع.

عوّدوهم على كلّ ما يهينهم وينتهر إنسانيتهم. كسَّروهم في العمق. أيعقل أن تصل بلاد بهذا الخير، إلى هذه الحالة. النفط والتفرعين والتّزلاط والجوع؟؟

ـ ما فْهَمْتْ وَالوُ.

ـ خُذْ الفارينا وما تْحَوَّسْشِ تفهم.

لا. لا بدّ أن يكون هناك انكشارية يرضيهم هذا الخراب الكلّي. لقد وضعوا بلاداً بكاملها بين أيديهم، ثم خربوها من الداخل كالسوسة وخربوا النّاس بنفس الطريقة.

انغمست داخل المارّة العاديين، وبدأت أتتبع الوجوه والألبسة والبنايات، بخوف وجزع وأنا أتمنّى أن أصل في لحظة برقية إلى الجامعة.

لكن المسافة بين السوق والجامعة، كانت كلما خطوت خطوة إلى الأمام تزداد بُعداً وتتحوّل إلى قيامة.

2

8H - 26 MN

وضعيتنا في الجامعة ما تزال معلّقة على منقار عفريت. هل هي استراتيجية الحياة أم استراتيجية الموت القاسي؟ مديرالجامعة لم يجد في ظلّ وضع الموت هذا شيئاً جديراً بالاهتمام سوى تطبيق التعليمة الوزارية التي تمنع كلّ التفرّعات. مريم لم تستطيع كَتْم صراخها. كنّا عند مدير المعهد.

ـ واش يْحبّ، يقتلونا باش يْرَيّحْ؟

ـ يا أختي هذا قانون، والقانون يطبق ولا يناقش. قالها المدير وهو يحاول أن يتفادى عيني مريم.

ـ يا رجل، هل نمتحن بعضناً بعضاً؟ واضع القانون في بلادنا هو أوّل مَن يدوسه. خلّينا يرحم والديك. خّرّوب بلادي أعرفه مْلِيحْ.

ـ إذا لم يفعل هذا، الجامعة ستفرغ.

ـ إذا ما يحبّوهاش تفرغ فلتكن الدولة دولة.

ـ يْحَطّوا عَسَّاسّ على رَاس كلّ مواطن؟

ـ حَنُّوني. أنا كذلك إِعطني سيارة وأربعة حراس، وسآتيك في قل وقت!

ـ هذا مستحيل.

ـ مَانِيش مجنونة. أعرف أنه مستحيل. ولكن الوضعيات التي نعيشها عليهم تفهُمها. لو آتي إلى هذا المكان مرّتين متعاقبتين سأقتل. ما الفائدة إذن فيّ أن أنتحر مجاناً؟ أنا كذلك يعزّ عليّ عملي وطلبتي ولكن لا أعرف ماذا أفعل؟ ندرّس وأيدينا على صدورنا.

ـ كلنا نعرف هذا الوضع ومع ذلك نأتي إلى هنا.

ـ يا خويا أنا ما حَبَّاشْ نموت Tout bêtement.. أريد أن أعرف لماذا أُقتَل؟ أنْ أعرف وجه قاتلي، وأبرقق عينيَّ فيه جيداً.

ـ ما رَاحْ يكونْ إلّا الخير.Il faut garder le moral

ـ وَاشْ من خير؟

المدير هذه المرة عندما رآني، لم يسألني كثيراً ولكنه ابتسم كعادته وهو يفتح لي باب مكتبه.

ـ يَاخُوَيا اِرحَمْني. مارَاحْشِ دِيرْلِي كَمَا دَارَتْ لي مريم؟!

ـ يا سيدي، الوضعية وَصَلَتْ إلى درجة من التعفّن صار من الصّعب على المرء أن يلوم الآخر.

ـ تعرف، مريم كان معها حقّ. بدأت أصل إلى رَدِّ فعلها. أنا كذلك غيّرت نظام حياتي. لا أخرج دائماً. أتفادى الأوقات المضبوطة. أحاول أن أجد توليفاً مع الوضع. واشْ تحبّ. هكذا الدنيا. صرت أفكّر في المغادرة.

ـ ماذا أقول؟ جيت نَشْكِي، سَبقْني واشتكى.

ـ هذه الحقيقة التي لا نستطيع تخبئتها عن الأصدقاء. الأنانية صارت سيدة الموقف. بدأت أتعب بدوري. المعهد أصبح ملوثاً ومخيفاً جدّاً. الذين خرجوا من النافذة يعودون اليوم من البوابات الضيّقة.

كلّ التفاصيل التي كانت تشغله كنت أعرفها، ولهذا لم أقل شيئاً.

لم أجد ضرورة للدفاع عن وضعي. اعتذرت منه ثم اندفنتُ داخل قاعة الأساتذة.

العجيب، أنّي كلما دخلت إلى هذا المكان، أشعر بفراغ كبير داخل قلبي، وبهواء ساخن يعصف بالذاكرة ولا أتذكر منها إلاّ مشهد الخوف الذي روته لي زميلة أستاذة بنفس المعهد. قصّت عليّ يوماً رؤيتها وهي ترتعش من أخمص القدم حتى شعرة الرأس:

ـ تعرف أنّي أخاف الله وأنجبت أربعة أطفال وزرت بيت الله مرتين.

لم أفهم. ظلّت الدهشة تملأ عيني. فالسيدة لم تكن تعنيني كثيراً.

ـ ولكنّي لم أفهمك جدّاً.

ـ يا سيدي رأيتك في حلمي. فقد أمنّ الله بك عليّ. كنت في نفس فراشي، بالقرب منّي، ملتصقا بي. كنتُ عارية بين يديك وسعيدة. فجأة دخل علينا أربعة رجال. كانت عيونهم تبرق تحت انكسار ضوء حجرة النّوم. اتجهوا نحوك. كنتَ منهمكاً في فكّ الحروف المكتوبة على نهديّ. ظللتَ غائماً داخل الأبجديات. وقفوا وراءك. قبض عليك اثنان بإحكام، بينما لم ترفع عينيك من على صدري الذي غطّاه الدّم الذي بدأ ينزف من رقبتك. قطعوا رأسك، ثم وضعوه على الطاولة. عندما خرجوا، ومسحوا أيديهم من دمك في ألبستي الموضوعة على السرير بدأ رأسك يقهقه. ثم مددت يديك وأخذته وأرجعته إلى مكانه وأنت تنكّت كعادتك.

ـ رَاسْ الحيّ عاصي على راسْ الميّتْ. لعبتها بهم. هَاني وينَا. كما كنت.

ثمّ عدتَ الى حلمتي نهديّ وبدأت ترضع بنهم كطفل مفطوم وأنا أغيم معك في لذة أشعر بها لأوّل مرّة في حياتي.

وما كادت تنتهي من الحكاية، حتى شعرت بها تفقد توازنها. حاولت أن أمدّ يدي نحوها ولكنّي خفت من جسدها الغضّ الذي

تقول عنه أنه لرجلها وحده. لزوجها الشرعي. ولكنها تمايلت عليّ، مدّت يديها إلى قميصي وهي تقبض عليّ، ثم طوقتني. شعرت بدفئِها وبانضغاطها عليّ. بقيت مدة على هذه الوضعية، بينما ظللت أمسّد على شعرها وأطمئنها أن ما حدث هو مجرّد كابوس، رفعت وجهها صوبي. ارتشقت عيناها في عيني وهي تتمتم.

ـ تعرف بَلّي كلّ مْنَامِي يخرج.

شعرت بوخزة عميقة في القلب. أجلستها على الكرسي بصعوبة وخرجت من القاعة. صادفت في طريقي آمنة، الكاتبة، التي لا ينغلق فمها من الضحك والسخرية قالت:

ـ واش بك طايَرْ هكذا، واش صار؟

حكيت لها القصة بكل تفاصيلها. ضحكت، ثم قهقهت طويلاً.

ـ يَاوحْد الخايَبْ. رَاها مْكوُلْيَا عْلِيكْ. وجدت فرصتها لترتمي على صدرك.

ـ أنتِ هي أنتِ. لا تتغيّرين. الله يخرب بيتك.

قلتها وأنا أحاول أن أكتم ضحكةً شقتني مثل شعاع صيفي في منتصفي، ثم اندفنتُ داخل الممر الصغير الذي يؤدي مباشرة إلى باب الجامعة الرئيسي.

المكان الآن فارغ. فأنا سيده الوحيد. جميل أن يستمتع الإنسان ولو قليلاً بحقّه في الفراغ. لم أكن أرغب في الحديث مع أي شخص. فتحت النافذة، ثم شرعتها أكثر. تسرّبت رائحة النوار واللوز والأشجار التي تصطف غريبة، على أطراف شارع ديدوش مراد.

بدأت رائحة الرطوبة وخشب المكتبة والموكيت والورق، تنسحب من هذه القاعة الكبيرة تاركة مكانها للغموض والكلمات المنهكة. هي ذي لحظتي مع مريم، حيث يصمت كلّ شيئاً وتبدأ طقوس أخرى لها لغاتها وأشواقها التي لا تفهم إلّا وهي عابرة مثل الإشارات.

سحبت ورقات من محفظتي، وبدأت أخطّ رسالة لمريم داخل هذه العذوبة وهذا السحر، وهذه الدهشة الطفولية التي صارت تستعصي عليّ كثيراً.

* * *

حبيبتي.

أشواقي المعطوبة.

مريم... مجنونتي.

من أين أبدأ هذا الخوف؟

من أين أبدأ هذا الجنون، وكيف أدخل ضبابك الكثيف وغموضك المذهل؟

الساعة الآن تزحف نحو التاسعة. لا أرى شيئاً من وراء هذه النافذة المشرّعة باتّساع إلّا هذه الشجرات العملاقة المصطفّة مثل جنود منكسرين. تتمايل. أشعر بأوراقها وهي تغادرها لتتعرّى داخل هذا القفر الذي يشبه مدينة. أوّل مرّة أمضي هذه الفصول عارياً منك، من رائحتك، من ضحكك، من خوفك. تعرفين. أن جوّاً مثل هذا، وفصلاً مثل هذا، يرميني بعيداً نحو طفولتي الأولى وأنا أركض في تلك المدينة البعيدة التي علّمتني الذهول والدهشة. آخذ ورقة البلاطان. أتذكر أستاذ الرسم وكلماته الجميلة: من يعرف رسم ورقة البلاطان؟ أهجم عليه بصراخي وأصابعي. المعلّم أنا. المعلم أنا. المعلم أنا. ثم أخطّها بكل تفاصيل الرقيقة وألوانها وانكساراتها الجانبية.

ها أنذا في هذا الصباح الحزين، أراها وهي تهتزّ لرياح الشوارع التي يصلني هسيسها داخل هذه القاعة الدافئة ولا شوق لي إلّا رسم وجهك واستعادة ملامحك... وربّما بعدها تأتي استعادة تفاصيل الورقة.

أنت هناك بعيدة.

وأنا هنا، في هذا المكان، أكثر بعداً، وانتفاءً.

الساعة تزحف بقوة، نحو ما لا أرغب فيه مطلقاً. قوة الرياح في الخارج، تزداد عنفاً. أغلقت النافذة، ومع ذلك تأتيني هسهسات شجرة البلاطان العملاقة. لا بدّ أن تكون فصول هذه السنة باردة. أتمنّاك يا مريم وسط هذه الحالات الاستثنائية. أشعر بوخز داخلي، ثم أقول. ليكن. الزمن صعب. لنخرج منه بانكسارات أقلّ في الظهر وبرؤوس مرفوعة ولو قليلاً.

هذا اليوم الخريفي، يعطيني رغبة قصوى للتجوّل داخل المدينة، للمغامرة داخل شرايينها، لكنكِ بعيدة. ثم أقول في خاطري. ليكن، سأتخيّلك وسأعشقك. أتدحرج معك داخل كلّ التفاصيل الممنوعة، لكن خوفاً يخرصني فجأة، فتملأني برودة لا أدري من أين كانت تأتي.

تصوّري يا مريم، أنا المحب لك ولهذه المدينة، وللحياة، لم يعد الموت يعنيني كثيراً. لقد صار يأكل معي في نفس الإناء، ويشرب في نفس الكأس التي أشرب فيها. أراه ويراني، ألعنه، ويلعنني، أسخر منه، يكزّ أسنانه.

الشجرة العملاقة المواجهة للنافذة، ما تزال من حين لآخر تنقر الزجاج، تهتزّ، تتسامق، تريد أن تدخل هذه القاعة. أفتح النافذة مرّة أخرى. تدخل رائحة الورق دفعة واحدة، والأتربة والمطر.

يا الله. للمطر رائحة في هذه البلاد. مثل تلك البلاد التي صارت بعيدة عندما كنّا ننزل إلى ساحاتها، نتخبأ تحت ألبستنا من غزارة الأمطار، ونصرخ بأعلى أصواتنا ونحن نمسح ماء الأنف الذي يسيل بكثافة على الشفة العليا:

يا النَوّصبّي.

ما تصبّيش عليّ.

حتّى يجي خُويَا حَمُّو.

ويغطيّني بالزّربية.

ما أجمل مدننا حتى في لحظات قفرها وتصحرها، ما أجمل نساءنا ونوافذ بيوتنا العتيقة، ما أجمل شوارعنا وروائح الأتربة التي يعطّرها المطر. لقد ربينا على الأفراح الصغيرة والاندهاشات التي لا تتركنا حتى لحظة الموت، من كلّ ما هو استثنائي.

كيف أنتِ اليوم؟ كيف ستواجهين الصباح. لا بدّ أن يكون خوفك أكثر من خوفي. فأنا أعيش هذا الخوف في التفاصيل وأنتِ تعيشينه داخل نشرات الأخبار والصحف اليومية التي تضخّم استشهاداتنا اليومية البسيطة وموتنا المتكرّر. هل تتذكرين ما أتذكّره، هل تعرفين أننا مجبرون على إدمان أقراص الأمل حتى لا نموت بالشّهقة القاتلة، وحتى عندما يتحوّل الأمل مجرّد حلم نتشبث به في الفراغ.

صدقيني أنّي أسمع صوتك داخل نقرات هذا المطر. أحزن. أشعر بغربة كبيرة. أصرخ بحسرة. يا الله لماذا ضيّعتنا الأسئلة وتُهنا داخل الأجوبة المستحيلة؟ لماذا لم نأخذ الحياة من رقبتها كما تسلّمناها منذ أوّل لحظة، ونُدخِلها معنا في نفس فراشنا، ونذيقها خلوتنا وفراغنا وخوفنا بدل أن ندخل معها في عراك لا يُفضي إلاّ إلى موت مؤكّد.

أتساءل وأنا أستحضرك داخل هذه الغمرة التي لا أدري إن كانت حزناً أم سعادة.

ماذا تفعلين الآن؟

ماذا تقرئين؟

ماذا تكتبين؟

أو بكل بساطة، ماذا تفعلين؟

أنا سعيد بهذه الحالة المؤذية. أحبّ الأوراق والحبر والأقلام، والألوان البنفسجية. أحلم بيأس أن أقبض على هذه اللحظة وأنت

معي. لا أستطيع أن أستحضرك وأنا أعبر دروب الخوف ورعشة الموت. ماذا سيحدث بعد قليل؟ هل سيسعفني الحظ لأضع الرسالة في صندوق البريد؟ أم ستمتصني رصاصة طائشة؟ حتى هذه اللحظة لا أعرف ما سيحدث بعد قليل. الشيء الوحيد المؤكد، أنّي سأخرج من هنا باتجاه مسالك المدينة ومعابرها الصغيرة علّني أمرّ بدون أن أثير أي انتباه. مشاريعي كثيرة، ولكنّي معطوب الجنون.

الحلم لا قيمة له في غيابك ومع ذلك لا أملك داخل هذا الموت إلّا أن أحلم، وأحلم باستمرار حتى لا أنقرض مثل حيوان خرافي. تصوري! أخالني ديناصوراً كان يُفترض أن ينقرض ولكنه عن طريق الصدفة بقي حيّاً حتى إشعار آخر. فصيلتي تنقرض بهدوء وبصمت الجميع. أصدقائي يموتون الواحد بعد الآخر، وأنا أبحث عبثاً عمّا يمكن أن يعطي استمراراً لحياتي في الكتابة. تخيّلي ديناصوراً يكتب، ويكتب فقط لكي لا ينقرض.

حبيبتي.

فرحتي.

بعض شقائي وما تبقى من حلمي.

مَرْيُومَا...

في القلب أشياء كثيرة ولكنها تستعصي على الخروج.

يا ترى، هل سيحالفنا حظّ منسي، لنشرب كأساً مسروقة على هذه الأرض التي صارت بعيدة، هل سيعطينا القتلة مهلة لنتعرّى ونقرأ بعيون الأطفال أوشام أجسادنا؟ هل سيُكتب لي مرّة أخرى أن أستمع إلى تقطّعات تنهّداتك وهي تتمزق على صدري ونقبض بجنون على أهبَل لحظة مشعّة في أعماقنا؟ هل سيمكّنني بعد اليوم أن أمدّ يدي إليك وأدخلك دفعة واحدة في قلبي وذاكرتي؟ هل سأشعل من جديد سجارتك وأنقر كأسك وأنا أضحك بأعلى صوتي: هاه نكاية في أولاد القبحة! لنشرب حتى العمى، بل حتى يرث صاحب هذه الأرض تربته، بدون ندم أو ندب. هل سنقطع معاً معابر هذه المدينة،

وطريق الساحل ونحن في السيارة، نقصّ الحكايات ونضحك ونتمتع بالأمطار؟ هل سأقبض على يدك ونقطع أطول شارع في هذه المدينة بلذّة استثنائية؟

هل سيسعفني الموت لأراك ثانية مثلما أشتهي؟

أسألك بيأس وخوف، أي حرف أركب؟ أي لغة ألبس لألمس قلبك وتعرفين أنّي أحبك وأني وحيد مثل الفجوة في بحر خسر كلّ ألوانه؟

تندفع في أعماقي حجارات قريتي البيضاء المتفانية في ظلّ جبل يطلّ عليها من فوق، وصوت القطارات الخشبية التي كلما سمعتُ صفيرها، اختبأتُ من وراء الصخور خوفاً من أن تسحبني في أثرها، ووجه المدينة الساحلية المعلّقة كشعاع لا يموت في عمق ذاكرة ترتعش كلما لامَسَتْها موجة هاربة أو لحظة ذهول.

ماذا أقول؟ تقولين: تكلّم، فأنا أتلذذ بالاستماع إلى أبجدياتك الخائفة. ها أنذا أقول. هل أستطيع تخيّل لحظات الفاجعة في غيابك؟ إني أشعر بحريقك أنت التي تعيشين لقلق عظيم اسمه «أنا». «أنا» الذي ينزلق بين الرعشة والرعشة والخوف والخوف، والدهشة والدهشة، ثم فجأة تسمعين أصواتاً جافة. رشقات رصاص. لا. الرصاص هناك وليس هنا. يأتيك من مكان ليس بعيد. تفتحين النافذة، تبدو لك مدينة باريس غارقة في ألوانها واحتفالاتها. تلعنين فجأة ربّ هذا الجيل ـ اللعنة الذي اختار الحرائق والموت. هو هناك وأنا هنا. أتخيّل وجوده واحتراقاته، أي حياة؟ رجل أعشقه وهو مستحيل، لا ألقاه حتى في الحلم بحرية؟

مريم، ما هذه الرعود؟ ما هذه الأمطار العاصفة التي تنقر الزجاج بقوة؟ إنها اللحظة تماماً، التي أتأمل فيها بهدوء وصمت. أعشق هذه الحالة لكنّي عاجز عن تحمّل هذا الجمال الموحش كله، لوحدي، أنا هكذا، مثلما كنت تقولين عنّي دائماً بابتسامة ماكرة:

– Grand mais trop fragile pour supporter, tout seul une vie aussi dure.

أضحك معك ببلاهة ولا أسألك، وكم أتمنّى الآن أن لا أسألك مطلقاً وأن أعوض كلّ سؤال برعشة قبلة. أتبعثر كلما سمعت قطعة موسيقية شفافة، أو غرقت في لون بنفسجي، أو صاحبت في الطيران، نورساً هارباً من بندقية صياد أعمى، كان يتأمل البحر من سماء كلما عبرها، شعر بعمقها واتساع فراغها.

في هذه البلاد، أشعر كأن لا شيء تغيّر مطلقاً. ما زلت على هذه الحافّة المؤدية إلى الفراغ. فراغ يشبه شاطئاً أو بحراً منسياً، ارسم أوجهاً وعلامات للمستحيل داخل الغيمة التي نفرت من فضاءاتها. أحياناً أقول، هذه اللغة ما أدهشها مثل الحماقة تماماً لا حدود للذتها، من 28 حرفاً فقط أصنعك. أحبّك. أعبدك. أبنيك كلمة كلمة، ولحظة لحظة. أُدْخِلكِ الذاكرة وأُخْرِجُكِ. من 28 حرفا فقط أكتب روايات عنك وعن حزنك وأصنع أدوات العبادة والصبابة والخوف وجمل الحنين. هي ذي اللغة القاسية، عندما ينتهي وخزها، تموت. لغة لا تذكرني بقساوة الوحدة وبرودتها، وضياع البلاد والعباد، تستأهل أن توضع في النار أو تُردم حيّة. هي ذي. أحسّها إذ تأتيني مرتعشة مثل بحر يغمرني دفعة واحدة بزرقته. أسمع رعشتها ودمدماتها، تتسلّل إلى فراشي، تمتماتها تملأ أذنيّ. آي! أنا مثلك بردانة. ضعني داخل صدرك. أمدُّ يدي إلى شفاهها. أقول بهدوء. أشّششـ..... خذي راحتك بصمت. أنساب مثل الماء الدافئ النازل من الوديان الموحشة. إني أقرأ في عينيك كلّ حيراتك. لا أريد أن أعرف من أين جئتِ ولا من تكوني؟ أعرف أنك مثل الزمن الذي يتآكل على جدران المدينة؟

مريم. أضع يدي على قلبي. أحاول أن أقرأ تفاصيلك لحظة، لحظة. قطعة، قطعة. شوقاً، شوقاً، أخاف عليك جدّاً من قلبي، عندما يتعلّق يصير حزيناً وتائهاً. عندما يحبّ، يفقد رزانته ويصير طفلاً.

عندما يكتب شعراً، يصير حزيناً.

عندما يكون هو، يصير حزيناً.

عندما يمتلئ بك يصير حزيناً.

عندما يشتهي دروب هذه المدينة المسروقة ومطاعمها، يصير حزيناً.

عندما يعرف أنه سينتهي مبكّراً عند عتبات هذه البلاد التي خسرت كلّ علاماتها، يصير حزيناً.

عندما ينتابه اليقين، بأنه سيرمّل قلبك مبكراً، يصير حزيناً.

وعندما يرفع كأسك ولا يجدك، يصير حزيناً.

مع كلّ هذا وذاك، لا يضيّع أفراحه الصغيرة. يعرف موته، ومكانه، وميقاته ولهذا فهو يركض مجنوناً نحوك.

هل قلتُ ما أنوي قوله لكِ؟

وهل عندما جلست على الطاولة، كنت أعرف ماذا سأقول وأنا أفتح النافذة على شارع المدينة وعلى شجرات البلاطان العملاقة؟

هذه الليلة لم أنَم جيداً. يبدو أنّي لم أنم مطلقاً. كنت حزيناً، لا أدري بالضبط لماذا. ربّما لأنّي أحياناً أصير أنانياً وأتمنّاك أن تكوني معي. هذه المدينة كلّ يوم تسرق منّي قليلاً، وغيابك يجعلها معشوقة مستحيلة.

أتذكر كلمات صديقتي الطبية النفسانية إيماش.

– Tu sais mon ami, dans ce pays, on est devenu tous des cas pathologiques

أقفز أحياناً من نومي مذعوراً، بعد كابوس خرافي. أبحث عنك. أتساءل داخل حيرتي وقلقي. قبل قليل كنتِ هـهنا!؟ أين أنت الآن؟ أين تختبئين؟ حتى مكانك في الفراش ما يزال دافئاً. ثم أستعيد هدوئي شيئاً فشيئاً مع مرور حالة الهذيان والسكر. أنت بعيدة ولكنك هاهنا، داخل القلب المرتّق مثل خرقة بالية ترفض أن تموت. إني أصرّ وأرفض هذا المصير الذي يوضع على رؤوسنا شيئاً فشيئاً، وبصمت وسكينة. لم نُصنَع لهذا القدر. فهو ليس لنا. معك

أرفضه وأرفض أن أدخل عالماً يشتهي أن يكون على غير ما هو عليه.

مريم. حرقة هذا المنفى وخبل الضائع المجنون.

ماذا تفعلين الآن؟ كيف تعيشين هذه البرودة والغيمات المثقلة، أنت عاشقة البحر والشمس؟ كيف تخرجين وكيف تدخلين؟ أمّا زلت تتذكرين خرجاتنا التي صرت أعيشها اليوم لوحدي، كيف كنّا نخرج صباحاً ونحن نضع أيدينا على قلوبنا، أو في جيبي الأيمن وأنا أتحسس شنشنات دينارات ميّتة، معطياً الإحساس لمشاهدي الذي لا أراه بأني مسلّح، ربّما غيّر استراتيجيته وابتعد عنّي وعنك؟ هل تواجهين الموت مثلي كل صباح؟ أحياناً عندما ننسى طقوسنا القاسية نتبلّد ونشعر كأننا لم نُصنع لهذا الخوف. تصوري؟ أنا داخل المدينة وأشتاق بجنون لها. ألعن كلّ هذا الرعب أحياناً وأحلم بعبورها زقاقاً زقاقاً، وشارعاً، شارعاً، لكن عينيّ ريما تقهرانني. تقول لي بصوت عاقل وهادئ.

ـ لماذا يا بابا؟ أنت لا تخسر شيئاً عندما تتنكّر.

يا ريما، عندما أتنكّر، أصير امرءاً آخر، يعبر مدينة لا يعرفها ولا تعرفه. جرّبت هذا بدون جدوى وما زلت أجربه. يعبر النّاس من أمامي بعضهم أعرفه، ويمرّ سريعاً. لا أوقفه على الرغم من أنّي كالعلامة وسط خرابٍ مقتول. وبعضهم الآخر. يتوقف فجأة عند قدميّ. يتفرسني قليلاً، ثم ينسحب وهو يعتذر.

ـ العفو أخي... كنت أظنّك...

ثم يندفن داخل الأجساد المتراصة داخل الشارع. أعرف ملامحه وأبذل مجهوداً لنسيان هذه المدينة التي بدأت تعيش عادات سيّئة لا عهد لي بها، أن أتخبأ داخل جسدي إن أمكن، أن أنسى صوتي وذاكرتي، أن أولد في اللحظة ذاتها التي يفاجئني فيها اعتذار صديق ما. هل مصير العاشق أيتها الحبيبة البعيدة أن يموت مشتاقاً ومحزوناً؟

في أي شيء تفكرين الآن؟ في هذا الخوف الذي أعيشه أو في مدينة تسحبك بالقوة نحو فضائها وسحرها؟ أما يزال في قلبك ذلك الرّجل الذي عبر ذات يوم جهنّم بكاملها ليصل إليك وهو لا يحمل شيئاً؟ عندما نلتقي في حاضرنا، نحرقه بالأسئلة عن الماضي وعندما يصير الحاضر ماضياً منكسراً، نتشوّق لأصغر لحظاته. هل هو قدر العاشق، أم قدر الكتابة ذاتها، أكُتِبتْ علينا لعنة الإستقرار على نار البراكين والخوف والحنين؟

يبدو أن هذا الهمّ سيطول كثيراً، كثيراً، حتى يأكل الأخضر واليابس. لا أحد يدري، ماذا سيكون بعد هذا الجحيم؟ بدأت أعوّد نفسي على الجلوس وحيداً داخل كلّ المخابئ التي تقاسمناها سويّاً. أعدّ الأيام بمزيد من اليأس والإصرار. أعدّ الطيور التي رغم قتامة السماء لم توقف وقوقاتها مطلقاً.

أنسى. أو أحاول أن أنسى لأسعد للحظة وحتى لا أخسر توازني نهائياً، لكن كلما حاولت فتح عينيّ عن آخرهما بعد سكرة مجنونة، أتلمّس هول الفاجعة. هل تعرف هذه البلاد التي تعوّدت على الموت، أن ما يحدث بها، كارثة؟ لقد تساقط الكثيرون في عزّ الغفلة والدهشة، الأرصفة التي كانت تحمي خطاهم من الموت صمتت. المقاهي التي شربوا فيها قهوتهم المظلمة، اندثرت أو سكّرت أبوابها. المسافات التي كانوا يقطعونها يومياً داخل شرايين المدينة القديمة تقلصت وصارت مربعاً ضيّقاً عاجزاً عن حمايتنا. ومع ذلك كلما عزمت على اختراق الدروب الضيقة شعرت بأصواتهم التي لا تموت في كلّ مكان: ها هنا تضاحكوا طويلاً على نكتة انزلقت من أكثرهم صمتاً. وها هنا شربوا شايهم وقهوتهم ثمّ انسحبوا نحو أقرب بارٍ نكاية في الموت الذي يتربّص بهم في كلّ مكان. ثم ها هنا، في هذه الزاوية سمع الكثيرون صراخاتهم الممزوجة برشقات الرصاص، فأغلقوا نوافذهم وتأملوا المشهد من وراء فجوات الأخشاب. يلومهم الأصدقاء البعيدون. يا ربّهم وعلاشْ خرجوا وهم مهددون؟ وماذا كان يمكنهم أن يفعلوا؟ أن يموتوا داخل حفرة مثل

الفئران؟ المجنون في حاجة ماسة الى أن يصدق نفسه من حين لآخر بأنه أعقل النّاس حتى يستطيع الخروج، في حاجة كذلك لأن يضحك من سذاجة الآخرين ومن طفولتهم وهم يبحثون عن خطاهم الضائعة ومن خوف الوحدة ورعشاتها.

مريم. لو تعرفين الآن ضخامة الشعلة التي تسكنني!

بي شوق مذهل إلى كلّ الدنيا التي غادرتها وغادرتني. بي شوق لصوتك، ولعينيك، ولجسدك، لحزنك، لعزلتنا، لحميمياتنا الصغيرة ولخوفك عليّ، ناسية ثقل المأساة التي تحملينها على رقبتك. بي حزن لا يُحدّ من هذه الدنيا التي تفتك بجسدي كلما لمستها أو اقتربت منها. إنها طاغية بعض الشيء. وتدهشني ألوانها وإشاراتها الخجولة التي تضحكني أحياناً سذاجتها. ثمّ أقول في خاطري إذ أتذكرك بقساوة: آه يا ربّك ما أوحش هذه الوحدة. ماذا لو كنتِ هنا؟ أليست فرصة مذهلة للضحك والسخرية. هذه المدينة تأسرني بذكائها وخبلها، بسحرها الجميل، وكذبها اليومي.

أحزن عندما أكتشف نفسي متمترساً، متنكّراً، داخل زاوية لا أعرفها، ولا أتذكر أنّي عبرتها ذات يوم. أحزن، لأن بلادي التي في قلبي، ومراهقاتي الأولى، تتخلّى عنّي دفعة واحدة. المدينة التي تعارفنا فيها لأوّل مرة، تنسانا بقساوة يصعب علينا تحمّلها.

الكثير من أصدقائي ماتوا. أعرف أنك حزنتِ وأنت تقرئين أخبارهم وتستعيدين صورهم. لمستِ وجوههم التي صارت فجأة رمادية. لمستِ عيونهم المغلقة التي لن تنفتح أبداً، وجراحاتهم، وبقايا الدّم المتجمد على وجوههم.

كم تمنّيت أن أرجع إلى الوراء ولا أرى ذلك، وأن أحتفظ بآخر صور البشاشة والجنون التي أعرفها عنهم. لست أدري لماذا ننتظر موتهم لندرك كم كنّا مخطئين. ألم يكن من الأفضل أن نعيشهم بعمق قبل اندثارهم كالحكاية الجميلة؟ أعرفك جيداً. أتخيلك وأنتِ تقرئين الجرائد الوطنية التي تباع هناك، تبحثين من وراء صور المغتالين

عن وجهي الذي تأتيك ملامحه دفعة واحدة وهو يئن تحت رصاصات لم تكن طائشة ولكنها كانت تعرف جيداً طريدتها.

كلما تذكرتك داخل هذه المدينة المتهالكة يومياً وداخل جنوني وحماقاتي وأشواقي، أقول في خاطري، هل تتملكين، بعد كلّ هذا اليأس، القدرة على مقاومة خوف المدن البعيدة والمنفى القاتل؟ وهل ستصبرين على أضواء، وأشعّة، ولون البحر في مدينتنا التي ضمّت كلّ أحزاننا وأفراحنا الصغيرة؟

قلت لك ذات مرة بيأس، تصوّري! لقد خسرتُ الحلم بالألوان. لم أعد أرى إلّا الأبيض والأسود. ضحكتِ طويلاً. قلتِ: أمّا أنا فلم أعد أرى شيئاً وعندما أرى، لا أعرف مطلقاً ما رأيت، يبدو أنّي أعيش بتوقيت الوطن.

المدينة هاهنا، توهمنا أحياناً بطمأنينة زائفة. طمأنينة القاتل لضحيّته. أقاومها كلما شعرت بغمرة النوم، رفضتها. لأشدّ ما أخشى أن أموت نائماً. أعيش معك بتوقيت كلّ المصاعب والإنشغالات.

ما العمل إذن؟

لا جواب لي، سوى التفكير أحياناً بجنون كبير بالذهاب إلى أقرب مطار والسّفر في أوّل طائرة إلى جهة مجهولة. ثم أقول في خاطري إنها مخاطرة المراهقين، ولكن من قال أن المراهقة شتيمة؟ هي لحظة الحماس المطلق لكل الأشياء الجميلة لدرجة الجنون.

الكاتب والعاشق يتداخلان فيّ.

أنتِ التي لا عقل لها مثلي.

أنتِ انتحاري السعيد.

هل تذكرين ذلك الأسبوع الذي مزّقَنا أنتِ في دنيا وأنا في أخرى. بِتِّ عند صديق وبتُّ أنا في نزل مجهول داخل المدينة. في ذلك اليوم كنّا متأكّدَيْن أننّا خرجنا من موت أكيد. مع ذلك، في اليوم

الموالي أتيتك إلى البيت وأنا أُدْرك مسبقاً مخاطرات الموت التي تقف عند الباب. أتساءل في الطريق وأنا قادمٌ عندك. قد يخرج أحدهم من وراء الباب ويرشق في صدرينا سكّيناً صدئاً. ثم أقول في خاطري ليكن. ها أننذا أموت بين يديك، نكاية فيهم. فرصتي الأخيرة لأقول لك أحبك. فليفعلوا ما بدا لهم. لي، عيناك المشعّتان المبلّلتان بتكسّرات دموع مرهقة. لي مريم عندما تخسرني المدينة.

أنا الآن في حاجة إليك. حاجة مجنونة إلى صمتك. إلى صراخك. إلى قلقك منّي وخوفك عليّ. إلى شتائمك. إلى غيرتك. إلى تقطّعات أنفاسك على صدري. إلى كلماتك التي تنزلق داخل الكف كحبات الرمل الساخنة. كالجمرات التي لا يموت اتّقادها. إلى زعلك وأنت تهربين بعينيك صوب البحر. تصرخين. عَفْني يَرْحَمْ والديك. تعبتُ منكَ. خلّيني في حالي. عندما نلتقي ثانية بعد فراق يوم حزين، أقصّ عليك آخر نكتة سمعتها في مدينة لا تعرف التنكيت. تكتمين الضحكة. أتمادى في كشف خبايا النكتة. تصطنعين صرامة غير مقنعة ثم سرعان ما تنكسرين وتنسين أننا كنّا متخاصمين مثل صبيين. نقهقه. نموت ضحكاً. ثم ننسى عندما تتقاطع بيننا الضحكات والحكايات ثم تمتمين في أذني.

- أليس عبثاً، تضييع كلّ هذا الزمن، في سخافات لا معنى لها. الموت يتربص في كلّ الزوايا ولا نملك قدرة أخرى لمقاومته إلّا الحياة والإصرار عليها باستمرار.

إني أتنفس كلّ هذه الحكايات والضحكات. أتنفس البارات التي شربنا فيها كؤوسنا الأولى، والحدائق التي سرقنا قُبَلنا داخلها قبل الطفولة. أتنفّس هذه الشوارع وهذه المدينة. تنتابني لذة الكتابة ولكنها لا تطاوعني بسهولة. الكلمات تستعصي مثل الفرحة في هذه البلاد. ماذا يبقى للإنسان عندما يخسر أشواقه وأحبابه وألوانه؟ كلّ شيء يخرج الآن من دمي مدجّجاً بالخوف والضّغينة والحب والغموض.

بُعدُكِ يرميني إلى بُعْد آخر يشبه فراغات الذاكرة. يملأني في غفلتي هذه، صوت أليس فيتوسي. يأتي من بعيد، يبحث عن حيطان المدينة الضائعة، مملوءاً بالقهر والحنين. لو تعرفين! لقد سرقوا الأشواق، والنور وها هم يبيدون الذاكرة قطعة قطعة ويأكلونها بهدوء وثبات كدود الخشب. أين اختبأتْ أليس فيتوسي كلّ هذا الزمن؟ كانت جدتي في ذلك الزمن البعيد كلما حزنت، تحرّك الغَنّاية بيدها النحيفة، ثم تدير «المانيفال» دقيقة، وبعدها تنزل رأس الشوكة على الأسطوانة التي تبدأ في نحيبها. جدّتي لم تكن تعرف أن أليس ابنة قسنطينة، لكنّها كانت تدرك جيداً أن صوتها يحفر قلبها كلما سمعتها. أين اختبأت أليس كلّ هذا الزمن. ثلاثين سنة وهي ممنوعة في الإذاعة والتلفزيون. من أعطى الحق لحكامنا الوطنيين أن يمنعونا من أصوات بلادنا. ألم يكن من الأفضل أن أستمع إلى هذا الأنين قبل ثلاثين سنة. لم يصنعوا لنا ذاكرة، بل قعراً محشواً بالرّماد والظلام والخوف. كم من الضغينات سكنت أعماقنا بجهل؟ ألم يكن من الأخف أن نسمع حنيننا داخل أرضنا قبل أن يتحوّل كلّ شيء إلى منفى ونتحول نحن إلى باحثين عن توازن ما.

هذه المرة كذلك سأكون وحيداً وأكتشف هذه الأسرار الصغيرة وأدعك وحدك للكتابة والبعد والجروح. وأتنكّر أنا داخل مدينة متنكّرة عن آخرها.

أتنكر آخر التفاصيل. آخر مرّة التقينا في باريس. وتوفيت عمّتي، قلت أنا أعرفك. سافِرْ. وسافرت أنا وريما. وبقيتِ مع ياسين. كنتِ معي في المطار حزينة بشقاء كبير. اكتشف داخل جنازة الصمت وجهك من جديد. كنتِ مرهقة. عيناك كئيبتان. ثم وضعت رأسك بين يديك وقلتِ.

- اذهب، ما دام هذا خيارك الوحيد والأوحد.

- وهل نملك غير هذا الحلّ؟

ـ تملك غيره لو تشاء. اذهب. احضر الجنازة، وعُدْ مع ريما. ولكنك من هذه الناحية مغلق جدّاً.

ها أنذا أصرخ بمنتهى قلبي. لست سعيداً. لست سعيداً. ولكن لا خيار لي غير العيش داخل هذه الحيطان الهرمة وهذه الوجوه التي فقدت الكثير من ألقها. أحاول أن أنسى التفاصيل. أن أغرق في اللون، والكتابة عن آخري. لم يبق الشيء الكثير في هذا العمر المرهق. الوحدة تضخّم حالة الألم وتزيد من حدّتها ومن حدة صفائها، وشفافيتها. أحبّ هذا الفضاء الذي يغرقني في غيمة أو في كأس نبيذ وطني. أحبّ أن أنتحر داخل جحيم امرأة بدل العيش في جنة رجالية تافهة. أحب أن أندثر بين نهدي معشوقة مستحيلة كاللغة أو كاللعنة.

هل يعرف القتلة قوة هذه السعادة؟ لا أعتقد. لو عرفوها لما قَتَلُوا. سيضحكون كثيراً من غبائنا عندما يسمعون حكاياتنا، ولكننا نحن كذلك سنضحك، وربّما نبكي من ضحكهم علينا.

آه لو يعرفون. ولكنهم لا يعرفون.

حبيبك دائماً. في غيابك وفي حضورك.

ذات حزن،

ذات غربة،

ذات منفى،

ذات وطن في القلب والذاكرة

ذات امرأة في قلبي ودمي.

ذات شعلة لا تنطفئ أبداً.

مجنونك المجنون بجنونك

3

9H - 12 MN

عليّ أن أنزل إلى مكتبة شاراس. مريم طلبت منّي أن أبعث لها كتاب *علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم*. مليون عصفور بحجرة واحدة، ولكن عليّ قبل ذلك القيام بمهمّة وضع الرسالة في البريد وبعدها تتضح بقية الأمور. إذا لم أبعثها اليوم ستبقى معي شهراً آخر مثل العديد من الرسائل.

الطريق الممتدّ من الجامعة المركزية إلى البريد ليس بعيداً ولكنه نفسياً مسافة يُحسب حسابها. يقتضي ذلك عبور شارع باستور بكامله من الجهة العليا، الأكثر أمناً، ثم البتْزريا التي كنّا نتوقف عندها أنا ومريم في منتصف النهار عندما نشتغل بالجامعة، ثم نزل *ألبير الأوّل* ومنه نعرّج باتجاه مكتبة الحزب لنجد نفسنا وجهاً لوجه أمام البناية التركية الجميلة التي حُوّلت إلى بريد مركزي بهندستها وتخطيطاتها الداخلية وإيقاعاتها النادرة وارتفاع أعمدتها الرخامية المذهلة. المشكل في ناس هذه المدينة، أنهم لا يرفعون رؤوسهم إلّا نادراً. عندما نقف عند بوابتها، نجبر على المرور على الحارس المتكاسل الذي يغلق كلّ المعابر، ولا يفتحها إلّا بعد تفتيش الحقائب بعينيه أو بيديه. يتلذذ أكثر بلمس حقائب النساء وفتحها عن آخرها وأحياناً يفرغها من كلّ تفاصيلها. ينعزل

في زاوية مع المعنية في حديث، لماذا هذه ولماذا تلك والناس يدخلون بدون أسئلة ريثما يلتصق بامرأة أخرى. أقسم في خاطري: وحق ربّي لو كانت لدينا مافيا منظمة وذكية، لفجرت البلاد بكاملها من خلال مجموعة صغيرة، في ظلّ هذه الفوضى، لكن الحمد لله. مافيتنا مثلنا جميعاً، مصابة بعجز الرداءة الوطنية وبالتخلّف المعمّم. صمّمت على بعث هذه الرسالة بنفسي. كان يمكن أن أبعثها مع إحدى طالباتي، لكن دائماً أقول، مريم كبيرة، تستحق على الأقلّ هذه المغامرة المجنونة. لم تكن هناك زحمة كبيرة داخل البريد. كان النّاس منتظمين في سلسلة، ينتظرون دورهم بهدوء وتعقل غريبين عن هذه الأرض. كان بائع الطوابع ملتحياً، ممّا ولّد لدي حالة من الحذر، لكنّه هو لم يكن يرفع رأسه إلّا قليلاً إمّا لتسلّم النقود، أو لبيع الطوابع التي يخبئها بشكل منتظم بحسب أسعارها داخل ملف كارتوني أسود. في لحظة ما قرأت في عينيه رغبات مدفونة لم أستطع تحديدها. لا أدري إذا كانت حقيقية كذلك، أم أنا الذي تخيلت وجودها. فالبريد عصب المدينة وأول ما قام به القتلة هو اختراقه. استراتيجية تدمير الدولة من داخلها. عندما أعلنت وزارة الداخلية عن نتائج الإنتخابات التشريعية، فعلت ذلك بعد القَتَلَةِ بأكثر من ساعتين، فقد كانوا يملكون تفاصيل الاتصالات بين أيديهم. دولة داخل دولة.

لست أدري ما الذي ذكّرني بفضيلة مديرة المتحف الوطني للفنون. امرأة تشبه سيدة الرخام في صلابتها. بعد العديد من رسائل التهديد ودخولها في شبه سرّية تامّة، وصلها ذات صباح إشعار بريدي لاستلام طرد. في البداية لم يساورها أيّ شك، ولكنّها سرعان ما بدأت التساؤلات تملأ مخّها. من يبعث لها على هذا العنوان القديم بعدما غيّرت كلّ شيء وأعلمت الأصدقاء؟ طلبت من صديق أن ينتظرها بسيارته في البريد المركزي بينما ركبت هي في تاكسي. في البريد عندما سلّمتِ الإشعار للعامل، تأمّلها طويلاً قبل أن

يوشوش في أذن زميل له. ثمّ الثاني باتجاه عامل ثالث. وعندما التحق بهم العامل الرئيسي، تراجعت الى الوراء نحو التواليت وغادرت المكان بسرعة بعد أن تنكّرت بحجاب. الصديق الذي تواعدت معه لم يعرفها إلّا بصعوبة. ركبتْ معه وبسرعة غادرا البريد المركزي. في اليوم نفسه بعثت الى وزير الثقافة برسالة استقالتها من عملها كمديرة لتنبيهه بخطورة الوضع خصوصاً وأنّ المتحف مهدّد بالحرق، بعدما فشلت مرارا في رؤيته. كانت الحادثة القشّة التي قسمت ظهر البعير.

ـ تكلّمتُ له في الرسالة عن كلّ التفاصيل التي تشغلني كمواطنة وتشغل المتحف الوطني للفنون. حتى عن المافيا المحيطة به والتي منعتني بكلّ السبل من رؤيته والحديث إليه مباشرة.

في الحقيقة لم أكن أنوي ترك المتحف، لكن يبدو أنها جاءتهم على قلوبهم. كانوا ينتظرون ذلك. لم يطلب منّي أحد التراجع عن استقالتي. في الصباح الموالي كان المعينَّ الجديد من طرف الوزارة يطلب منّي تسليم كلّ المفاتيح للسكرتيرة والذهاب بالسلامة. لم يسأل حتى عن جَرْدٍ أولي لمحتويات المتحف، هذه الذخيرة الوطنية التي بدأت تتآكل شيئاً فشيئاً. ولكنه كتب في الرسالة الموجهة لي.

إن ظروفنا قاسية. والبلاد اليوم تحتاج إلى رجال قادرين وليس إلى أنصاف رجال.

لم أعلّق كثيراً. كنت حزينة على هذه الدرّة الثمينة التي كانت تملأ المدينة نوراً.المتحف الوطني للفنون الجميلة.

أصبحت اليوم أفكر في مغادرة البلاد. وعندما سألتها، إلى أين. قالت، حتى إلى جهنّم، ليس الأمر مهمّاً على الإطلاق. نموت من أجل من؟ أتخيّلهم أحياناً عصابة من قطّاع الطرق ومن القتلة، محوّطين بطاولة قديمة غُطّيت كلّ كسوراتها وحفرها بغلاف أخضر من كتّان الحرير الاصطناعي. بين أيديهم قوائم متضاربة. يتداولون

على الأسماء، ثم فجأة يتوّقفون عند الاسم الذي تجب تصفيته. وكلّ الأماكن صالحة. في مسجد. في زاوية، داخل البريد، في غابة، في فِلل جميلة، وربّما في وزارة كهذه، ما الذي يمنع؟ كنت غارقاً في حكاية فضيلة، فجأة نبهني رجل البريد الملتحي، الذي يبيع الطوابع البريدية.

- واش آ السّي موح؟ إذا ما عندك وَالوُ أُخرج من الصف، خلّ النّاس يفوتُوا.

- طابع بريدي يرحم والديك، أنْتا ع فْرنْسا.

سلّمني الطابع. سلمته الدراهم ثم خرجت بسرعة بدون أي تعليق. عندما التفتُّ وأنا أخرج من الصفّ، كان قد انهمك مع زبون آخر. المؤكد أنّنا صرنا مرضى. إمّا أن نضخّم فجأة حالاتنا أو أن نخفّف منها، وفي كلتا الحالتين، الوضع مخيف وقد يكون قاتلاً حتماً. لهؤلاء النّاس وظائف متعددة، بعضها مكشوف ومسالم والبعض الآخر مخفي. في النهار موظف في البريد وفي الليل يمتهن مهمّة الجزّار. يصفّي كلّ الوجوه التي يحقد عليها. فكل المعلومات بين يديه ولا يقتضي الأمر منه سوى حركة صغيرة أو معلومات يُسلّمها لخليّة القتلة التي ينتمي إليها.

وضعت الطابع على الرسالة ثم وضعتها في الصندوق وخرجت بأقصى سرعة ممكنة بدون أن ألتفت هذه المرة ورائي. عندما خرجت، شعرت ببرودة الهواء ونُعُومته وبشجرة البلاطان العملاقة تطلّ عليّ من بعيد. كان شارع المشاة. لم يكن شارع العربي بن مهيدي بفتحاته الواسعة بعيداً. فكرت أن أعبره وأن أتوقف من حين لآخر عند بائعي الطوابع البريدية الذين كان يحبّهم ياسين عندما كان ينزل أيام الخميس مساءً معي، وبائعي البطاقات القديمة للمدن التي بدأت تنقرض، لكن في لحظة من اللحظات شعرت بخوف داخلي. فهذا الشارع الجميل والمسالم، ارتُكِبَتْ فيه العديد من الجرائم

والاغتيالات في وضح النهار، ولهذا سمعت بأن الولاية تنوي تحويله إلى شارع عادي. فالقتلة يرتكبون فعلتهم ثم يندمجون وسط الناس. قد يكونون ذلك الرجل الذي يقف أمام المحلّ يتأمل الألبسة النسائية الداخلية، أو بائع السجائر المتجوّل، أو ذاك الترباندِيشت الذي يقف وراء شنطته المملوءة بالكتّان الطّايلانْدي. الكثير من هؤلاء الذين يشتغلون لعصابات كبيرة، يتحوّلون عند الحاجة إلى قتلة، فهم يُسيَّرون بالنقود لا قضية لهم سوى الجريمة التي يتفننون في تَبْشيعها.

وجدتني فجأة أتفادى الشارع وأتّجه نحو نفق البريد لأخرج من الجهة المؤدية إلى ديدوش مراد مروراً بمقهى الكوك هاردي الشّهيرالذي باعه مالكه لرجل بدأ يحوّله إلى صيدلية في الزّاوية. مروري بالنفق لم يستمرّ طويلاً. مع أن هذا الأخير كان يُفترض أن يكون مدخلاً من مداخل مترو الجزائر الذي لم يُنْجز مطلقاً بعدما التُهِمتْ ميزانيته.

الساعة تزحف بسرعة ووقتي محسوب جدّاً. فالزمن في هذه المدينة صار رديفاً للحياة والنجاة وأحياناً للموت. ما تزال أمامي زيارات متعددة. المكتبة، المطبعة، المطعم والجنازة قبل العودة إلى البيت إذا كانت هناك عودة.

في البداية فكرت إقصاء مكتبة شاراس. فالشارع ليس مريحاً ولكن قلت في خاطري، ما دمت قد قمت بكل المهام لوحدي، عليّ أن أقوم بها حتى النهاية، ثم أن مريم تستأهل هذه المغامرة المجنونة ضدّ الموت لنؤكد لأنفسنا أن الحياة ما تزال مستمرّة، حتى لا ننتحر داخل الصمت والخوف.

تجاوزتُ مخبزة البارزية والدوّار لأجد نفسي في شارع شاراس. المدينة لم تتغيّر، ومع ذلك أشعر أن الكثير من الزوايا فقدت رونقها، بسبب الأوساخ المتراكمة عند البوابات، والمجاري المفتوحة هنا وهناك بدون أن يتنبّه لها أحد، ورائحة العفن التي

تحتل المكان. الخطوط الجوية الإيطالية صارت مثل الدكّان المهجور منذ المسيرات الأخيرة، وبعد أن كُسِر زجاجها شُبّكت بالحديد وأُغلِقتْ نهائياً. حتى عندما فتحت، فتحتْ جزئياً لتعود إلى غلقها النهائي بعد مقتل البحارة الإيطاليين. كلّ شيء تغير في هذه المدينة بسرعة عجيبة لتعود شيئاً فشيئاً إلى سالف عصرها عندما كان يدخلها الأنكشارية الأتراك بعد قرصناتهم اليومية، يمسحون في طريقهم كلّ نور في المدينة.

دخلت إلى مكتبة شاراس. كانت شبه مهجورة. لا أدخلها إلّا نادراً. صاحبها لا يعرفني وأنا متأكد أنه لا يتذكر وجهي لأنّي لستَ زبوناً دائماً لها.

انزويت نحو ركن المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، فقد طُبِع الكتاب ضمن سلسلتها المعروفة بـ «الأنيس».

انتبه صاحب المكتبة إلى حيرتي.

ـ هاه آسيدي! تحتاج إلى شيء؟

ـ كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق.

ـ ماكانش. الدولة صادرت كلّ الكتب الدينية.

ـ لكنه ليس كتاباً دينياً على ما أعتقد. اجتهاد عملي.

ـ ما عنديش عليّ عبد الرازق وما يَدْخُلشِ إلى مكتبتي.

ـ هذا شيء آخر؟!

ـ كأنّك لستَ من هنا!

ـ لا أنا جاي من وهران.

أوّل مدينة وردت بذهني، لأنّي شعرت في لحظة من اللحظات أن الرجل يحمل عداوات كبيرة لرجل لا يعرف اسمه ويصادره، بل يعطي لنفسه الحقّ في منعه من الدخول إلى مكتبته.

ردّ عليّ ببعض الراحة.

ـ خْيَارْ الناس. أنصحك في سبيل الله، بايَنْ عليك نيَّةْ وما تعرفشْ لَبْلادْ. أخْطيك من هذا الهلاك. عليّ هذا من أكبر الملحدين والكفرة. قُلْ لي وَاشْ تخدم.

ـ معلم صغير في مدرسة ابتدائية بالقرب من مدينة وهران.

ـ وينْ بالضَّبْط.

ـ في مَغْنية. على الحدود الجزائرية ـ المغربية.

ـ يارَجُلْ! روحْ دِيرْ ترابادو خيرْ لَكْ. هذا الكتاب مسموم. أنت في الإبتدائية ولا تعرف خطره ولهذا وجب عليّ نصحك. ابتعد عنه قدر ما تستطيع.

ـ واش يكون هذا عليّ عبد الرازق؟ أنا لا أعرف الكتاب، وَصَّاني عليه صديق من القرية.

ـ الكتاب. الكتاب. هذا الرجل كان يخدم مع اليهود في بريطانيا. وقد زار إسرائيل في وقت مبكراً جدّاً قبل أن يدخل إلى القاهرة ويشتغل عميلاً للمخابرات البريطانية والإسرائيلية والروسية لضرب الإسلام في ديار الإسلام.

ـ قال لي صديقي الذي وصّاني على الكتاب أن عليّ عبد الرازق كان أزهرياً وعالماً جليلاً.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! أيعقُل أن يكون فاجراًمثل هذا في الأزهر. بِئْسَ هذا الصديق الكاذب. من يكون صديقك هذا؟

ـ واحد جاهل مثل حالتي.

ثم صفقت الباب وخرجت وأنا أسمع كلماته الأخيرة وهي تركض ورائي.

ـ لا تثِقْ في أولاد الحرام. أطفال المدرسة أمانة بين يديك تُحاسَب عليها يوم القيامة.

يا لطيف!

يبدو أن الخراب عميق جداً. الموت صار ينحت موتاً آخر. يتحدّث عن إنسان لا يعرف عنه إلّا ما حَفَّظ له. لم يقرأ الكتاب، بل لم يقرأ حتى الغلاف الخلفي الذي لم يخْفِ حياة ومجهود عليّ عبد الرازق. وبسهولة ينزل سيله من الأحكام ولا يريد سماع إلّا صداه. في لحظة من اللحظات تمنّيتُ أن أعرّي جهله وأميّته، لكن كلّ ذلك بدا لي عبثاً. عبثية ميّتة.

لم أسأله مطلقاً لماذا صادرت وزارة الداخلية هذه الكتب. يبدو أن خدمتها لا يختلفون عن المكتبي. لقد سحبوا من الأسواق كلّ الكتب الدينية التحريضية، وفي أثرها سحبوا كلّ ما له علاقة بالدين، وأغلب الظّن أنهم فعلوا ذلك عن جهل. سحبوا الإسلام وأصول الحكم، دليل المسلم الحزين، الحركات السياسية في الإسلام، ابن رشد، الإسلام السياسي، أعمال طه حسين الكاملة لأنها مجلدة مثل الكتب الدينية وكادوا أن يسحبوا رأسمال ماركس لأنه مجلّد بنفس الطريقة لولا محاولة الصديق الذي يملك مكتبة على أطراف المدينة، إقناع المكلفين بالسحب بأن الكتاب لا علاقة له بما هو ديني تحريضي، كتاب في الاقتصاد أكثر من أي شيء آخر. دونوا اسم الكتاب وهددوه بغلق المكتبة وتشميعها إذا أتضح أن رأس المال كتاب ديني، وماركس اسم مستعار لداعية إخواني.

جاء ذلك ضمن حملة من الأمن للسيطرة عن كلّ ما يدور داخل المدينة من بيانات وكتب تحريضية بعد نشر وتوزيع بيان المخلوفي الذي يدعو فيه الناس إلى العصيان المدني وقلب نظام الحكم بالقوة. والغريب أنه بعد الحملة، لم يبق كتاب من الكتب النيّرة، بينما ظلّت شوارع العاصمة تتجشأ بكل مطبوعات الدروشة: حكايات الدّابة البحرية، الجماع المثالي في الإسلام، أهوال القيامة، كتابات المودودي، السيد علي وراس الغول... كتب أعيدت طباعتها وتباع بأقل من أثمانها الحقيقية. أحياناً أشعر بأن ما يقع هو مجرّد جهل، لكن عندما أتأمل الوضع بتعقّل أدرك بدون شك، أن من وراء ذلك

تنظيماً محكماً لتدمير العقل، وكلّ إمكانية لنشوء فكر نقدي، احتجاجي. من يموّل نشر الكتاب الديني الذي سرق تسمية ليست له في الأصل. الكثير من الدّور صارت سيدة المدينة من خلال نشر كتب الدروشة وقصص الأطفال الدعائية: سلسلة الخلفاء، سلسلة مناصري الإسلام، سلسلة الشاب المسلم، سلسلة شهاب العاصمة، عين مليلة، مليانة، وبطبعات مفضوحة لا تربّي في النهاية إلّا الرداءة.

نزلت نحو النفق باتجاه المراحيض العمومية. فكرت أن أغْسَل وجهي ولكن عليّ إعادة ترتيب تنكري بكامله. الشعر، الحواجب الغليظة. الشنبات. دققت النظر إلى وجهي من جديد، أخذت نفساً طويلاً ثم هممت بالخروج، وقبل أن أضع رجلي على الباب، سحبت مرآتي الصغيرة التي لا تغادر جيبي، تأكدت مرّة أخرى من أنّ الأمور جيدة، لأنّي لا أثق كثيراً في تنكّري. في الشارع، كلما شككت بأن جزءاً من الشنبات في وضع غير طبيعي،أنزوي، أخرج المرآة وأرتب أموري لأنطلق من جديد، بحرية داخلية أكثر.

كلما أتممت تنكّري، وهممت بالخروج، تذكرت صديقتي أيماش التي ساعدتني وتساعدني باستمرار لتفهم وضعية ريما ووضعيتي.

– Tu sais mon ami, on a vraiment tous besoin de se comprendre et de s'écouter. La peur nous a réduit à l'état primaire.

– C'est vrai. On ne fonctionne plus qu'avec nos instincts.

الغمّة كانت قد وصلت إلى الحلق. الذي لا يمحوه الاغتيال في هذا البلاد، تستأصله فقعة أو سكتة قلبية. أرغب أحياناً في الصراخ بأعلى صوتي حتى يسمعني الله في غفوته وسلطانه، لكن المدينة تبدو ضيقة والدنيا بعيدة عن همومي. ثم أنتهي إلى الاقتناع بضرورة الصمت. والصمت دائماً. والنزول رويداً رويداً إلى أعمق نقطة في القاع، في الذاكرة وفي القلب. أشعر أحياناً كأن هذه

المدينة ليست لي. أسماء الشهداء، لم أعد أعرفها. بالرغم من أنهم ينامون على شوارع المدينة منذ أكثر من ربع قرن. هؤلاء النّاس الذين كنت أصبّح عليهم كلّ يوم بابتسامة ولا يردّون عليها إلّا بتكشيره، لم أعد أعرفهم. البلاد تسير بخطى حثيثة نحو شيء مخيف لا أعرفه، شيء ما فيها تكلّس طويلاً، ينكسر الآن بعنف كبير. الرؤوس تُحشى بالتّبن الغامل وأول شعلة صغيرة ستحوّل كلّ شيء إلى رماد.

ـ والله العظيم النّاس هنا قَصْبة محشوة بالفراغ.

يا ربّي سيدي لْوِينْ رايحينْ؟ نحو أي هلاك من الهلاكات؟

عندما تفطنت للبرودة، كان حذائي يبقبق بالمياه التي دخلت من تحت بسبب هذه الأمطار الموسمية الناعمة التي تشبه الرذاذ. كانت خطواتي تزداد اتساعاً كلما مشيت إلى الأمام. لا أدري للمسافة التي قطعتها حتى الآن. منذ أن خرجت من النفق وجدتني بسرعة أنحدر باتجاه شارع حسيبة بن بوعليّ الذي لم يبق منه إلّا الاسم. ثم بدأت بسرعة أكثر أصعد باتجاه المرتفع المؤدّي إلى مقرّ اتحاد العمّال. بدأت، عندما وصلت الساحة الكبيرة، أتنفس هواء البحر ورائحة السمك والملوحة.

زادت البرودة داخل حذائي والبقبقات المزعجة. كلّ فردة من الحذاء كانت مقطعة في منتصفها من تحت. وعدت ربما قبل شهر بتغيير الحذاء وها هي الفرصة الأولى تتاح لي إذ واجهني في نهاية أحد الأزقة، محلّ صغير لبيع الأحذية. دخلت بسرعة وجلست أنتظر صاحب المحلّ الذي كان منهمكاً في تعديل نظارتيه وقراءة كتابه الذي كان بين يديه. عندما انتبه لي جاء نحوي، بينما بقي ابنه أو شريكه منشغلاً بزبائن آخرين. وسألني كالشرطي:

ـ نعم. ماذا تريد؟

ـ حذاء طبعاً.

ـ أنا عارف حَابْ صُبَّاطْ. واشْ من نوعْ؟

ـ وعلاه كايَنْ أنْواعْ؟

ـ طبعاً الوطني والأجنبي.

ـ ماغلِيهش اعْطني أنتَّاعْ لَبْلادْ. 43 من فضلك.

وضع كتابه على الكرسي الذي كان بالقرب منّي، ثم اندفن في عمق محله بتثاقل كأنه يحمل على ظهره الدنيا بكاملها. فكرت في مغادرة المكان، ولكنّي عدلت عن الفكرة، لأن الحذاء الذي كنت ألبسه لم يعد صالحاً على الإطلاق. انتظرت ولكنه لم يأتِ. مددت بصري نحو الكتاب، فجأة شغلتني جملة. جملتان. فقرة... ثم انغمست...

يدخل العضو إلى حجرة البيعة، فيجدها مطفأة الأنوار. يجلس على بساط في مواجهة أخٍ في الإسلام، مغطّى جسده تماماً من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه برداء أبيض، ثم يخرج من جانبه مسدّساً ويطلب من المبايع أن يتحسّس المصحف الشريف، ثم يقول له: فإن خُنْتَ العهد أو أفشيتَ السرّ، فسوف يؤدي ذلك إلى إخلاء سبيل الجماعة منك، ويكون مأواك جهنم وبئس المصير.

قلّبتُ الصفحة. كنت مأخوذا بالكتاب. انزلقت عيناي نحو المادة 13:

إن خيانة وإفشاء سر بحسن قصد أو بسوء قصد يعرّض صاحبه للإعدام وإخلاء سبيل الجماعة، مهما كانت منزلته ومهما تحصّن بالوسائل واعتصم بالأسباب التي يراها كفيلة له بالحياة. إن أعضاء الجهاز الخاص يمتلكون الحقّ دون إذن من أحد، في اغتيال من يشاءون من خصومهم السياسيين. فكلهم قارئ لسنّة رسول الله في إباحة اغتيال أعداء الله ولا يحتاجون لبيانات تصدر عن الإمام (...). من تعاليم الجهاز الخاص:

1 ـ يجوز اغتيال المشرك.

2 ـ يجوز اغتيال من أعان على قتال المسلمين سواء بيده أو بماله، أو بلسانه.

3 ـ يجوز إبهام القول، أي الكذب للمصلحة.

4 ـ يجوز التجسّس على أهل الحرب.

5 ـ يجوز الحكم بالدليل والعلامة للاستدلال...

قلبت غلاف الكتاب لأقرأ عنانه: *محمود الصبّاغ، حقيقة التنظيم الخاص. طبعة دار الإيمان. مليانة. الجزائر.*

هل يُعقل؟ شيء في هذه البلاد يسير بشكل مقلوب وكلّ النّاس يرونه سويّاً.

عندما خرج الرجل البدين من مخبئه، كنت قد أرجعت الكتاب إلى وضعيته الأولى. وضع الحذاء أمامي وعاد ليندفن بين الصفحات ويعدّل من نظارتيه باستمرار ويتركني مع شريكه الذي كان أصغر وأكثر بشاشة.

ـ عندي تشكيله جديدة من الأحذية الإيطالية. شخونَه شويه ولكنها أفضل.

ـ ماعليهش. ياخويا حتى سلعة لبلاد مليحة.

ـ إذا تحب سلعة طايوان رْخِيصهْ شويه ولكنها جديدة.

ـ في المرة القادمة إن شاء الله.

شعرت بنفسي في حضرة مجرم. لم يكن منتبهاً لحوارنا مطلقاً. كان انغماسه في عمق الكتاب كلّياً. دفعت النقود بعدما شددت خيوط الحذاء الجديدة بقوة. وخرجت بدون أن ألتفت ورائي. الحذاء المثقوب تركته هناك في المكان الذي غيّرت فيه الحذاء. عندما يتفطّن البائع لقذارته سيشتمني طويلاً ويصفني بكل النعوت القبيحة.

شعرت بسعادة عالية وأنا أتنفّس هواء الشارع الخلفي الذي رماني بسرعة نحو شارع آخر.

أنا في حاجة الى نسيان الخطر لكي أستطيع تحمّل هذه المدينة القاسية.

ما تزال أمامي مسافة للوصول إلى المطبعة، محطتي المقبلة. وعلي أن أظلّ حذراً. سحبت المرآة. تركّنت نحو زاوية ثمّ انزلقت بين الناس بعد أن راجعت تنكّري. كلّ شيء على ما يرام.

واصلت الانحدار المجنون نحو الموت.

4

10H - 50MN

يا لطيف! أين اختبأت هذه المطبعة؟ هل أُبتلعث؟ أنا متأكد أنها كانت هنا. هنا بالضبط في هذا المكان. وفجأة لا شيء. إمّا أن أكون مجنوناً أو أن هذه المدينة فقدت عقلها.

منذ أكثر من عشر دقائق وأنا أدور في نفس المكان. ضيّعت كلّ الاتجاهات. عشر دقائق في مثل هذا الوضع تساوي عشر ساعات. ثانية واحدة في طريق الغلط كافية لتدميرنا. يداخلني الإحساس الغامض، كأن وجه المدينة بدوره قد تبدل وتقنّعت مثلما نتقنّع نحن تفادياً للموت المفاجئ. من حقها أن تتنكر، لكننا لا ندرك المخاطر البعيدة. سيأتي زمن، لا يعرف الواحد فينا صاحبه وأخاه ومدينته وقريته وربّما بلاده. الكلّ خائف من الكلّ.

مكان المطبعة أعرفه جيداً. الأماكن على الأقلّ لا تتغير بهذه السرعة. تفاصيل المكان هي جزء من دورتي اليومية التي انغلقت فجأة على نفسها، هاه! فجأة قفزت في وجهي البناية العالية التي تختبئ داخلها المطبعة ودار النشر، لكن الشارة المضيئة ليلاً والتي كتب عليها بخط عربي وفرنسي جميل دار الأنوار Lumieres-Editions نُزعت من مكانها وعُوّضت بمساحة بيضاء لا توحي بشيء مهمّ. بدون الشارة، صار الحائط مسطّحاً لا يثير أي انتباه. المدخل طَلِي

باللون الرمادي مثله مثل الأبواب الحديدية الداخلية التي وُضعت مكان الأبواب الخشبية. شهر واحد كان كافياً لتغيير وجه الدّار بكامله.

لم يكن في نيتي المرور على الدّار لولا إلحاحات أحمد، صاحبها على ضرورة الحديث حول وضعية روايتي الأخيرة التي صففها، وسحب أفلامها، ومنذ أكثر من ستة أشهر وهي تنتظر السحب. في كلّ مرّة يقنعني بأن الشهر القادم سيكون آخر أجل. شهر يسحب شهراً، وها نحن نصل إلى نصف سنة انتظاراً. فكرت في طبعها في مكان آخر، ولكن التزامي الأخلاقي عطّلني عن كلّ شيء. في بعض الأحيان ألعن هذهِ التربية التي تلقيناها من الأهل. لو كان الإنسان... قافزاً لما حدث لي ما يحدث الآن. ولكن...

عندما سألته آخر مرّة عبر التلفون عن وضعيتها، قال لي:

- ياسيدي خلّيني نْشوفَكْ ونَحْكي معك.

- ولكن يا أحمد بزّاف. عطّلتني كثيراً.

- ياسيدي الرواية كلمات وورق، ولكن حياتك لا تتكرّر دائماً وعزيزة علينا.

طوال الأيام التي تلت هذه المكالمة، ظلت كلماته تطنّ في رأسي. ولكنّي هذه المرة كنت مصمماً على إنهاء حالة الانتظار هذه. أمّا أن يطبعها أو أن أتدبّر أمري نهائياً.

كانت العاشرة والنصف عندما دققت على الباب الحديدي ذي اللون الرمادي القاتم. انتظرت قليلاً - سمعت وقع الخطوات داخل الدار. خمّنت أن أحمداً أو أخاه، يطلان من وراء العوينة ليتأكدا من هوية الطارق. سمعت من وراء الباب وشوشة، لم تتوقف إلّا عندما فُتح الباب بهدوء. تخطّيت عتبة المدخل. لم يكن صعباً على أحمد أن يتأكد من هويتي من وراء تنكّري.

- تتنكر أو لا تتنكّر. أنت هو أنت. عليك أن تقص قليلاً من

رجليك حتى لا تُعرف. يا صاحبي أنت كي الحيْط. حتى الأعمى يعرفك.

ـ كارثة!

ـ شفت واش دارت فينا هذه البلاد.

ـ واش درنا فيها خنَا كذلك.

ـ سيدي مليح وزاده الريح. كنت أظن أنك لن تأتي، فأنا أتفهّم وضعيتك.

ـ واش تحب. علينا اختراق الموت بمزيد من المغامرة ضدّ الموت.

ـ هذا كلام الشعراء لكن الواقع يقول: ماتْلْعَبْش بروحك.

ـ ماذا تريد أن نفعل؟ هل نموت داخل حفرة؟ ما نستطيع أن نفعله للحفاظ على حياتنا نفعله وما عداه نتركه للدنيا.

توغلنا داخل أعماق الدار. ما لاحظته هو قلّة العمّال بالقياس إلى الوضع السابق. كان يشتغل بدار الأنوار على الأقلّ عشرة عمال لم يبق منهم إلاّ اثنين. أخوه وابن اخته. لم يبقَ أحد وراء أجهزة التنضيد الضوئي. كان المكان خالياً ونظيفاً.

دخلنا إلى مكتب أحمد، الخاص. لم أستطع تمالك سؤالي الذي بدأ يشغلني ويورث لدي الإحساس بأن شيئاً ما في هذا المكان كان بصدد الانقراض والموت.

ـ وين رَاحُوا العمّال!

ـ كلّ واحد الله يسهّل عليه. ثقتي في المستقبل اهتزت وأعتقد أن مشروعنا انكسر نهائياً.

ـ هذا الكلام يجي منك يا أحمد؟ هذا يأس مطلق.

ـ الفارق بيني وبينك، أنك تقوله في رواياتك وتحاول أن تتخطاه في الحياة، بينما أنا أقوله هكذا ببرود. ومع ذلك فأنا أعمل

على الأقلّ على الحدّ الأدنى حتى لا أغلق الأبواب نهائياً. كما ترى. قتلونا في بداية المشوار.

عندما جاءني بالقهوة، وضعها على الطاولة، ولكنه سرعان ما ضرب بكفّ يده اليمنى على رأسه.

ـ والله العظيم، عقلي طار. افتقدت الذاكرة نهائياً. أنت مُدمِن على الشاي، ولا تشرب القهوة.

ـ أنت تعرف قرحتي. وهذه الأزمة لا تزيد إلّا في تفاقم الأوضاع.

ـ كأس شاي لا يضر مطلقاً.

ثم اندفن في زاوية مظلمة ليعود بكأس شاي بسرعة. يسمّي هذه الزاوية: مطبخ الدار، وهي عبارة عن قنينة غاز صغيرة وطاولة قديمة ومرفع كؤوس. كلّ كأس من قارة، لا أحد يشبه الثاني. الكلّ في مكان لا يتجاوز متراً مربعاً.

ـ كلنا نشبه بعضنا بعضاً. أنا كذلك غادرت بيتي نهائياً في شارع باش جراح. أنت تعرف حالة باش جراح. النّاس يعرفونني والكثير منهم يعتبرني مروجاً للكتب الشيوعية كما قيل لي. يا خويا تعبتُ. بدأت أفكر في بيع كلّ شيء والسفر إلى تونس. هناك إمكانية كبيرة لتنشيط مشروع النشر. تعرف أنّي لا أستطيع أن أبقى هكذا مكتوف الأيدي.

ـ يبدو أن هذا النظام وصل إلى حالة الإفلاس النهائي. كلّ شيء تدهور بسرعة عجيبة.

ـ من إفلاس لإفلاس والكارثة ما تزال القدّام. غلاء المعيشة. F.M.I. تهميش المواطن، نار الحياة ونار الإرهاب. والدولة لم تعد تساعد أحداً. ببساطة مثلا، كان بإمكانها أن تخفّف من عبء أسعار الكتاب. أن تساعدنا على النهوض وليس على قتلنا ونحن ما زلنا في بداية الطريق.

- كلّ شيء غريب في هذه البلاد. فقراء هذه الدولة يلعنونها لأنها تحتكر الأسعار ولا تحرر المبادرات الفردية. ورأسماليوها يريدون التحرر ولكنهم لا يستطيعون ترك بزّولة الدولة. يرفضون الفطام.

- هذه فترة تحوّل طبيعية، تتداخل فيها الأشياء باستمرار قبل أن تتحرّر. أعرف. يبدو أنّي اخترت طريقي والسلام. سأبقى على الحضور الرمزي للدّار هنا، ولكن إذا لم تتحسّن الأمور، سأترك المكان نهائياً.

- كلّ هذا صحيح. Mais je pense quand même qu'il y'a un manque d'imagination chez nos éditeurs.

- ولماذا لا تعمّم وتقول: Chez nos intellectuels

- صحيح. وصحيح جدّاً.

أردت ان أسأل عن روايتي، لكن الأمر بدا لي سخيفاً في ظلّ هذه الوضعية، وبدون معنى. ما معنى رواية في ظلّ الموت والرصاص والخوف؟؟ ولكنها نصّي. لغتي. تعبي. خوفي. يومي!؟

قطع على أحمد مسار هواجسي.

- ومريم، كيف أحوالها في المنفى. والله عملتْ مليحْ.

- عايشه كبقية الخلق. بين شطط الوضع الحياتي، والخوف.

- أنت تركب رأسك بدون معنى. لماذا لا تتبعها؟

- الدنيا لم تنغلق إلى هذا الحدّ.

- ماذا تستطيع أن تفعل في ظلّ وضع شاذ مثل هذا. لا تعرف فيه عدوك من صديقك؟

- لا شيء. سوى أن سعادة غامرة تملأني ممزوجة بالرعب كلما عبرت هذه الشوارع وقمت بمعصية الحياة ضدّ الموت.

- أنت تعيد عليّ شخصية روايتك. أخّرها قليلاً يرحم والديك. الدنيا لن تقوم إذا لم تنشر؟

ـ وإذا نُشرت ماذا سيتغيّر في هذه الدنيا؟

ـ بكل بساطة ستُقتَل.

ـ وتعتقد أنّي إذا لم أنشرها سأنجو من الاغتيال.

ـ على الأقلّ لا تعجّل بموتك.

ـ لا أريد أن أتحدث معك بلغة الخشب والكليشيهات، لكن أقول لك أن الكتابة عندما تخلو من حسّ المغامرة تصبح كلاماً عاماً وفارغاً. الذي بقى بينه وبين الموت مسافة إصبع أو كأس قهوة صباحية لا يتمنّى شيئاً خاصاً وهو يموت سوى قول كلّ ما كان يمكن قوله مهما كان الثمن غالياً. سيتحسّر كثيراً على الكلمات التي بقيت في حلقه مثل السدّادة. أنا شخصياً عالمي لم يعد يساوي أكثر من هذه الكلمات التي أتشعنق فيها كلّ صباح وكالأرجوحة التي قد ترميني ذات يوم في مدفن أو في هاوية أو ربّما... في حديقة زهور.

ـ احلم. احلم. هذه اليوطوبيا هي التي أوصلت المثقفين إلى ما هم عليه.

ـ لولا الحلم لانقرضنا جميعاً. للمثقفين الديمقراطيين قسطهم في الحماقة. هي نفس الحماقة التي ترتكبها الآن معي. فقد ضاعوا داخل الخطابات المهيمنة. راحوا يبحثون عبثاً عن التقدّمية والاشتراكية في فكر القرامطة والزنج وأبو ذر الغفاري، وغيرهم. برّروا الدين وأطالوا في عمر الميتافيزيقيا. أحياناً كانوا العملة المقلوبة للفقيه. سأفاجئك إذا قلت لك أن السلفية العمياء كانت هي الوحيدة التي انسجمت مع أطروحاتها الماضوية. لم تخبئ يوماً رفضها المطلق للحداثة والعودة إلى السلف الصالح الذي ترى فيه دنياها وآخرتها. ولهذا فأنت ترضي بإيقافك هذا للرواية، الذين يقتلوننا أكثر مما ترضي ضميرك وقناعاتك.

ـ شوف ياخويَا. أنتَ تعرفني جيداً. وتعرف ماذا تساوي قضية

النشر بالنسبة لي. وهذا يجب أن تصدقني عندما أقول لك بأني أخاف عليك من نشر هذا النصّ. تعودت على كتاباتك. أعرفها جيداً ولهذا صرت معك لا أقرأ المخطوط، أسلّمه مباشرة للمطبعة. وأقول ليكن ما يكون، لكن الأوضاع الآن تزداد خطورة. لا تعرف من أين تأتيك الضربة.

كنتُ سعيداً لسماع رأيه ومناقشاته، فقد أعادتني إلى زمن سجالي بدأنا نخسره قطعة قطعة، وقطرة، قطرة، يومياً.

كان سريع الغضب، وكنت سريع العطب، وأقول دائماً، النّاس ليسوا مجبرين على الانتحار جماعات جماعات مثل الحيّتان، لكنّي بالمقابل، لا أجد ما يجبرني على تحمّل صمتهم وحساباتهم الخاصة. الدنيا تتغير. النّاس يتغيرون. ليكن، لكن لي الحق كلّ الحق أن أكون أنا، هذه الكرة الملتهبة من الكلمات والأشواق والطفولات المستعصية.

ـ أنا أعرف أنك مجنون ولا يمكن تعقيلك. الرواية قرأتها. ثم أعطيتها لزوجتي وابنتي وصديق مشترك بيننا، ولكنهم كان رأيهم بالإجماع على ضرورة التأجيل. هل تريد أكثر من هذا؟ خائفون عليك لا أكثر.

شعرت بالكلمات تقف في حلقي كالأشواك. كنت معطوباً حتى الأعماق. الرقابة كانت في السابق تسحقنا بقراءاتها القاتلة وتقاريرها المطعمة بالكلمات المستهلكة، شيوعي خطير، فرانكفوني ضدّ أصالته ودينه، بَعثي لا وطنية لنصّه، رأسمالي، اشتراكي، سياسي، أيديولوجي... اليوم تغيرت الأدوات. لا رقابة على النص، نراقب أنفسنا ذاتياً. لقد قُتلنا من الداخل بعدما احتل الرقيب مخبأ له في أدمغتنا. أحمد ينصحني ولكنه هو كذلك من حيث لا يدري صار رقيباً رغم شجاعته التي سببت له في الكثير من الأحيان الوقوف أمام المحاكم بسبب نشره لنصوص كانت ممنوعة.

أوّل كلمة قلتها بعد الصمت، ولا أدري كيف خرجت.

ـ هل يمكنني أن أستلم نصّي.

لم يقل شيئاً. وضع رأسه بين يديه، بقي صامتاً للحظة، ثم قام بتثاقل نحو خزانة المخطوطات وأتاني بالكتاب الأصلي والأفلام وصورة عنها.

ـ خذها. على الأقلّ أسهلّ عليك مهمّة طباعتها ما دامت الأفلام بين يديك، لتدارك التأخير الذي تسببتُ فيه.

قمت من مكاني. سلّمتُ عليه. كنت بارداً كقطعة الثلج.

عند العتبة، وأنا أصفق الباب ورائي وأواجه المدخل الرمادي مرّة أخرى وانسحاب أضواء الدار وتعويضها ببياض سخيف، تذكرت كلمات إيماش وهي تحاول أن تخرجني من غفوتي في أحد مطاعم المدينة. كيف تعرّف الحبّ إذن؟ لم أكن معها ولكنّي كنتُ فيها. قلتُ هو إغفاءة إمّا أن نقبض عليها بعنفوان وفي الوقت المناسب وإمّا أن نتركها تمضي بغباء، وفي أغلب الأحيان نتركها تمضي بغباء، لنتذكرها بعد سنوات بسعادة غامرة.

بدت لي كلمة أحمد التي سمعتها وأنا أغلق الباب ورائي، فارغة ورمادية مثل باب دار النشر.

ـ احرز روحك. الله يلاقينا في ساعة الخير.

ولكن بمجرد اندغامي داخل الشارع نسيت وجه أحمد نفسه والدار ولم تبق إلّا سعادة المشي بخوف وجزع.

لم تكن لدي حِيَلٌ أخرى غير مواصلة التدحرج والانتهاء من برنامجي مهما كان الثمن فالمحطات كثيرة والزمن محدود.

بسرعة وجدت نفسي في المدخل العلوي لشارع ديدوش مراد. أحياناً أقول، لو كانت السيارة معي، لكان الوضع أهون بالنسبة للحركة، ولكن المشكل أنها علامة من علاماتي، إضافة إلى أنها

تتحوّل إلى عبء ثقيل كلما تجاوزت الساعة، العاشرة صباحاً. فلا أجد مكاناً شاغراً لإيقافها.

تحسست شنباتي مرة أخرى وثبّتُ بريطتي على رأسي.

لا أدري لماذا، ولكن كلما فعلت ذلك، يأتيني وجه مريم متعباً، محزوناً، مقهوراً في الأعماق.

- والله أنت رَاحْ تجنّني. تقول لي احرز نَفْسك وأنت تجد لذة خاصة للضياع داخل هذه المدينة. يبدو أنك حَابْ تقتل روحك.

هي رومانسية ضائعة؟ هي رغبة في الحياة بامتلاء قبل الموت، اكتشاف لسحر مدينة بدأت تتنكر مثلنا جميعاً؟ أحياناً أتساءل مع نفسي. هل سأملك كلّ هذه القدرة الاستثنائية للدفاع عن الحياة وأنا أواجه الموت؟ هل سأنظر في وجه قاتلي بعينين مفتوحتين عن آخرهما؟ ماذا سأقول له؟ هل سأتذكر مريم وكلمتها الأخيرة... يبدو أنك حَابْ تقتل روحك.

أنا متأكد من شيء واحد هو أنّي لن أسامح نفسي عن خطأ تافه أكون قد ارتكبته سهواً قادني إلى موت لا معنى له.

كلّ هذا لم يمنع طفولتي من أن تستيقظ وأنا أعبر زقاقاً خلفياً لا حركة فيه إلّا بعض النساء اللواتي كُنَّ يطْللن من الأعالي، في شرفات متقابلة تكاد تلتصق ببعضها البعض، من حين لآخر أسمع قهقهات تحدث في عمقي زهواً خاصاً يؤكد أن النّاس ينتصرون على الموت في هذه البلاد بالإصرار والإستماتة في الحياة. تؤنسني هذه الأصوات وهذه الروائح التي تأتي من كلّ الأمكنة وتجعلني أتحمّل أسئلة الخوف، التي تنسحب شيئاً فشيئاً مخلفة وراءها حالة مبهمة عن السعادة. أدخل من جديد أحد الشوارع المركزية. أرى وجوهاً أعرفها. أتمنّى لو أكلمها ولكنّي لا أفعل. أتأملها ولكنها تمر مسرعة. هذه طالبة، تلك سكرتيرة في الجامعة، ذاك زميل في، آ! هذا مسؤول الخطوط الجوية الذي يساعدني باستمرار على إيجاد

محلّ في الطائرة الفارغة دائماً والمكتظّة دائماً. عندما تذهب لشراء بطاقة في شهر جانفي، يفاجئك الموظّف.

– Complet pour le mois, revenez le mois prochain. وعندما تحصل على مكان وتركب الطائرة تجدها فارغة، عجيب. لا يُعقل. لا بدّ أن يكون هنالك عقل تدميري متخلّف متأصل في هذه البلاد.

تزداد الازدحامات داخل هذا الشارع الرئيسي. لا تزعجني كثرة النّاس سوى أنها تؤكد انطباعي أن الحياة تنتصر على الموت في كلّ دقيقة وفي كلّ ساعة. بدأت أنساب مثل الماء على هذا السطح الأرضي الذي تخرج منه كلّ الروائح، التربة، الزفت، العطور النسائية، الخبز، العرق، المازوت وبعض الخوف المدفون في الأعماق. شيئاً فشيئاً أنسى المحيط وأترك نفسي أغيب داخل طقطقات الأحذية النسائية ورائي تتقاسم الإيقاعات، وقهقهاتها المتتالية وحكاياتهن الصغيرة التي تصلني بوضوح تام رغم كثافة النّاس العابرين لهذا الشارع الشرياني في هذه المدينة.

– وحقّ ربي نْشُوفو اليوم. ياأختي نحبو واش رَاحْ نْديرْ؟

– خُويَا قالْ لي مَتَخرجيشْ. حْرَام لَمّرا تخْرج. نْخلّيه يغنّي ونْدِيرَ واشْ نْحبْ.

– يد زّوا مْعَاهُمْ. نروحْ معه. هَاذيك المرّة بتُّ عنده. وتواطأت مع ليلى. قلت لها إذا سألوا عنّي قولي لهم.. وقبل أن أنتهي من كلامي، قالت لي روُحِي أنا ندبّرْ راسِي.

تقهقهان عالياً. ألتفت. ما تزال الابتسامات مرتشقة في العينين والشفتين. أسمع نقرات الأحذية من جديد. يبدو أن نساء هذا الوطن حالة استثنائية وشجاعتهن لا توصف. فجأة تعود الظلال الكثيفة. تسبقني، أشعر بسوادها. يتغيّر الإيقاع نهائياً، ليصبح وقع الأحذية ورائي ثقيلاً، ثقيلاً مثل الرصاص. أشعر بخوف وبإرهاقات في الذاكرة. أحيد عن الطريق قليلاً. أتحسس مرّة أخرى أدوات تنكري. أتحسس حتى القنبلة المسيلة للدموع الجيبية والتي نسيتها نهائياً.

ضحكت في الأعماق من نفسي. كيف أنسى شيئاً هو الوسيلة الأساسية للدفاع عن نفسي. أعتقد أنّي حتى لو حملت مسدساً يوماً في جيبي، سيتحوّل إلى قطعة حديد لا معنى لها على الإطلاق. أنحرف أكثر على اليمين لأترك الفرصة للأحذية التي ورائي كي تصبح قدّامي وتسهل مراقبتها، لكنها تتأخر في فعل ذلك. التفتُ بهدوء ثم أتوقف أمامِ واجهة محلّ لم انتبه إلى ما يبيعه إلّا بعد ما هممت بمغادرة محلِّ بَاطا. كنت أرى الأشياء ولا أراها. مرّ الرجلان. ربّما هما بدروهما كانا خائفين منّي. ثم غيّرت الرصيف نهائياً. مسحت الفضاء بكامله، ثم قطعت الطريق الذي بدا لي واسعاً على غير عادته وملتذاً بالهواء البارد. أتنفس بعمق استثنائي. ينسحب بعض الضيق الذي كان يملأ صدري. أشعر بلذة خاصة. عظيم أن لا يعرفك أحد في مدينة فيها ثلاثة ملايين. هكذا دائماً. من رصيف إلى رصيف إلى نهاية المشوار. وأنا أقطع الطريق باتجاه الرصيف الآخر، كادت سيارة تدوسني. سيارة قديمة ومهرّسة لم يبق فيها إلّا زمورها الذي يطرّش الآذان. عندما انزلقت نحو الرصيف الآخر، كان الشيخ الذي يسوقها ما يزال في شتائمه.

ـ رَاكوُ تَقْراوْ لَغمَى. وين عينيك؟ إشْترِ إذا ماعَنْدَكْشِ.

قلت له وأنا أضحك.

ـ هذا تَشْريف لهذه الكَرْفاطة لو كان دهستْني.

ـ روُحْ. رُوحْ. اللسان طْويلْ والفهامة وَالو.

وعندما أزعجه الذين وراءه بالتزمير، انحدر عبر الشارع. بينما بقيت صافناً داخل عبثية خاصة. أنا أحذر من الموت باستمرار وربّما كان هذا الموت مختبئاً بين عجلات هذه الكرفاطة.

تخاف من موت، ينتظرك موت آخر، في زاوية أخرى.

وقبل أن أبحث عن الكرفاطة داخل السيارات شعرت بثقل يدٍ على كتفي.

ـ واش راكَ آ السي مُوحْ!

التفتّ بسرعة وبارتعاشة ما داخل صدري رغم أن الصوت لم يكن غريباً عنّي.

ـ بصحتك الشلاغم والنظارات والبرّيطة. دَرْتْ في روحَكْ حالَه.

ـ يا حلّوف خلعتني. واشْ حَالْ وهران؟ عبد الله! والله زمان!

ـ وهران C'est la Suisse.

ـ هذا كلام عام لا معنى له. الخراب في كلّ مكان. يرحم والديك كيفاش عرفتني وهاذو خمس سنين ما تْشاوفناشْ؟

ـ واشْ رَاحْ تخفي عليّ؟ قالوا لي في وهران أنك تَعِبتَ وتبعْتَ مَرْيم الى فرنسا.

ـ لا. هنا يْموُت قاسي. وينْ تحبْني نْروحْ. العالم صَار مثل خُرم إبرة.

لم أكن أحبّه كثيراً. ولكن بَعدُ الشقَة يورث أحياناً حالة نادرة من التّسامح. أعرفه جيداً. شاطر. يعرف أكثر من أي شخص آخر من أين تؤكل الكتف. كنّا طلبة في وهران، كنّا ندرس في الجامعة، وكان يتاجر في المخدرات والذهب. وتخرّج معنا جميعاً بمعدلات عالية. كان يقول دائماً. في هذه البلاد كلّ شيء قابل للبيع والشراء.

ـ هم يبيعون وأنا أشتري.

كان سيّداً للإشاعة عندما كنّا طلبة. كلّ صباح يأتي بكومة من الأخبار لست أدري كيف كانت تصله. بعضها تتأكد صحّته والبعض الآخر يبقى في حدود الإشاعة. وما دامت الأخبار غير موجودة في هذه البلاد، فالإشاعة تعوّض كلّ هذه التفاصيل وتسدّ هذا الفراغ.

ـ مريم عرفت لها أحسن منك. لم يبق أي خير في هذه الأرض. تعرف واش يقولوا:

اللي ماالخسَرشْ أرضه في وقت بومدين، عَمْرو ولا يخسرها.

واللي ما ترفهش في وقت الشاذلي عَمْرو ولا يترفّه.

واللي ما ماتشْ في وقت بوضياف عمرو ولا يموت.

واللي ما وجدش بْلاصتُو في وقت زروال، عمرو ولا يوجَدْها.

ضحكت.

ـ هذا كلام. ولكن النّاس لا يفكرون إلّا في موتهم اليومي.

ـ راك غالط. النّاس يحضرون أنفسهم للأيام القادمة عندما يتوقف هذا النزيف. أنا من الذين يفكرون في المغادرة حتى يستقيم الوضع وأعود فاتحاً كما فعل الأجداد الذين صعدوا إلى الغابة في اليوم الأخير من الحرب، ونزلوا من هناك أبطالاً.

ـ ولكنك لستَ مهدداً مباشرة، فلماذا المغادرة. ثم أنك كتبت مقالات تمجيدية في الجميع. في الإسلاميين وجبهة التحرير.

ـ يا ولد عمّي وين أراكْ؟ هذه فرصتي. لن أُضيّعها. اللّي يحبّ يبقى هنا، العام طويل.

ـ لم أفهم؟ قبل فترة قصيرة كتبتَ في جريدة الجمهورية، أن الذين خرجوا من البلاد هم حَرْكَة وخونة. وأن الغد لا يُصنع إلّا على هذه الأرض وما عداها كله كذب. ما الذي يستطيع أن يغيّر إنساناً موجودا بين أربعة حيطان.

ـ الرجل هو اللي يسيّر الزمن. البارح هذاك وقت وهذا وقت آخر. وعلى كلّ قدمت طلب التقاعد ووُفِق على طلبي، لم أعد صحفياً. وهكذا على الأقلّ أحفظ رأسي. يا صاحبي عرب زمان يقولون: لكل مقام مقال. وها أنذا أطبّق ما قرأته.

ـ ومع ذلك قدر صغير من احترام الذات لا يؤذي مطلقاً.

ـ أنت تغنّي أغنية لم تعد موجودة إلّا في ذهنك. هذه لغة الخشب.

ـ إذا كلّ واحد يقول الحقّ هو من أصحاب لغة الخشب، مرحباً بهذه اللغة.

ـ أنا ما قلتش هذا الشي ولكن على الإنسان أن لا يكون متصلباً في حقّ نفسه.

ـ لا شيء يبرّر تقلاب الفيستة.

ـ يقلب الفيستة اللي عنده فيستة. أنا زوالي، ما عندي والُو.

ـ عجيب!

ـ فكر مع نفسك تعطيني الحقّ. أخرج يا ولد النّاس قبل ما تنكمش الدنيا على نفسها. عندت أصدقاء في كلّ العالم. أطلب نجدتهم. عندما تُقتل C'est trop tard سيدفنك أصدقاؤك ويبكون عليك. ويُظهرون صورتك التي حاربوها طوال حياتك، في التلفزيون وبعدها ينشغل كلّ واحد بهمومه وتُنسى في زحمة الهموم والخوف ولا يحمل همك يومياً إلاّ أهلك وأبناءك. قبل أن يحوّلك سماسرة الثقافة إلى Fond de commerce. إنهم يركبون ظهر الذين ماتوا أو يُحضّرون أنفسهم لمستقبل يعرفونه أحسن منك ومني.

ـ الدنيا تسخّفت إلى هذه الدرجة. أنت تظلم النّاس كثيراً. أعتقد أن الوضع لم يصل إلى هذه الدرجة من الوساخة.

ـ على كلّ أنتَ تعرف. أنا قرأت هذا المجتمع التّافه منذ زمن بعيد قراءة موضوعية، وأنتم قرأتموه برومانسية. جهّزت أموري في وقت الغفلة. اشتريت بيتاً صغيراً في باريس، أكريه لطالبة جزائرية هناك، وكلما سافرت، تستقبلني. راك عارف، حاجة وحويجة.

فجأة أدركت عمق سذاجتي وعبثيتي. تنكري يتحوّل أحياناً إلى مسخرة عميقة بالنسبة لي. ما فائدته؟ أريد أن أتخفى عن ناس، هم أوّل من يعرفني. وأكثر من ذلك، وقفتي المجانية في هذا المكان. هؤلاء الناس، المفروض أن نحدث معهم قطيعة مطلقة، لكن التربية السيئة التي تلقيناها صارت مؤذية وغير صالحة. فمن أراد إرضاء كلّ النّاس يمكن أن يخطئ طريقه ويخفق حتى في إرضاء نفسه.

شعرت في أعماقي بسذاجة تصل إلى درجة الغباء. تزداد إحراجاً كلما طرحت أسئلة بدون معنى. ماذا يمكنني أن أنتظر من عبد الله! أستاذ جامعي، لا أدري كيف نوقشت رسالته ولامتى؟ وصحفي محترف، ولا أعلم مطلقاً من أي جامعة تخرّج؟ وخبّاز ورث مخبزه في وسط المدينة عن والده الذي قيل أنه غرق في وادي بالقرب من مغنية، كان هو وابنه الأكبر عبد الله. هو خرج، وأبوه لليوم لم يُعثر له على أثر. كلّ ما سُئِل عنه يقول ببرودة: كْلاه وَادي تافْنَهْ. طريقته في التدريس في الجامعة خاصة. يُعطي درساً في بداية السداسي، ودرساً في نهايته ثم يمتحن الطلبة في درسين. هو مرتاح. الطلبة مرتاحون. والإدارة لا تريد تَكْسَار الرّاسْ. يقول أن الشطارة توصل صاحبها. له رغبة كبيرة في إعطاء الدروس لأنه كان أكبرنا جميعاً. يقول عن نفسه أنه رغم حداثة سنّه، فقد كان من الأفواج الأولى التي صعدت إلى الغابة أيام ثورة التحرير. بعد الاستقلال كان من القلّة القليلة التي تعرف كتابة اسمها بدون خطأ. عندما تفطّن للعبة قبل غيره، أوّل شيء قام به هو استخراج وثيقة قدماء المجاهدين، ومن يومها وهو يختصر في المسافات في سباق محموم مع المصلحة. أنا متأكد أن ملفات وظائفه المتعددة لا تحتوي أصلاً إلّا على هذه الورقة التي صارت مضحكة. بها مرّ على الجامعة، وبها صار صحفياً وبها تقاعد قبل الأوان بسنوات، وبها قد يعود ثانية عندما يتوقف سيل الدم، ومن يدري، قد يصير حاكماً لهذه البلاد. سماسرة هذا الوطن، وحكامه حتى اليوم لم يدركوا أن جيلاً آخر قد نشأ، أصغر فرد فيه، عمره الآن أربعين سنة. وطلباته كبيره، بدل الاستجابة له، ابتذلوا كلّ شيء، وأغرقوا البلاد في دم لن يتوقف بسهولة. ثم جاءوا النّاس ببُعبُع، كلما تحدثت، أخرجوه لك بغباءاته وسلفيته، وتخلفه، وإسلامه الريفي الذي لا يعرف إلّا محو معالم الحياة والحضارة.

كان عبد الله، هو أوّل من طالب بتأسيس خلايا للمجاهدين

داخل الجامعة، وظيفتها الدفاع عن مصالح المجاهدين القدماء، ومراقبة البرامج من التسربات الفرانكفونية ومحاربة الشيوعيين، والمفسدين، والمخربين. في البداية، كان مقترحه مضحكاً، لكنّه كان الوحيد الذي يعرف امتدادات القصة. تحصّل على سيارة، وعلى رُخَص متعددة لتوسيع مخبزته، والتاكسي التي كراها لأحد جيرانه، وغيرها، وبيت في وسط المدينة، في وقت كنّا عاجزين عم إيجاد حجرة صغيرة في الحيّ الجامعي. زادت فاجعتي عندما تأكدت أنه لم يكن الوحيد الذي دخل إلى الجامعة بهذه الوثيقة ولكن كثرتهم جعلت منّا مع الزمن أقلية. لقد صار معظمهم اليوم مسؤولاً في أجهزة الدولة أو أساتذة جامعة. أتساءل أحياناً بسذاجة:ألم يكن من الأفضل وضع هؤلاء المجاهدين في أماكنهم الطبيعية، بدل إدخالهم وإدخال البلاد معهم في خراب مثل هذا.

- أخرج. أخرج يا صاحبي من هذا الجحيم.

سمعته بوضوح وهو يقولها، بالرغم من أنّي كنت غارقاً في حالة من اليأس. هاذي النار تشتعل وألسنتها تصل عمق السماء. لقد هيّأوا قواعدهم الخلفية للهرب، ولم نجد إلّا هذه التربة اليابسة، والمسدّس الآلي الذي ينتظرنا في زاوية مظلمة، وسكين حادّة أستُعيرت من جزار متواطيء لذبحنا على مرأى من أطفالنا.

عندما التفتّ نحوه، كان قد ابتعد بين المارّة. لوح لي للمرة الأخيرة.

- شي نهارْ من النهاراتْ إن شاء الله. نَتْلاقَاوْا في لابْراسْ.

كدت أصرخ بأعلى صوتي. رُوحْ. الله لا يَرُدّك. ثم عدلت وعدت إلى خوف الشارع. أنساني قليلاً هذا المحيط ليدخلني في وباء لم أكن مستعداً لتحمّله. كم أشتاق إلى لابْراس. كم هي قريبة. وكم هي بعيدة عنّي. المقهى الزجاجي الجميل، المواجه للجامعة المركزية. كلما حلمت بالمرور عليه، تذكرت كلمة صديقي يوسف الذي أُغتيل قبل يومين.

ـ فليقتلوني إذا استطاعوا، ولكنّي لن أسلم لهم نفسي بسهولة J'ai horreur de devenir une bête traquée.

ـ يا خويا Bête traquée ولا يتعلموا فيَّ الشّمَايث.

واصلت عبوري للشارع الواسع، مع التغيير المستمر للأرصفة حتى أتمكن من رؤية من هم ورائي. أتوقف من حين لآخر عند واجهة مكتبة، أو كشك، أو خبّاز، أو لا شيء. التفت بهدوء. أعاين قسمات المارّة، وجوههم، عيونهم، جباههم، انعطافات حواجبهم، أحاول عبثاً أن أقرأ دواخلهم. ثم أواصل من جديد باتجاه أنا الوحيد في هذه المدينة الذي يعرفه أو صديقتي الصحفية نادية التي تواعدت معها في المطعم المغاربي.

كنت أشعر براحة ما على غير العادة. عندما أسير كثيراً تتعب قدماي بسرعة، لكن هذه المرة، الأمر مخالف تماماً. تنبهت متأخراً أن سبب ذلك هو الحذاء. فقد كان مريحاً وتخلّصت من البومنتل كما كانت تسميه مريم. كلما مشينا في المدينة في يوم ممطر، تسألني.

ـ كيف حال البومنتل؟ هل يتحمل هذه الأمطار وهذه البرودة؟

ـ أتحمله. لم يصل الأمر إلى هذه الدرجة.

ـ والله أنْتَ بْوَحْدكْ. تنتظر أن يدخل عليك الماء وأن ينفلق الحذاء إلى إثنين!

ـ ما تخافيشْ، عندما يحين وقته، سأرميه.

ـ إذن أنا نَشْرِي لكْ.

ـ وهل أنتِ في مأمَن؟

ـ نغمّض عينيّ، وليكن ما يكون.

ستضحك مريم طويلاً عندما أخبرها بهذا الإنجاز العظيم. أعرف أنها ستصرخ بأعلى صوتها HOURRAH! وأخيراً اِشتريت حذاء! عْليكْ الحمْدْ!

أستعيد ابتساماتها العذبة، وسخريّتها وطفولتها التي تستحضرها بسرعة. أنغمس داخل هذا اليوم الذي يشبه يوماً شتوياً. كم كنْتِ تحبّين الأيام الممطرة يا مريم. تقهقهين. ترفضين وضع المطرية على رأسك. خَلّيني يَرْحَمْ والديك. غباء. في بلاد أمطارها قليلة، علينا أن نتسحّمْ. أن لا نترك قطرة تضيع. تركض وتركض. تشرب ماء المطر. تملأ حَفنة يديها. تضعها على رأسي.

ثم فجأة انتبه، أنني وسط شارع رمادي وأن المسافة الفاصلة بيني وبين المطعم المغاربي، ما تزال بعيدة. أنحرف في الزقاق الخلفي الذي يشبه سوقاً شعبية، باتجاه البحر، ثم أنزل مع السلّم الميكانيكي لأجد نفسي بعدها في الطريق الطويل الموصل إلى المطعم المغاربي الصغير الذي لا يثير كثيراً انتباه الناس.

5

11H - 47MN

تخلّصت بسرعة من الشنبين. وضعتهما في جيبي بعدما لففتهما وأغلقت عليهما بإحكام في كيس صغير. أوف. أخيراً. ما أطول هذا الطريق وما أصعبه! بعد أن مسحت البنايات العالية المحيطة بالمكان، والطرقات والممرات الجانبية، والمعابر بعينيّ المرهقتين، دخلت إلى المطعم. وبدأت أبحث عنها. وسط هذه الأجسام المكتظة تكاد لا تظهر. فجأة رأيتها تؤشّر بيديها. قامت باتجاهي وهي تضحك وتتفرقع كالملحة كعادتها.

ـ بدأت أخاف أن تكون قد ذهبت إلى مطعم غير هذا.

ـ وهل هذا معقول يا نادية!

ـ في هذه الظروف كلّ شيء ممكن.

ـ معك حق. بدأنا نضيّع البوصلة.

نزعت البيريه الأسود والنظارات وهذا المانطو الثقيل وعلقت الكلّ على مشجب قريب وُضِع خصيصاً لهذه الأمور. ثم عدت لأجلس قبالتها. رغم خوفها الدائم، منذ أن بدأوا يغتالون الصحفيين، إلّا أنّ بشاشتها لم تغادرها مطلقاً. مصمّمة على الحذر ولكن كذلك على الفرح كلّما كان ذلك ممكناً.

ـ نْسَاوْا. ماعَرْفوشْ بَاللّي راهُمْ مَعَ بنيتْ بابْ الوادي. والله نُحطْ لهم سَعْدْهُمْ في يَدّيهُمْ. نكاية فيهم وفي أسيادهم سنعيش ونضحك، بل ونرفع كؤوس الغائبين. وعندما يصل الموت عند العتبات، أقول له. طزْ. خُذْ. ما عندك ما تَدِّي.

نادية اضطرت إلى مغادرة بيت والدتها والعيش عند صديقها الفلسطيني الذي انتهت معه إلى زواج سريع لم يدم طويلاً.

مَدّت يدها نحوي. أخذت الجرائد التي اشتريتها في الطريق.

ـ كالعادة كل هذه الكومة من الجرائد. الخبر، الشعب، السلام، El-Watan, Liberté, Le Matin, Nation, Le Soir d'Algerie وين رايح بكل هذه الكومة؟

ـ تعرفين، كل يوم أزيد كرهاً لهذه الجرائد التي لا تحمل من العربية إلّا رموزها. تبحث عن الخبر، تجد التعليق. في غالبيتها تسير حسب قوة التيار، مدحت F.L.N ثم تخلّت عنها لتغازل الإسلاميين منذ الانتخابات البلدية، وكمْلَتْ على الباقي في الأنتخابات التشريعية. مرتبطة بالمؤسسة، حتى عندما ترفضها هذه الأخيرة.

ـ حتى الفرانكفونيون بالغوا كثيراً. يحسبوا أرواحهم La race des seigneurs. بزّاف يا خويَا. نعرف الكثير منهم. كل شيء هُدّم في هذه البلاد. ومركز غناها حُوِّل إلى مركز تدميرها. نحتاج إلى عودة جارحة إلى أعماقنا. لقد قتلتنا الوطنيات الزائفة.

ـ كل هذه الفوضى، والحكومة ما تزال في حماقاتها الأولى. أخبار الموت تملأ الدنيا، وهي تحاول مصادرتها بحجة إعاقة التحقيقات.

ـ يحققون في ماذا؟ القاتل معروف ويصرّح بجرائمه علانية، والمقتول معروف. تعرفين ماذا ينقص هذه البلاد. رجال حقيقيون. رجال من عمق هذه الطينة، بدم جديد، لا يدخلون في حساب البقالين عندما يتعلق الأمر بوطن يموت يومياً آلاف المرّات، وآيلٌ إلى الزوال بهدوء وسكينة.

ـ قلت لك، شاطرون فقط في متابعة مدراء الجرائد عن التجاوزات التي لا يعلنون عنها. ويطلقون سراح القتلة والمجرمين. شيء في هذه البلاد يمشي بشكل مقلوب.

ـ حتى العدو الذي شردنا من بيوتنا لا نعرفه، ويعرفنا جيداً. ولكن وجهه يظل مغطّى عن آخره، لا بدّ أن تكون هناك مافيا قادرة على تنظيم ذلك بشكل دقيق، وهي التي تمتلك قوائم الذين يجب قتلهم وتعرف قيمتهم. مافيا قتلت رئيساً أمام ثلاثين مليون شاهد، ومع ذلك لم تجد شاهداً واحداً ليؤكد الجريمة. صمتت بعدها على قتله وكأن شيئاً لم يكن، ثم اغتالت وزيراً مفكراً، ودفن لينتهي أمره في المساء نفسه. ثم اغتالت رئيس حكومة. أمام الديمقراطية مسافة كبيرة.

ـ ولماذا عندما تكتبين في جريدة السلام لا تقولين هذا؟

ـ قلت أقلّ من هذا يوم اغتيل الكاتب الطاهر جاووت. قلت المستقصد ليس الكاتب باللغة الفرنسة، ولكن العقل الحرّ والمناهض، واللغة ليست إلّا ثانوية. أوّل من صادرني، مدير جريدتي وأقام لي محاكمة، لأصبح بعدها في نظره حَرْكِيَة تخدم لأسيادها من الفرانكفونيين، ولولا صلابة المسؤول النقابي في الجريدة لطردني.

ـ في جريدة تابعة للقطاع العام ويعمل لمصلحة القتلة في نهاية المطاف.

ـ لا يخبئ ذلك مطلقاً. إنه يهيّئ شيئاً آخر في الأفق. كل من يخالف رأيه هولائكو- شيوعي. أو اندماجي جديد، وأبناؤه كانوا يدرسون في مدرسة ديكارت قبل أن تُغلق.

ـ هؤلاء النّاس تجدينهم على كل الموائد. هم مع من يعطي أكثر.

ـ الآخرون كذلك حمَّضوهَا. كل من يكتب باللغة العربية هو

أصولي، بعثي، شوية ذوق. C'est Trop! Ils exagerent يا خويا. ما وَجَدْناشْ ارْوَاحْنا. هَاذُوك يقولون عنا عملاء شيوعيين. وهاذو لسنا بالنسبة لهم أكثر من Des indigénes. يعكسون علينا حالتهم وهم يواجهون من هو أكبر منهم.

- عندما يغيب العقل، يصبح الجهل هو سيد الموقف. الآلة التي أنجبت إسلامياً سلفياً بعيداً عن عصره، هي نفسها التي أنجبت مثقفاً بهذه التصورات التبسيطية.

كان النادل يقف عند رأسي بلباسه الأبيض، سألني:

- واشْ تَشَّرْبوا؟

- أنا اعطيني بيرة وأنتِ! ماذا تشربين.

- يا سيدي معك لا يستطيع الإنسان أن يقاوم غواياته الكثيرة. بيرة.

– Donc, deux bierres et deux pizzas. Merci

كان الحديث متشعباً لدرجة لم يكن من السهل التحكم فيه. من حين لآخر، تتذكر نكتة، تقولها، تضحك ثم تواصل أسئلتها. تتذكر جدتها التي تعيش في عالم غير هذا. مولعة بماضٍ ميت تشتاق إليه بإستمرار وتنتظر زوجاً يخطبها من أهلها (الذين انقرضوا منذ عشرين سنة). تضحك نادية طويلاً، ثم فجأة تقطّب.

- يا خويا. هْبَالْ. عندها قرن وما تزال تحلم برجل.

- بعض المشاييخ هكذا. اسمعي هذه النكتة. عجوز التقت بشاب في مكان عام. عجبها، راودته ودعته إلى بيتها. استجاب لها. وعندما وضعته في الفراش عارياً، قال لها ليتخلص منها. ننام مع بعض بعدد الأسنان التي تملكينها ولم تكن تملك سنّاً واحدة. قالت له أنت متأكد. قال نعم. دخلت إلى الحمام ثم عادت له بعد أن ركّبتْ طاقم أسنانها. فوجئ عندما فتحت فمها. فأصيب بخلعة أكلت روحه.

وظلت نادية تقهقه، وكلما رأت عجوزاً تدخل إلى المطعم تنظر إلى فمها، وتنظر إلي.

ـ واش رايك فيها؟

ثمّ تنفجر ضحكاً كالملحة.

تحدثنا عن كل شيء. عن الصحافة. عن جون جينيه. عن دريدا. عن فوكو ياما. عن صدّام. عن الوطن العربي، عن الفلسطيني الذي صبر طويلاً على الجوع، وعندما قَبِل أن يأكل تعشىّ ببصلة. عن خطابات الكذب، عن التطبيع، عن العربية التي تقاوم انقراضها، عن الخيبات التي لا حدود لها، عن النهايات المفجعة التي تنتظرنا جميعاً في مكان ما، وعن...

ـ شفت! سوّدوا الدنيا في أعيننا، مع أننا البارحة فقط كنّا ممتلئين بالحياة. أي جحيم هذا؟

ـ ولهذا يا نادية قلت لك لماذا لا تقولين مثل هذا الكلام في الجريدة التي تعملين بها، أو في جرائد أخرى. التاريخ يُسجل ويمحو. أكثر من ذلك، لم يعد لدينا ما نخاف عليه. الموت صار أمامنا ووراءنا والكتابة قدرنا. فلنكتب. ونكتب عن كل المعاصي.

ـ أوف لو كنت تعرف! أنا كذلك تمنيت كثيراً الكتابة في جريدة تحترم ما أعطيه لها. أنت أستاذ جامعي. وظيفتك في الجامعة، أمّا إسهاماتك في الجرائد فهي حرّة وهم يعرفون ذلك جيداً ولهذا ينشرون لكم لأنهم إذا لم يفعلوا تنشرون في جرائد أخرى وهكذا. وحياتك لا تتضرر، أمّا نحن. فهذه هي حياتنا. وإذا لم ينشروا لنا سنُتَّهم بالتقصير، وبعدها نُطرد. وقد فعلوا ذلك مع الكثيرين. Ce sont les anciens reflexes qui reviennent. لم يتغيّروا مطلقاً. حلمت كثيراً بدون جدوى. حلمت عندما تخرجت من معهد الأعلام والاتصال أن أصبح مشرفة على قسم ثقافي مستقل وقوي. لكن عندما ذهبت لأبحث عن العمل لأول إدارة دخلتها بحثاً عن العمل، مسحني الموظفون من رأسي حتى قدمي. عرّوني بعيونهم

المريضة. أدخلوني عند رجل لا شيء فيه من الإنسان إلّا رأسه الأصلع. بعد حديث طويل ظلت عيناه مرتشقتين على صدري. أعطاني تليفونه وعنوان الستوديو الذي يقيم فيه، وقال:

ـ مثل هذه المسائل يجب أن تبحث بسرية.

ـ وعْلاشْ ياخويَا؟ رَاحْ نِدْيرُو انقلابْ؟

ومن يومها لم أعد له، وكلما رأيت شخصاً يشبهه في الشارع أغيّر الرصيف مباشرة. قلتُ من الأحسنِ أن أحضّر الماجستير. سألت الإدارة. قالوا يجب أن تنجحي أولاً في مسابقة الماجستير. ويوم شاركت في الامتحانات كان بعض الأساتذة هم أوّل من أحبط معنوياتي. قالوا لي أنت تتعبين نفسك. القوائم محضّرة سلفاً، والناجحون يعرفون أنفسهم حتى قبل الالتحاق بالامتحانات. لم أصدّق. ولكن يوم الامتحان الشفهي أكد لي ذلك الأستاذ الذي كُلّف باختبار معلوماتي. قال لي.

ـ شوفي يا بنت النّاس ننصحك لله في سبيل الله. طريق النجاح واحد لا غير. ثم مدّ يده نحوي.

خرجت ولم أمتحن، وفي اليوم الموالي ذهبت إلى المدير. عندما رآني، اصفر وجهه ثم قال. هاه. هذه هي أنت. صرختُ.

ـ واشْ كاين؟

ـ شوفي يا اختي رَاحْ نْغمّض عيني ونْديرْ روحي ما شفتش. وَاشْ أدّاكْ لهذاك البوفّا.

ـ لم أفهم.

ـ أستاذ الشفوي قدم تقريراً احتجاجياً ضدك وأنك مددت يدك تحاولين إغراءه للحصول على نقطة.

عندما أردت أن أصرخ، وضع المدير يده على شفتيّ وبدأ يدخل أصابعه داخل شعري. كان قلبي ممتلئاً، ومع ذلك تمالكت وأنزلت له يده بهدوء وخرجت منكسرة الرأس كراية مهزومة. واش

تحب. في أي شيء يختلف هذا الإرهاب عن إرهاب القتلة. ألاّ يكملان بعضهما البعض؟

لم يستح. سبقني إلى الباب، وقالها لي بشكل معلن.

ـ ناديا. الدنيا هكذا. واحدة بواحدة. On fait l'amour, plutôt on baise, et on t'assure la réussite. C'est pragmatique non?

في أعماقي، وأنا أغلق الباب ورائي، عذرته. قلت على الأقلّ هذا الرجل جاء من الباب المباشر. ثم وجدت نفسي داخل هذه الجريدة الفاشلة، لا أدري كيف، كل واحد يريدك له. بضاعة مباحة للجميع. المدير. رئيس التحرير. مسؤول القسم. الصحفي. مع الزمن تعودت على كل هذه الصعوبات، حتى صارت جزءاً حيوياً من الديكور العام للجريدة، وربّما للوطن بكامله. الفساد وصل إلى العظم..

ـ الله يعطيك الصبر.

خرجت منّي هكذا، بعفوية.

ـ والله أحياناً ألعن هذا الجسد، وألعن كوني امرأة، وأحياناً أقول، إذا كان الرجال هكذا، بهذه السخافة، الأفضل أن أظلّ امرأة.

ثم تشعل نادية سيجارتها الرابعة. تمتصّها بعمق كبير. تشعر بكل الحرائق الميتة تستيقظ فجأة في خاطرها. تُبَوّخُ بدخانها عالياً، عالياً. تتأمل السقف الملون. والنوافذ، والثقوب، والوجوه الكثيرة ثم تنظر إلي لينكسر نظرها على الطاولة الباردة وكأس البيرة الثاني الذي فرغ بسرعة.

ـ اسمح لي. بْدَيت أضيّع عقلي. يمكن البيرة دَارَتْها بي. جئت أحاورك، فصرت أحاور نفسي.

ـ أنا كذلك مستفيد من هذه اللحظة. صرنا لا نضمن حياتنا على الإطلاق.

ـ شفت الدنيا شحال صعبة! كل شيء تبدّل. خلّينا على الأقل

نسمع لبعضنا بعضاً. تزوجت فلسطينياً عشقته لكنّي لم أرِد أن أرتبط به بتلك السرعة. كنت في حاجة إلى وقت لمعرفته أكثر. ولكن الخوف والرغبة في الخروج نهائياً من بيت الأهل خصوصاً بعد اغتيال الصحفيين، أصبح لزاماً عليّ أن أجد حلاً. بقيت عنده مدة من الزمن. ثم جاءت أمّي وخالتي وجدتي وخالي وأختي وعمتي ونصحوني بالزواج، على الأقل قبالة النّاس، فالألسنة طويلة وكلامها قاسٍ. لكن أشياء كثيرة استفحلت بعد الزواج. الرجل كان متزوجاً قضيته وهذا من حقه، لكن كنت أريد أن أعيش. وقته كان مفتوحاً وزمني كان ضيّقاً لأن الموت ينتظرني في كل الزوايا. هو على الأقل يشرب ويسكر ويعود متأخراً، متى شاء، كلّما شعر بالضيق، وأنا لا أستطيع أن أغامر داخل البيت بعد الساعة الخامسة. عمري عزيز عليّ. وعندما اكتفى قادته بربع وطن، بات يبكي وفي الصباح عندما قام، خرج ولم يعد إلّا بعد اسبوع، ثم بعد شهر. لقد صار عالمنا الصغير غامضاً، لا هو صار يتكلم ولا أنا صرت قادرة على تحمّل صمته. وافترقنا. يبدو أنه عندما ينكسر عمق الناس، لا يمكن تصليحه بسهولة. فهو مثل الزجاج الشفّاف. إذا انكسر انكسر. يظل العطب قائماً.

- أوف كثّرت عليك. حدثني عنك. كيف تعيش يومك.

- أنا. أنا.

أتأمل هذا الخواء المخيف، رغم حديث النّاس الذي كان يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى تمتمات ثم إلى لا شيء.

- من بقايا الديناصورات التي لم تنقرض. كبقية هؤلاء النّاس المفجوعين. مثلك. أستيقظ صباحاً، أشرب القهوة أو لا أشربها. غير مهم. تسبقني ريما نحو الشرفة. أنتظرها ثم تعود ركضاً تسبقني مع فاطمة، تمسحان الدرج بعيونهما، ثم تؤشران بالأيدي من أسفل البناية، تماماً وكأننا نعيش فلماً بوليسياً أسود. أراقب السيارة ثم أركبها. ألوّح للعيون المعلقة على الشرفة ثم أنطلق نحو

فراعات الموت المؤجّل. وفي المساء، مع بعض الحظّ أعود الى البيت. وعندما أصل البيت، نتأكد من دخولنا جميعاً. نحمد الله على مرور اليوم بسلام وننتظر بخوف الغد، إذا كان هناك غد. هذه هي رحلتي اليومية وهي مشابهة ربّما حتى في تفاصيلها لآلاف الرحلات اليومية.

ـ كيف حال صحّة ريما؟

ـ هذه البنت تشغلني كثيراً. الطبيب بعدما قرأ التحاليل يقول لا شيء. لكن صفرتها تزداد كل يوم أكثر. سأعاود التحاليل.

ـ ربّما من خوفها عليكم جميعاً. والله اشتقت لشقاوتها.

ـ خسرت طفولتها مبكراً. تركت كل دُمَاهَا. تكتب الآن في كراسة مذكراتها. وتعزف على البيانو مقطوعات حزينة تتخيلها وتعطيها عناوين قصائدها التي كتبتها عن بلادها. حرت. سألت صديقة نفسانية. قالت أتركها، هذه وسيلتها لإخراج ما في داخلها حتى لا تصاب بأزمة حادة.

تمتص نادية سيجارة جديدة. يغيب وجهها الصغير النّاعم داخل الأدخنة، وتنسحب قهقهاتها ليحلّ محلّها صمت وكآبة وأسئلة تستعصي على الخروج. تطلب بيرة أخرى. ترفع كأسها بحزن، ثم تدلف الكلّ دفعة واحدة في فمها. تبحث عن سؤال آخر. تجده بصعوبة كبيرة. تمتلئ المنفضة بأعقاب السجائر التي اندفنت داخل الرماد كعساكر ميتّة.

انتبه إلى المحيط. أغلبية رواد المطعم انسحبوا بهدوء، شيئاً فشيئاً، بدون ضجيج أو ربّما انغماسنا في الفاجعة منعنا من رؤية ما كان يدور حولنا. أنظر إلى الساعة.

ـ نادية أعتقد أنه من الأفضل أن نقوم، أنا عليّ أن أذهب إلى الجنازة.

ـ أنا ممتلئة وأنتَ ممتلئ. صرنا لا نحكي للناس. ندفع خوفنا ثم ننزل إلى المدينة لنشتري فاجعة جديدة وخوفاً آخر. ما عْليهش.

أنا كذلك عندي موعد مع أُمّي في بيت صديق. عليّ أن أراها. مسكينة نسيَتْ كل أمراضها المزمنة وصارت منشغلة عليّ. سأشتري عِلْكة حتى أزيل الرائحة من فمي، رائحة بيرة «نواس» تفضح صاحبها من بعيد. وتعرف ما معنى الشرب في أذهان أهالينا.

ـ وصلنا الى مرحلة صرنا نقبل فيها كثيراً من الأشياء. وأعتقد أن الأهل نفسهم في لحظات خلواتهم يتقبلون منا هذه الحماقات الصغيرة. لو لم يكن الوضع على ما هو عليه، هل سيقبلون منك العيش مع غريب بدون زواج؟ هل يقبلون منك أن لا تعودي إلى البيت مساءً؟ أشياء كثيرة بدأت تتغير داخل هذا الظلام.

تقوم. أمدّ لها يدي. أشعر بدفئها. تتكئ على كتفيّ. ثم نخرج إلى الشارع. توقظها النسمات الباردة. تفتح عينيها جيداً. تتأملني. تكتشف بتثاقل أنّي وضعت النظارات والشنبات، وغيرت تسريحة شعري. تكتم ضحكتها الانفجارية.

ـ يا خويْ! هذا أنتَ. لا. لا. أفضلك كما كنتَ. شدّة وتزول. أوف! رُخْتْ فيها.

تتدحرج قليلاً، ثم تستقيم على رجليها.

ـ Je crois que ça ira. Je peux me tenir debout. Ah cette bierre! نحن في حاجة لأن نكون رومانسيين من حين لآخر حتى ولو كان ثمن هذه الرومانسية غالياً.

أقبل جبهتها وأقبض على يديها المضمومتين بقوة. تبتسم.

ـ احرز روحك. العجايَزْ اللي عندهم السنّين بزّاف في المدينة.

تتذكر النكتة، ثم تنفجر كالملحة. تقهقه عالياً ثم بسرعة تندفن بين الجموع، بينما آخذ أنا الاتجاه المعاكس، ناحية موقف التاكسيات بالقرب من نزل الألِيتي.

وأغوص داخل التمتمات والوجوه وتفاصيل المدينة والناس الذين ينتظرون فراغاً.

6

13H - 33 MN

ـ من فضلك مقبرة العالية. طريق المطار.

ـ واش حسبتني جاي من الواق واق. نعرف طريق مقبرة العالية. مَشِ طريقي ولكن مَغْليهش أركب. دِيرْ الخير وانساهْ.

انتظرت طويلاً قبل أن أجد هذه السيارة ولهذا لا داعي للدخول معه في القيل والقال. الغريب في هذه البلاد أن كل شيء يسير فيها بالمقلوب. دائماً يعطونك الإحساس وكأنّهم يمنّون عليك، وهم لا يتوانون عن طلب أثمان باهظة مقابل رحلات صغيرة داخل المدينة. كنت أتمنّى أن أصرخ بأعلى صوتي، أنا دائماً أتمنى أن أفعل ذلك ولكنّي لا أفعل، إذ يبدو أنه يومياً مع الزمن ابتلعت لساني، خصوصاً عندما يكون الأمر تافهاً. صرت أكتب أكثر مما أتكلم. مع القلم أجد أُنساً وتوافقاً خاص لقد بدأنا نفقد المحيط والوجوه. شيء ما فيه، ليست لنا مطلقاً. ترى النّاس يدخلون في عراك في مسائل هي في الجوهر تافهة وقد ينتهي الموضوع إلى سحب السكاكين والتهديدات بالقتل. قد نتجادل حول قضية أنا متأكد منها تماماً. ويواجهني صديقي الذي رضع من جبهة التحرير طويلاً واشترى من خلالها فيّلاته بالدينار الرمزي ثم انكفأ فجأة داخل الأطروحات الإسلامية، ويحمد الله على عودته إلى الطريق المستقيم بعد أن ترك

لحيته السوداء القاتمة تتدلى على وجهه، يواجهني بإجابات مطلقة، كنت أناقشها، لكن مع الزمن بدأت تتحوّل بالنسبة لي إلى مضيعة للوقت. انسحب ثم أقنع مريم أن المسألة من التفاهة، من العبث جدّاً تضييع الوقت فيها والوقوف عندها. قبل عشر سنوات، وربما أقل، لم يكن هذا ممكناً على الإطلاق، ربّما عامل السنّ. فقد بدأنا نكبر بسرعة كبيرة. كل يوم في هذه البلاد يقاس بالشهور، وربما بالسنين أحياناً، لكثافته وجنونه.

البلاد لم نعد نعرفها جيداً، ويبدو أنها هي بدورها نسيتنا.

كانت السيارت تحاول أن تشق لها طريقاً وسط الزحمة، مع أنه ليس وقت الزحمة على الإطلاق. يبدو أن النّاس صاروا يأتون على العاشرة للعمل بدل الثامنة، ويدخلون بيوتهم على الساعة الثانية. رغم رطوبة الجو، فقد كان العرق يملأني من رأسي، حتى أخمص القدم. كان السائق يحاول أن يجد منافذه بصعوبة باتجاه المحمدية والحراش ولافيجري، لكن الكثير من المعابر كانت مغلقة. ثم فجأة توقفت السيارات نهائياً. كان قطيعاً من الأغنام يقطع الطريق وصاحبه وراءه، في وسط المدينة. لم يستطع السائق أن يتحمّل.

ـ واش هذا الخراء؟ من أين خرج؟ يا خي خمار!

النّاس لم يعودوا قادرين على تحمّل أي شيء. تساءلت في أعماقي، من يكون الحمار تماماً وسط هذه المعادلة المعقّدة. هذا الرجل واش جابو لَهْنَا بأغنامه؟ وهذا السائق لا يملك لغة أخرى غير هذه؟ هل الحمار الذي يقطع الطريق بأغنامه أم الذي يريد أن يطير في زحمة لا تتطلب شيئاً آخر سوى الصبر والتحمّل داخل أحياء صارت تعجّ بالآدمين والسيارات. الشيء الوحيد الذي يسير بقوة إنتاجية عالية هو الولادات، إذ بعد سنوات قليلة سيأكل النّاس بعضهم بعضاً. قلت للسائق، محاولاً أن أتفهّم حدة إنزعاجه.

ـ ماعليهش خوَيا راك شايف النّاس كثروا في البلاد. نسبة الولادات عندنا هي من أكبر النسب العالمية.

ـ مش هذا هو المشكل. قلّة التربية هي المعضلة. الرسول قال، تكاثروا إني أباهي بكم الأمم، إذن المشكلة ليست في العدد. كل واحد يجي، عنده رزقه في يده.

ـ لكن كيف تنجب خمسة أطفال أو عشرة وتتحدث عن التربية في ظلّ هذا الوضع، لا عمل، لا سكن، مانفهمش.

ـ ياخوُ. شوف أنا عندي سبعة أطفال. الحمد لله. والله ما تسمع هدرتهم. كلهم يصلّون والصغيرة حجبتها والكبيرة أخرجتها من مدرسة الكفر.

تجمّد لساني في حلقي. فكرت أن أقول له، يرحم والديك إنزلني هنا، لكن المسافة كانت ما تزال بعيدة. علي أن أتحمل هذيانه. شعرت بوخز في القلب ولم أتملك عن سؤاله.

ـ الصغيرة شْحال عمرها؟

ـ ست سنين. دَخّلْتها هذا العام للمدرسة.

تسليت قليلاً بالصمت وبحركة النّاس والسيارات وهذا اليوم الثقيل الذي لم أرَ شمسه على الإطلاق. كان السائق أحياناً يسير بهدوء، وفي أحيان أخرى يضغط على المحرّك إلى درجة الانفجار. تمادى الصمت بيننا كثيراً، لم أجد لغة أخرى غير اختراق قوقعته وانغلاقاته التي فاجأني بها. لم أجد رغبة لِلحديث في العموميات، فالرجل وضعني في عمق كارثة تأكلني من الداخل. لاحظ هو ذلك. بدأ يشعر بقلة حماسي لحديثه. مدّ يده نحو زرّ الراديو. خرج منه صوت فيروز دافئا مثل الحليب.

أنا وشادي غنيّنا سَوا

إلعبنا على الثلج، إركضنا بالهوا

وكتبنا على احْجَارْ

قصصْ صْغارْ

أغمضت عينيّ قليلاً. بدأت أشعر بهدهدة لم تَطلْ طويلاً، إذ سرعان ما كسرها السائق الذي لم يسألني مطلقاً عن ذوقي. لم تكن القضية تشغله. لم يفكر في ذلك على الإطلاق هو الذي كان يتحدث قبل قليل عن الحمير الذين لا يفهمون.

ـ أستغفر الله.

ـ واش صار يا رجل. فيروز صوت ملائكي وأغنية جميلة عن الطفولة والحرب.

ـ حتى أنا كنت أقول هذا الكلام قبل سنة حتى تاب عليّ ربّي. ألا تعرف؟ الإمام قال عنها أنها مسيحية.

ـ ومن بعد! هذا شغلها.

ـ كيفاش ومن بعد؟ قلت لك مسيحية؟ كافرة.

ـ هذا أمر يخصها مثلما أنت مسلم، والآخر يهودي... و...

ـ حاشَاكْ. كي تقول يهودي، قُلْ حاشاكْ.

ـ يا رجل، أنت مسلم وإلاّ طاغية؟ اليهودية والمسيحية، كلها أديان سماوية. وغلاش المسلم هو الوحيد اللي في الطريق المستقيم، والبقية كفرة وملحدون؟

ـ هم قتلوا أنبياءهم وشوهوا أديانهم.

ـ يا خويا راكْ غالط. حتى احنا قتلنا كل الخلفاء وسبينا ذرّية الرسول.

ـ شكون قال مثل هذا الكلام؟

ـ التاريخ. إقرأ وتْشوف.

ـ لستُ بقارئ. ودَابور مانَسترْفعش بكتب التاريخ هذه.

أخرج شريطاً جديداً كان ملفوفاً في ورق أصفر، ثم أدخله في

عمق المسجل، وزاد في الصوت قليلاً. كان مزعجاً ومؤلماً للأذن: *يا ذرية الرسول انهضي من سباتك، الطاغوت يتهاوى...*

ـ ياخُويا نقّص يرحم والديك.

ـ هذا الشيخ الكشك. كل ما قاله تحقّق. الله أعطاه بصيرة لم يعطها لأي شخص آخر. هكذا يُجمع كلّ الأئمة.

ـ أي أئمة؟

ـ أئمة مسجد كابول بالعاصمة، ووادي أوشايَخ، ودرقانة، وبرّاقي.

شعرت به يتهيّأ لردّ فعلي، ولكنّي خيبت ظنه عندما صمتُ. لا يعقل!؟ لا بدّ أن يكون الفراغ مهولاً في أعماق الناس، واليأس كبيراً ليصدقوا هذا الكلام الفارغ وهذه الأمية المتعلمنة. الشريط لم يتوقّف: *[يا أمّة الراشدين. إن الرسول يفتح طاولته أمامكم، ينتظر عودتكم. أقسم أن لا يتعشى إلاّ في حضرتكم. كونوا شهداءه أمام الطاغوت. لقد رأيت في ما يراه المؤمن...]*.

أردت أن أقول له مرّة أخرى يرْحمْ والديكْ نَقّصْ شْويَهْ، ولكنّي عدلت عن فكرتي. مضيعة للوقت، وعلي أن أتحمّل عقوبته وجلده. بدأت أتسلّى بالكتابات التي في السيارة: *الله أكبر*، على الزجاج الجانبي *محمد رسول الله*، على لوح السيارة، بجانب المقود كتبت آيات الكرسي بكاملها على صفيحة بلاستيكية مُلصقة بإحكام. على الزجاج الخلفي. كُتب بالأبيض على صفيحة بلاستيكية خضراء: *الجبهة الإسلامية للإنقاذ*. فوجئت أنه لم ينزعها. خلته يتحدّى طواحين الهواء. بدون عمق دونكيشوت ولا ثقافته.

انكمشت داخل نفسي، أنتظر بفارغ الصبر بروز المقبرة، لأقول له انزلني يرحم والديك، ولكنه سرعان ما سرق منّي إغفاءاتي المتقطّعة.

ـ واش تخدم يا خُو؟

كدت أقول له: أستاذاً جامعياً، ولكن عينيّ هذا الرجل لم تورثا لدي أية راحة وأي اطمئنان. الغريب أن ردّ فعلي دائماً في مثل هذه الحالات يستعصي عليّ، لأنّي أشعر كأني أستجيب لحالة الرعب التي يريد القتلة أشاعتها في البلاد.

ـ معلم في مدرسة ابتدائية في الشّلف

لا أدري أصلاً لماذا قلت له الشلف. ولماذا قلت معلماً مُخْفياً مهنتي الحقيقية. هذا الرجل لا يُطمئن مطلقاً. وجهه كان يزداد بروداً كلّما قلت له كلمة لا تروق له. لم يكن مريحاً على الإطلاق مثلما هم عادة سائقو التاكسيات. ولكن أشياء كثيرة تغيرت منذ أكثر من سنتين، الكثير منهم وضع على الزجاج الخلفي لسيارته إشارات البيعة والتأييد: *الجبهة الإسلامية للإنقاذ أو عليها نحيا وعليها نموت وعليها نلقى الله*. وتحوّل إلى تلفون متنقل لتسريب الإشاعة. لم يكن الأمر مصادفة، لأنه صار يتكرر معي كلّما ركبت تاكسي عند الضرورة. حتى قبل أن أسأل أُباشَر:

ـ على بالَكْ واشْ صار اليوم؟... ياخَايْ راكْ نايَمْ على وَذْنيكْ بزوج. البارحة في تجمّع الملعب الكبير، نْكتْبتْ في السماء، لا إله إلّا الله... لا حُكمْ إلّا الله... الجزائر مسلمة..

أضحك. يسبقني الى القسم. أتسلّى. يرد بيقين.

ـ وحق ربّي كنت هناك. وشفتْ بعيني. ماراكشِ تقول لي أنّك ما تعرفش حكاية البراقْ؟

أسأل باندهاش.

ـ واشْ من براق؟

يرد بتجهم.

ـ أنت وَقيْل ماراكش تعيش في هذه البلاد. البارح السيد عليّ وسيدنا جبريل تْعَشّاوْا في شاراش.

ـ إش معنى شارع شاراس تحديداً.

ـ يا خي مقرّ الجبهة الإسلامية للإنقاذ. كان هناك اجتماع وطني لمجلس الشورى وربي رضى عليهم. دايرين حالة في الطّاغوت. في جبال مليانة حوصر أحد المجاهدين من كل جهة بالدبابات ما نْقول لك مائة، ما نقول لك مائتين! كان بْوَحْده. صلّى صلاة الخوف ثم حمد ربه على المصير وصرخ: قلْ ما يصيبنا إلاّ ما كتبَ الله لنا. ثم حمل حفنة تراب ورماها على الدفعات الأولى من الدبابات فجعلها كعصف مأكول، ثم الدفعة الثانية والدفعة الثالثة، أمّا بقية الدفعات فقد استغفرت الله القدير لما رأت بعينيها كراماته، والتحقت به وهي الآن تكوّن أهم كتائب الرحمن.

قلت في خاطري لا يمكن أن تكون كل هذه الخرافات وليدة الصدفة. لا بدّ أن تكون منظمة من عقل معينّ هو مصدر الإشاعة ويعرف جدياً أنها إشاعة. لم يجد أحسن من التاكسيات لتسريب كل هذه الثقافة. فالتصاقها اليومي بالمواطن يجعل منها أداة صارمة وقوية للدعاية.

نبّهني مرّة أخرى وهو يطمئن إليّ.

ـ معلّم. الحمد لله ريحتني. الشلف، خُيارْ الناس. أنا كذلك كنت معلماً. ولكنّي عندما رأيت المنكر ولم أستطع تغييره، غيرت مهنتي. العمل عند الطاغوت حرامْ.

ـ وهؤلاء الملايين الذي يسيّرون هذه البلاد، كلهم في جهنّم في نظرك؟

ـ الإمام يقول...

ـ أي إمام يا رجل؟

ـ إمام باش جراح. معروف. يقول أن الطاغوت يجب أن يُقاطَع. فقاطعت المدرسة، واش راهم يتعلمون؟ الجهالة في الجهالة والكفر. واختلاط البنات بالأولاد. مدرسة لا علاقة لها بتقاليدنا وحياتنا.

ـ أنا معك. هذه المدرسة ميّتة وتحتاج إلى إعادة نظر من أساسها.

ـ شفت كيفاش يهديك ربّي. إنهم لا يقرأون شيئاً. الديّن مُجِيَ تماماً من البرنامج.

ـ لم يبق في البرنامج إلّا الدين. الرياضيات والأدب تحوّلت إلى دروس للتجنيد والدين. منذ أكثر من عشر سنوات والمدرسة الجزائرية تحتضر. أصبحت مدرسة لتربية الهوايش. لا عقل ولا دين. الطفل يضيع منذ سنواته الأولى بين عالمين أقوى منه. عالم العقل والميتافيزيقيا.

ـ واش هذه الكلمة الأخيرة؟ الميتا...قِـ..فِـ..زا..

ـ أوف كلمة صعبة. لنقُلْ الغيب.ما وراء العقل.

ـ مليحَه هذه! ربّي وَلَّي ميتا..قـ.. فِـ..زا... وإلاّ ميقافيـ.. زِقا أو ميتا.. حيز.. يقا.. أوف الكلمة صعبة. أنت وَقيلَ مَشِ معلّم ولكن حاجَةْ أخرى!

ـ مجرّد معلم، لا أكثر ولا أقل.

ـ كيفاش تسمح لنفسك تقول كلاماً مثل هذا؟ لو نحْكمْ هذه البلاد يوما واحداً نقلب سافِلْ على عافِلْ. خلطها تَصْفَا.

ـ يا رجل! أنت سائق سيارة. مكانك أن تكون سائقاً جيداً. وأنا معلّم، وظيفتي أن أكون معلماً جيداً. لو فكر كل واحد بهذه البساطة لكانت البلاد على حال غير هذه. ولنترك البقية لكبار الأمّة. لا يمكن أن يكون كل النّاس طواغيتاً.

ـ طاغوت ونصّ. لا كبير إلّا الله سبحانه وتعالى. البقية متساوون أمامه. لا فرق بين عجمي وعربي إلّا بالتقوى.

ـ لكن هناك فرقاً كبيراً بين العالم والجاهل.

ـ العالم من عرف حدود الله والجاهل من جهل دينه. هذه البلاد

تحتاج إلى إعادة نظر من أساسها حتى ولو استدعى الأمر محوَ الثلثين كما يقول إمام مسجد كابول (بلكور). من أجل بناء ذرية صالحة.

ـ طيب. السياسة، علم الاقتصاد، الفلسفة، الفكر، الإبداع، الفنّ، الثقافة، كل هذه التخصصات لا قيمة لها.

ـ يا خويا شوف، إذا كانت هذه الأمور موجودة في القرآن بها ونِعمت، وإذا لم تكن موجودة في ستين داهية. الله لا يردّها.

لم أجد كلاماً آخر. أصلاً، شعرت بنفسي مثل المجنون، أدخل حواراً، هو أصلاً ليس حواراً. شيء آخر. دورة مغلقة. لا تنفتح إلّا لتنغلق على نفسها من جديد. هو لا يسمعني وأنا لا أستطيع فهمه على الإطلاق. فالجهل إذا امتزج باليقين أصبح قنبلة ذرية في يَدِ رجل أعمى القلب والذاكرة. لست بالنسبة له أكثر من بقايا الجاهليين الأوائل الذين يجب أن يُمْحوا نهائياً من هذه البلاد.

انتبه إلى صمتي، والى التفاتي نحو حركة السيارات الجانبية والى وادي الحراش الذي كان يقذف كل أوساخه في البحر الذي فقد لونه في مصّب الوادي.

ـ واشْ ياخُو. ماعَجِبَكشْ كلامي القَاصَحْ؟

ـ حاشا يا خو. استمعت لك، واستمعتَ لي.

ـ شكاتَك هذا مايعجبنيشْ. مانعرفْشِ إذا كنت معي وإلاّ معهم.

ـ أنا مع روحي. مليح!

ـ أواه أنت تَخُز بيَ. أنت مَشِ معلّم.

ـ يرحم والديك أنت واشْ. سائق سيارة وإلاّ ضابط مباحث؟

ـ أنا لا شيء. رجل لا حقّ له في هذه البلاد حتى في أن تكون له لحية. يعجبك هذا الكلام. جربتها مرّة كسنة حميدة، كل ما يشوفني

رجال الأمن يمررون كل النّاس إلاّ أنا. قلت نقلع ربها ونتهنّى. أستغفر الله الغفور الرحيم.

- ما دمتَ مقتنعاً بها لماذا نزعتها.

- في الحقيقة نزعتها وكأني لم أنزعها لأنّي أعلنتَ التقيّة.

- ما فهمتش! واش هي التقيّة؟

- حتى أنا ما فهمتهاش مليح. لا زم لها علوم كبيرة. ولكن إمام باش جراح قال لي انزعها واعلن التقية، فكأنك لم تنزعها. وهذا ما فعلته.

- الآن عندك لحيو طبعاً.

- الحمد لله. أنا في إطار الشرع والسنّة.

الآن أفهم جيداً لماذا يُذبح النّاس بلا رحمة. عندما ينغلق المخّ على ممتلكاته الصغيرة ويحيطها بسياج من الضغينة والخوف يصبح الجهل والقتامة والظلام سادة الدنيا. الذي قتل يوسف لا يعرف عنه شيئاً سوى الصيغة التي أسمعوه إياها والنصيحة التي سلحوه بها: بقدر ما يرغي المذبوح ويتعذب، سيُغفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر. لم يجد السائق تسلية يعذبني بها، سوى الزيادة في صوت الكشك الذي كان يصرخ بأعلى صوته. فتحت زجاج السيارة على الرغم من البرد الذي تسرّب إلى عظامي. اختلط صوت الكشك بهدير السيارات الكثيرة والزمّورات والأصوات الغامضة للناس الذين كانوا يقفون على حاشية الطريق. أتخيل أنّي لو كنت مؤمناً، سأفقد حتماً كل إيماني أمام أشخاص مثل هذا الرجل الذي لا يعرف شيئاً آخر سوى القتل أو الالتصاق بكلامه حتى ولو كان ما يقوله جهلاً بالدين نفسه. ياخِي أتركوا الله لله، والدنيا للدنيا والناس للناس. تمتمتها في خاطري رغم أنّي خلت نفسي أقولها جهراً، لكن وسط عالم مقلوب مثل هذا هل يستطيع صراخي أن يصل؟ أخرجت رأسي قليلاً من النافذة. بدل الهواء، تنفست رائحة المازوت الكريهة ورائحة

الوادي. قلتُ ليكن. أفضل من الموت داخل هذا المكعّب الحديدي. حاولت أن أستعيد مريم... ريما... يوسف... لكن كل شيء استعصى عليّ. كل الأشياء الجميلة التي أقربها، تتجنّح ثم تنسحب وتغيب داخل فراغ الخوف. لم أعد أرى إلّا هذا السائق بوجهه الحديدي، الذي كان يزداد تصلّباً كلّما نظرت إليه في عينيه. رأيته في غفوتي التي ساقتني إليها الهواء البارد الذي ابتلع كل الروائح الكريهة المحيطة به، وهو يسحب سكيناً صدئاً ويذبح الرجال المكتفين مثل الحرفان والموضوعين عند قدميه. عرفت بعضهم. هذا الطاهر، والله الطاهر الله يرحمه. وهذا يوسف.. وهذا.. هاه.. عبد القادر. وهذا رشيد. هاه هاذاك السّي محمد. وهذا الجيلاني، عرفته من ابتسامته المنكسرة. لكنهم كُثُر. يتكاثرون كلّما قاربت الوصول إلى آخر واحد منهم. كان يقطع رؤوسهم ويتسلّى بنزعها ووضعها على أجسام مخالفة لها.

ـ السي مُوحْ! وين نحطّك.

التفتُ نحو صوته بسرعة، كانت عيناه ما تزالان على وضعهما الحاد، والحاقد.

ـ يا خِي، قلت لك في مقبرة العالية!

ـ واش كاينْ؟ كانشِ كافر طاحْ. هذه الأيام يتساقطون كالنمل. فتاوي السيد عليّ دَايْرةْ فيهم حالة.

ـ واش من سيد علي؟

ـ عليّ بلحاج. يقود الجهاد المقدس من قلب الطاغوت نفسه بكراماته.

ـ واش من جهاد؟ قتل الأبرياء، المواطنين البسطاء، المساكين الذين لا حماية لهم إلّا الأرض والسماء. اغتصاب صبايا مثل النور؟ هذا هو الجهاد. الذين أوصلوا البلاد إلى الكارثة يتجولون في المدينة كِي البارح، كِي اليوم.

- الهرم لا يتهدم من رأسه، ولكن من تحت.

- أنتم لا تهدمون هرماً، بل تحرقون بلاداً بكاملها. لا توجد قضية سوى القتل والجريمة.

خفتُ من استعمال كلمة أنتم وبعدها قلت فليكن. عليه أن يسمع ما لم يتعوّد على سماعه. ولكن لم ينتبه. تمادى في سجاليته.

- خلطها تصفا. بعدها سنعاود بناء كل شيء.

- باش تبنوها؟ بالريح؟

- بالرجال الصالحين، الذين إذا طلبوا معونة الله لن يخيب ظنّهم.

- الذين يُقتَلون غير صالحين إذن.

- حتى ولو كانوا صالحين، ما داموا قد ناصروا الطاغوت صاروا منه.

- هل تعرف أن هؤلاء الذين يقتلون كانوا سجناء السلطة واليوم يقفون عراة أمام السكاكين. أضعف الحلقات، ونهايتهم ترضي الكثيرين.

- الله لا يردّهم.

فجأة قلت له توقف. فوجئ بالزبل الذي كان قد طلع إلى رأسي. توقف.

- هذه ليست مقبرة العالية؟ ما زلنا في Quatre chemins.

- وقّف يرحم والديك وخذْ شْحالْ تحبْ.

رميت له خمسين ديناراً في حجره ثم انسحبت وكلماته الأخيرة ما تزال في رأسي.

- يا خي أنت معلم وأنا كنت أتحدث عن المثقفين!

لم أعد قادراً على تحمّل شيء آخر، حتى جسدي بدا لي مترهلاً

وثقيلاً. من لذة البيرة إلى وجه نادية الطفولي والى بياضها المشّع إلى ظلال ريما الحزينة، وفداحات غياب مريم. إلى هذه الكارثة فجأة. أدخلني في مدارات الخوف والظلمة ولم أعد قادراً على تحمّل كلامه.

عليّ أن أقطع المسافة المتبقية لوحدي وداخل لذة الصمت الذي كان يسحبه النّاس وَراءهم بخوف وإعياء. مقبرة العالية لم تعد بعيدة كثيراً وعلي أن أبذل مجهوداً آخر مع هؤلاء النّاس الذي يتوجهون جماعات، جماعات نحو المقبرة. شعرت برغبة خاصة للتدخين. أخرجت سيجارة وأنا أشعر في أعماقي بسعادة غامرة لتخلصي من سائق التاكسي الذي تحملت ثقله أكثر من اللازم. أجهدت نفسي لأنسى صورته نهائياً. صورة لم تكن توحي بأية راحة.

بدأت قطرات الأمطار الخفيفة تزداد كثافة. شيء ما، حزين جدّاً، كان قد بدأ ينبعث من أعماقي. من أعمق نقطة في لم يكن فيها شيء سوى الدهاليز والظلمات. بدأ الحذاء الجديد يؤذيني. ملأني وجه مريم. تركت نفسي أنساب داخل نورها وابتساماتها وانزعاجاتها.

ـ والله أنت هو أنتَ. الحذاء تقطّع. ما تفطن حتى يقّبْضَك الروماتيزم.

ـ شكون هو الروماتيزم اللي يقبضني، إرهابي وإلاّ شرطي؟

ـ يزّي من التمسخير. كل شيء تحوّله إلى عبث حتى صحتك.

ـ نحتاج إلى بعض العبثية لتحمّل قساوة هذه الحياة.

ـ أنت بْوحْدَكْ. تنتظر أن يدخل عليك الماء وأن ينفلق الحذاء إلى اثنين!

كل شيء صار بعيداً في هذه المدينة إلاّ الموت. لقد دخل

الذاكرة، وكأس القهوة وأعماق الحبر الذي نكتب به أشواقنا وأحزاننا وأفراحنا الممنوعة.

بدأت الأمواج البشرية تزداد كثافة، وعندما توقفت عند مدخل مقبرة العالية، كانت ضخامتها وامتداداتها تتجاوز مرمى العين. رأيت أصدقاء كثيرين. بعضهم عرفتهم ولم يعرفوني. بعضهم شك في ملامحي. يبتسم بتعب، ثم ينسحب. البعض، أنا شككت في ملامحه. ثم بدأ النّاس يتسربون بهدوء وصمت تحت عيون رجال الأمن الذين ملأوا فجأة كل محيط المقبرة ومدخليها الكبيرين. دخلت إلى الأعماق بعدما ضيعت كل الصوّر إلاّ وجه يوسف ووجه السائق بسكينة حادة. كان الصمت قاسياً ومخيفاً. من حين لآخر أسمع صوتاً جافاً يأتيني من بعيد وأنا أتهرب منه بكل جهد. كان يشبه صوت السائق. أغمض عيني وأكزّ على أسناني حتى أستعيد الصمت من جديد.

7

14H - 11MN

نوّاره كانت حبيبته ولم تكن أخته.

يوسف كان مولعاً برسم النور.

ـ كارثتي يا صاحبي أنني كلّما وصلت إلى النور، تسرب من يدي كالرمل الناشف.

كلّما عاودني وجهه الصغير، سكنتني حالة من الخراب واليأس والخسارة. شيء من طفولته لم يستطع أن يتخلص منه. كلّما انزعج من شخص، أنّبَ نفسه حتى الموت. يتعذب مثل مجنون. هذه البلاد ستجنّنا جميعاً، قلتها له ذات مرّة وهو يحوّل حادثة بسيطة إلى مندبة. امتقع لونه من رجله حتى قسمات وجهه. شعرت به انكسر فجأة.

ـ هذه البلاد هَبَّلتنا منذ زمن بعيد.

عرفت قدر حماقتي.

يوسف بعدما سُجن طويلاً بعد انقلاب 1965 بتهمة التحريض والكتابة ضدّ السلطات العسكرية كان متعباً، في كل مرّة يصاب بنوبة تطول معه وتقصر، ولهذا تعوّد أن يلوم نفسه دائماً، فهو يشعر، أنه كان يمكن تفادي الكلام الزائد كما كان يُسمي مشاحناته مع

الآخرين. مرّة أُخذ من أحد بارات المدينة بتهمة الجنون والتهديد بالقتل للآخرين، بقي أسبوعاً ثم خرج. في المرة الثانية اتهموه بنفس التهمة. في المرة الثالثة سُحِب من بيته بعد حلّ اتحاد الطلبة الجزائريين وأدخل في المستشفى، ولم يخرجوه إلّا بعد سنة. كان نحيفاً ومنكسراً ولكنه كان أكثر صفاءاً من أي زمن مضى.

- ولهذا أنا مجنون بالنور. أتمنى أن أرسمه بكل ألقه. في هذه البلاد لم أرَ إلّا ظلام الحفرة وظلام السجن، وظلام مستشفى المجانين. في عمق أي واحد فينا حالة لا شكل لها، لا يستطيع لمسها، هي التي تعطينا كل المبررات للعيش والحياة.

وقبل أحداث 1988 بساعات قليلة، داهموا بيته. أخذوه. ضحك طويلاً وهو يركب سيارة الإسعاف التي أحضروها له خصيصاً. عرف من عيونهم أن شيئاً خطيراً بصدد الوقوع. يقول. لم أسألهم عن السبب، لأنهم في كل المرات التي أخذوني فيها لم يكونوا محتاجين إلى سبب معيّن. يأخذونني مدة من الزمن، وعندما يتذكرونني، يطلقون سراحي. الأمر بيننا لم يكن إشكالاً على الإطلاق. وأنا في الحجز الذي عوملت فيه معاملة عالية الاحترام دفعتني إلى سؤال لم أستطع كتمه للمسؤول.

- طيب! واش صار؟ لم أكتب لا شعر ولا مقالة. حتى الرسم لم أرسم إلّا الهبال الذي لا قيمة له إلّا لدي.

- هذا أجراء وقائي فقط. خوفاً عليك.

- خوفاً عليّ؟! واش دَرْت؟

- هناك أزمة. أرجوك هذا ما أستطيع قوله.

وفي اليوم الموالي عرفت الحقيقة. لقد اندلعت أحداث أكتوبر. هذا واش معناه؟ الأمر لم يكن يحتاج إلى عبثية خاصة. وحَقّ محمّد هُمْ اللي دَبَّروها خوفاً من شيء آخر. أوجدوا نظاماً اشتراكياً على

الطريقة الوطنية وعندما أعطى بعض ثماره نقضوه، وهم يحتاجون إلى حركة كبيرة وخطيرة يمرون من ورائها ومن خلالها للإجهاز على ما تبقى من نظام اقتصادي استفادوا منه وحولوه إلى إطار مفرغ. يخافون من الناس ومن التحركات الشعبية. أعطوهم فرصة للتنفيس وللانتقام من قطاع الدولة بشكل نهائي. الذين يمكن أن يزعجوهم من مثقفين وفنانين ونقابيين دفنوهم في الحجز بدون مبرر ولم يطلقوا سراحهم إلاّ بعد توقف الإضرابات. أنا أستغرب في ظل وضع أمني مسيطر عليه بإحكام، كيف استطاع النّاس في الوطن بكامله أن يعرفوا أن يوم 5 أكتوبر لن يكون يوماً عادياً؟ منطقياً حدث ما كان يمكن أن يحدث. لقد حوّلوا كل شيء باتجاه الاستهلاك وضربوا القدرات الإنتاجية للبلاد بتقسيم وتفتيت المؤسسات الاستراتيجية أو ما أسموه بإعادة الهيكلة. وخرج النّاس للشارع، خربقوا الحسابات قليلاً ولكن سرعان ما عادت الأمور إلى نصابها وبدأوا يحضرون بكل ديمقراطية لخارطة الدم والخوف. أنا أتساءل، كيف يمكن للذي عذب الأطفال ونزع أظافرهم وأعضاءهم التناسلية وألسنتهم، واغتصب الكثيرين منهم أيام أحداث أكتوبر أن يتوب الله عليه فجأة ويصير ديمقراطياً. لا..لا.. يزيك يا رجل من التخريف وحسن النوايا. هم يرتبون لشيء آخر، نصفق عليه نحن وسيأكلنا واحداً واحداً.

ها هو هذا الشيء الذي لا يحمل وجهاً يلحق بيوسف ويبتلعه نهائياً. لقد كان نبياً، وكل ما قاله صار حقيقة مريضة نعيشها يومياً وبقساوة كبيرة. كان يتهيّأ صباحاً لتسليم قرار لجنة التعذيب حول تجاوزات أكتوبر التي نسيها النّاس بعد سنوات النشوة والديمقراطية بينما ظل هو يلحُ عليها وعلى عدم نسيانها. المرض بدأ من هناك كما كان يكرر دائماً. كان على موعد مع عضو من أعضاء منظمة حقوق الإنسان الدولية. التاريخ كلّية وسيرورة، يجب أن لا نقطعه

بحسب شهوتنا. قالها لأخيه الذي كان بالبيت. جاء ليزوره بحثاً عن عمل، بعد أن طُرد من مؤسسة الأدوات الكهربائية التي حُلّت لتباع في اليوم الموالي لمجموعة من الخواص بالدينار الرمزي. وهو يخطو باتجاه الباب سمع نقراً لم يألفه من شخص آخر سوى من جاره. أرادت نواره صديقته أن تفتح، ثم أخوه، ولكنه طمأنهم بابتسامته المعهودة بعد أن تأكد من عوينة الباب.

ـ ما كايَنْ والو. جارنا السي مُحَنَد.

فتح الباب. فَدُفِعَ جاره وهو بقوة من طرف شخصين مسلحين كانا في الوراء. ثم التحق بهما بعد ثانية شخصان آخران. كتفوا نوّاره ثم أخاه. ثم هو ووضعوا في أفواههم كُتلاً مبلولة من القطن. ثم أخرج إثنان منهما سكينتين عسكريتين.

سأل أحدهما يوسف عن حجرة النوم وهو ينزع له كتلة القطن من فمه.

ـ وين بيت نومك؟

ـ على يمينك. عند المدخل.

انزلق إلى المكان المشار إليه بسرعة ثم عاد.

ـ ولكن هذه مكتبة.

ـ أنام دائماً بين الكتب. هناك فراش صغير يأويني، بينما أختي؟ نواره وأخي عبد القادر ينامان في هذه الحجرة. هما مجرّد ضيفين عندي لأيام العطلة هذه.

ـ واش يخدموا؟

ـ هو نجّار في قرية صغيرة بناحية وهران، وهي عَقُّونة. بكوشة ما تتكلمش، ومريضة في مُخها، جاءت عندي نشوف لها طبيب.

كان يعرف، تقول نوّاره، أنه مقتول حتى قبل أن يذبح، ولم يبق

أمامه إلّا محاولة إنقاذنا. فهمت من عينيه اللتين كانتا ترتعشان بدون أن تفقدا ألقهما وصفاءهما. لو عرفوا أن أخاه كان في الخدمة الوطنية قبل أن يلتحق بالشركة ويفصل، ولو عرفوا أنّي أدير جمعية *تنوير المرأة* وأني أعدّ صفحة أسبوعية في جريدة وطنية، لمزّقونا جميعا. يوسف مات قبل أن يموت. في الليلة الأخيرة التي قضيناها مع بعض، حدثته عن ضرورة التفكير في التسلح أو مغادرة البيت.

ضحك كعادته وقال.

ـ يا نوّاره! أنا لا أعرف حمل شيء آخر سوى القلم. كيف يمكنني أن أحمل مسدساً، وكيف يمكنني أن أبيت ليلة واحدة خارج هذه الفوضى من الكتب بعيداً عن لوحة فرانسيس دو غويا *المُعدَومون*؟ أنا هنا. وعندم يشاءون. يطَرْطَقوا اِصْباعْهم العَشرةْ.

كانوا كلهم شباباً سحبوه باتجاه المكتبة، تقول نوّاره. ترجيتهم بعيني. فهم أحدهم قصدي. كان أشقر، وجميلاً، وقوياً كالحائط. قال.

ـ تعرفين يا بنت الناس، أخوك ما نَعرفوشْ. ما نعرفش حتى واش يديرْ. أعرف بيته وملامحه وقيل أنه يرسم كثيراً، ويشتم المسلمين في كل المحافل الدولية. إسمه يوسف ولا يحمل سلاحاً. فقط. البقية معروفة. يجب إنهاؤه وإسكاته.

أُدْخِل أخوه إلى الحمام بعد أن شدّ وثاقه من جديد بإحكام، وأغلق عليه، وترك صاحبه عند الباب، بينما التفت هو نحوي من جديد، وكنت منهمكة في سماع الأسئلة التي كانت توجه ليوسف بالحجرة الجانبية، وسط الكتب. كانت تأتي مثل النصل الحادّ لتمزّق قلبي بدون أن أفهمها ولا أفهم مدلولها، سألني، بعد أن نزع القطن من فمي.

ـ هل أنت متزوجة.

كدت أقول له عفوياً لا. ولكني هززت رأسي على أساس أنّي لم أسمع جيداً. ثم صرخ وأخرج عينيه الحمراوين.

ـ راني نقول لربّك واش متزوجة وإلاّ لا.

هززت رأسي أن نعم.

ـ راح نشوف واش العقّونة تعرف تْنيكْ.

ثم بطحني أرضاً وفتح رجلي عن آخرهما. لم أقاوم. لم أشعر بشيء. كان لحمي ميّتاً، وبي رغبة عارمة للتقيؤ والموت. قلبي كان كله مع يوسف. رأيت وجهه الطفولي الصغير الذي شاخ قبل الأوان. ثم فجأة سمعت صرختين حادتين.

ـ أَ...ي...يمَّا قلبي.. أَ...ي... راسي. نوّاره.

ثم صَمتَ نهائياً وصمت الكلام معه. تحركت قليلاً، ولكن جثة الرجل كانت ثقيلة. كم تمنيت أن أملك سكينا أو مسدساً أو حَجَرةً صمّاء. حتى حقّي في الصراخ. يوسف كان يريدني أن أبقى حيّة لأشهد على هذه البربرية التي بدأت تؤسس تارخها الآن داخل هذا البيت الأعزل البسيط.

لست أدري هل ترجّاهم قبل أن يذبحوه، لكن عندما رأيته لأول مرّة قرأت توسلات غامضة في عمق عينيه الصافيتين. عندما خرجوا، لم أجد أي إمكانية للصراخ. ذهبت إلى المكتبة مباشرة. كانت لوحة غويا ممزقة عن آخرها وموضوعة على جسده. عندما رفعت اللوحة وجدت جسداً ممزقاً بدون قلب وبدون رأس. لست أدري كيف استطعت أن أظل واقفة على قدميّ. وجدت الرأس مرمياً تحت مكتبه. وضعته بين يدي وأرجعته إلى مكانه. كان راشقاً عينيه فيّ. خزرته لا أنساها أبداً ما دمتُ حيّة. تساءلت وأنا أفتح باب الحمام بعدما سمع أخو يوسف نحيبي وعرف أنّي وحيدة. لم انتبه لنفسي فقد كنت نصف عارية. قطعت الحبال التي كانت تربطه. وضع

عليّ إزاراً ثم دخل عند أخيه وغطّاه وهو يقسم بصمت على ركبتيه مثل البوذي.

عندما وصلت الشرطة، كان كل شيء قد انتهى.

منذ ذلك الزمن. أخو يوسف انتفى ولم يعد أحد يسمع به. بينما نوّاره كانت تفكّر جادة في الدخول إلى مستشفى المجانين الذي سُجن فيه يوسف مدة من الزمن لتسترجعه من جديد هناك.

كانت الوجوه في المقبرة، مثل قطع الحديد والنحاس.

ازدادت الأمطار قوة على غير عادتها في مثل هذا الفصل. كان القبر ينغلق وينفتح. يمتلئ ماءً، فيدخله طلبة وأصدقاء يوسف، يفرغونه ليمتلئ من جديد بالأتربة والوحل. نواره التي رفض الإمام دخولها إلى المقبرة. دفعته ودخلت.

- يرحم والديك خَلّونا على الأقل نودّع أمواتنا.

أسندتها على كتفي وأسندها أصدقاء آخرون. مدت لها أيماش ذراعيها، ثم سحبتها إلى صدرها بقوة. الله يرحمه كان يحب المطر. وها هو المطر يحمّمه مثل عروسة هندية أمام نهر الغانج. ثم نزلت إلى القبر وحاولت أن تنظف تربته، لكن أصدقاء آخرين سحبوها بعيداً عن المنظر ولفلفوها داخل معطف خشن. كانت الأحذية تبقبق مثل طيور الماء. ألوان العلم الوطني الموضوع على التابوت الخشبي، بدأت تختلط. بدأ اللون الأحمر يزحف نحو كل الألوان الأخرى، فيمسح البياض، ويغمّق الأخضر.

كل النّاس كانوا يتحدثون عن يوسف وعن شاعريته المرهفة وخصوصيته. صار الكل يعرف أن هناك فناناً اسمه يوسف قتل بشكل متوحش. في هذه البلاد الآمنة من عين كل حسود كما كان يقول الأجداد المندثرون، المثقف لا يحقّق وجوده الفعلي إلّا عندما يموت ويودّع محيطه. ولا يتذكر التلفزيون والإذاعة وجوده، إلّا

عندما ينسحب نهائياً من الظل ليصير رقماً في عداد الأرقام التي تتضخم يومياً.

ازداد نحيب وصراخ نواره عندما وضعناه داخل القبر. تسابق الأصدقاء كل واحد يضع حفنة تراب يبحث عنها من تحت الطين، ويرميها على التابوت الذي صار الآن في حفرة. أنا لا أحب الموت ولا الدفن ولا هذه النهايات المفجعة. نزعت وردة من قبر مفردٍ لفنان منسي ورميتها على قبره، علّني في الربيع القادم، إذا بقيت حيّاً أجدها قد أينعت وأورقت، أعرف من خلالها أن يوسف ما يزال حيّاً، وأن في هذه الوردة شيء من يوسف، هذا النبي المقتول، وأسترجع رشاقة ألوانه وأصابعه وهو يبحث عن أجمل لون يشكله ليرسم الأشعة والنوّر، وينهي مشروعه حول إنجاز تمثال معبر في كل مدينة عن امرأة، امرأة فقط تجسد وجدان المدينة بكاملها. فعل ذلك في عشرين مدينة ولكنه كان يائساً.

ـ تعرف ما الذي يخيفني، أن لا أجد الطاقة الكافية للمس كل المدن في الجزائر.

ـ وعلاش؟ ما زلت صغيراً وشاباً.

ـ واش من شباب؟ بدأنا نموت ونشيب في هذه البلاد في العشرين من العمر. فقد تجاوزنا عتبة الحياة، وكل ما نعيشه الآن هو فائض زمني. أتمنى أن ينسانا الله قليلاً، على الأقل لدرجة الوصول بالمشروع إلى سقفه النهائي.

ـ الحياة قاسية، ولكن أبوابها ليست موصدة.

ـ يا بورب.

ثم يضرب يداً على يد ويقبض على رأسه ويبدأ في الدوران في مكانه مثل الذي يبحث عن كلمة انزلقت فجأة بين تجاويف الذاكرة المرهقة.

ـ شيء ما فهمتوش! نملك كل شيء ومتخلفون حتى الصدر! وعلاش؟. يجب رفض هذا القدر الذي يريدوننا أن نبتلعه جرعة،

جرعة. هذه المدن العالية، الجميلة رُيّفتْ عن آخرها. فالبداوة المبكرة التي ليست لا مدينية ولا ريفية بحته، تأكل نفسها وكل من يخالف هواها.

ها هي ذي المدينة التي دافع عنها بضراوة، تتحول إلى أفعى وتسممّه ثم تأكله. أحد القتلة عندما أُلقي عليه القبض، سُئل عن عمله. قال: حَلواجياً، ثم خضّاراً متنقلاً. كان وجهه على الشاشة يابساً مثل حجرة القاع في الوديان. عيناه جامدتان، مثبتتان على فراغ وهو يحاول أن يتحاشى عيني الرجل الذي كان يستجوبه.

- طيب. لماذا قتلت رجلاً خيراً مثل يوسف؟

- قتلته. C'est normal. على خطر يستاهل. كان يشتم المسلمين على المنابر الدولية.

- هل تعرف أنه كان من المدافعين عن الإسلام الحضاري؟

- هذا لا أعرفه وليس من اختصاصي، لكنّي أعرف أنه كان تشكيلياً، وشاعراً، ونحاتاً وهو الذي كان يحضّر لمشروع الألف صَنم في المدن الوطنية. كان غاوياً.

كان غاوياً. الشيء الوحيد الذي لن يرفضه يوسف. تهمته الجميلة التي ظل طوال حياته يدافع عنها بكل جنون. الفن جوهره سحر، يعني غواية، وإلاّ ما هو السرّ في انقيادنا نحو الكلمات، والألوان والتشكيلات؟ الفن إذا خسر طاقته للغواية يصبح كتلة جامدة، وميّتة. *والشعراء، يتّبِعهم الغاوون. ألم تر أنّهم في كل وادٍ يهيمون وأنّهم يقولون ما لا يفعلون. يضحك يوسف عالياً وهو يحاول أن يسترجع الآية بكاملها:*

- الشعراء والغاوون شيء واحد. الهيام واللافعل، يعني الانسياب والتلاشي، شيء واحد، نحن أمام مواصفات كلها نتاج هذا السحر وهذه الغواية الاستثنائية. أليس هذا هو تعريف الشعرية بكل مواصفاتها النبيلة؟

ثم ينغمس في مجموعة من التأويلات لا تتوقف أبداً. من خلال لغة صوفية، تنفتح على سحر بعضها بعضاً، مفجرة كل الإنغلاقات والانسدادات في طريقها.

ـ تخريج جميل ولكنه لا يخرج عن الدين.

ـ أنت تعرفني جيداً. أنا لا أدافع عن الدين الطقوسي. لا أفهم فيه جيداً. أنا أدافع عن ركام حضاري مذهل واستثنائي في تاريخ البشرية. لا أدافع عن عقلانية ابن رشد، ولا ابن خلدون ولا غيرهما، أدافع عن حقّ ابن المقفّع في الصراخ، عن حقّ الحلاج في التلاشي داخل معبود لا يشارك فيه أحد. أدافع عن صوفية ابن عربي وعن غموضه وعن لغته التي هي لغة الغواية والحيرة.

عندما يبدأ حديثه، ينسى كل من يحيطون به. شخص واحد يسكته. حضور ريما. يقول دائماً: في عينيها خصوصية تبكمني ولهذا أجد نفسي منقاداً نحوها كطفل صغير، أريد الإستماع إليها أكثر من الحديث معها. فهي أكبر شأناً مني. لأنّي عندما كنت في سنها لم أكن قد رأيت آلة موسيقية أو قلماً رصاصياً وهي الآن في هذا العمر تتقن غوايات الكلمات واللون، وأكثر من هذا كله، عازفة.

ـ المفروض أن يكون أطفال، كل أطفال هذه البلاد مثل ريما. ولكن الله غالب. الذين سيروا هذه البلاد كانوا صغاراً. صغاراً على هذه الأحلام الطفولية. كانوا مهزومين ومعادين لثقافة لم يكونوا يملكونها. ملأوا أدمغتهم بطقوس الصلاة والحجّ، وكل أساليب النهب والسرقات. علّموا أطفالنا رؤية كل ما هو رمادي وقاتم ومنعوهم من التمتّع بالنور والفرح. عندما نزلوا من الجبل، نزلوا حالفين على الكنائس، والتماثيل، والحانات، والمسارح، والأوبرات، وكل ما يجعل من المدينة، مدينة. لقد خسرنا موعداً استثنائياً مع مدن كانت جاهزة، لكننا فعلنا كل شيء لتدميرها وترييفها بشكل أفقدها توازنها لتتحوّل في النهاية إلى وحش كان

ميلاده مُنتظراً. ها نحن ندفع ثمن جريمة كبيرة ارتكبها غيرنا وانسحب إلى الظل وتركنا وحيدين نواجه النار والنصل.

شعرت بالبرودة تصعد من حذائي الذي كان يبقبق لتستقر الرعشة في أعماق القلب، محدثة ألماً يشبه ضربة سكين على الظهر. خوف ما، كان يملأني. من أين يأتي كل هذا الفراغ المهول، وهذا الشعور القاسي بالوحدة والقصور؟ من هذا القبر الذي أغلق بالتراب ووردة، أم من عيني نواره الهاربتين، أم من هذه الوجوه التي كنت أعرف بعضها، ولكن أغلبها لم يكن يعرفني؟ تمنيت أن أجد أجوبة ممكنة على أسئلة مستحيلة، أن أحلم أنّي ملكت يوماً هذه الدنيا، لأفعل بها ما كان يفعله البحّارة القدامي. أنساها وأنسى ناسها، وطقوسها البالية، والخوف منها، وأصنع زورقاً ليوسف من قصب الوديان. أضع جسمه الصغير عليه، وأتركه يعبر كل القارات ويرى ما لم يَرَه في حياته. وعندما يتعب من رحلته، يترك نفسه ينساب نحو الأعماق ليرتاح قليلاً داخل الأعشاب البحرية وعذوبة الزرقة. لكن العالم الذي يكبّلني بدون ذاكرة. بدون أسئلة ولا أجوبة. هذه الرومانسية، مات زمنها. نحن نعيش عبثية، معناها ليس فقط غامضاً ولكنه مستحيل. خضّار وحلواجي، يقتل صوت المدينة، ويطفئ نورها؟ ماذا كان يعرف عن يوسف وهو يستّل قلبه وينزع رأسه، سوى النعوت الجاهزة؟ هل كان يعرف أن أشعاره أو لوحاته أو تماثيله، جابت العالم، مدافعة عن حقها الحضاري في الوجود؟ فقهاء الساعة لا يعرفون شيئا عن أجمل الكتابات عن المرأة والجنس، فِقْه الممارسات الاستمتاعية التي كتبها كبار المؤمنين والأخيار. ليحرقوا الآن ألف ليلة وليلة. وليخَرِجوا النفزاوي من قبره ويذبحوه أمام الملأ. وليأتوا بابن حزم الأندلسي وليشعلوا ناراً ضخمة، ويدخلوه فيها لتحرق ما تبقى من رفاته. لينزعوا ألسنة الجاحظ وابن عربي وابن الفارض، ويرموها للكلاب الضالة.

ـ نحتاج إلى زمن طويل لنعرف أن صورة الدنيا ليست هي

هذه. هذه دنيا مريضة. نبحث عن صورة أخرى لها، لا توفرها لنا الآن إلّا الكتابة. والنحت والرسم.

- هذه نتيجة الخلط بين الدين والدنيا. المصحف والشعر. بين الفقيه والمجنون.

- أنت تعرف جيداً قسوة هذا الموضوع. فقد لوثت الأيديولوجيات القاصرة والنفعية، والغيبية، كل شيء. مع أن النّاس يتحرّكون ويتصرفون بمنطق لائكي. في العمل وفي أغلب العلاقات العامة. وعندما تحدثهم عن اللائكية يقفون في الحلق كالسكّين الحادة. هكذا حفّظوهم، وهكذا يردّدون كالطبول الخاوية. نحن، البلاد الوحيدة في الدنيا التي حوّلت غناها الفكري والحضاري واللغوي إلى عقدة خلاف وشقاق وأحقاد.

كان المطر يحفر التربة، قبل أن يتوقف شيئاً فشيئاً محدثاً أودية صغيرة وحفراً، امتلأت ماء. وكانت الأسئلة تحفرني مثل سكين في جرح عميق. لم أكن قادراً على التصديق أنّي لن أرى يوسف أبداً. كأني أستفيق من كابوس، مجروحاً في أعمق الأعماق. في أبعد نقطة فيّ. في لحظة سمعت صوتاً يشبه صوت السائق. ثم رأيته وراء شباك المقبرة. يكشّر بأسنان صفراء مقيّحة، يضرب يده اليمنى على كفه اليسرى. كدت أصرخ لولا اليد الناعمة التي ربتت على كتفي. التفتُّ. كان وجهها مندّى مثل زهرة رغم حالة الحزن.

- هوّن على روحك. مات رجل وما ماتتشِ شماته.

- لكن يا إيماش الموت قاسي وابن كلب، لا يأخذ إلّا الطيبين.

- الخسارة كبيرة. لقد صار الموت أعمى وأخاف أن يُبتذل، لدرجة يصبح فيها ذهابنا إلى جنازة عملاً مرهقاً ومكروراً، نتفاداه مع الزمن.

لم أسألها كيف عرفتني، الظاهر أنها تأكدت جيداً أنّي كنت أنا،

قبل أن تضع يدها اليمنى على كتفي. لم نبق إلّا نحن. لقد ذهب الجميع.

ـ وين راحت نواره؟

ـ أخذها أهلها. مسكينة. لقد رأت المشهد وهي الآن تعيش بتوقيت يوسف. ولا تتوقف عن تصميمها على الذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية الذي حُجز فيه يوسف مدة من الزمن. عاشت وتعيش يوسف حتى صارت هو. من الأفضل أن يتركوها تفعل ذلك، وأن توضع تحت رعاية طبية خاصة وغير مباشرة.

ـ نواره.. ما أثقل الحمل. أيّ صبر؟

ـ نروح. سيارتي عند المدخل.

مسحت المياه الباردة التي كانت ما تزال تتدفق على وجهي، رغم توقف الأمطار، ثم سرنا نحو مدخل المقبرة، الذي كان الحارس قد بدأ يغلق جانباً من جوانبه، استعداداً للعودة إلى بيته. فالشمس انكسرت هذا اليوم مبكراً نحو المغيب، داخل غيوم كثيفة وبدا كأن ظلاماً سيلف المدينة عما قريب.

8

16H - 12MN

المساء بدأ يزحف مبكراً والشمس انسحبت تحت كثافة الغيوم الثقيلة. كل شيء بدا صامتاً وهادئاً على غير عادته في مثل هذه الساعة التي يبدأ فيها اليوم بشكل صحيح عندما كانت المدينة مدينة، والحياة حياة، والدنيا دنيا.

ونحن نعبر طريق البحر السريع بسيارتها، مسحت إيماش على وجهها بحزن وهي تحاول أن تفتح بصعوبة كبيرة عينيها.

ـ شفت! كم هي جميلة هذه البلاد. يكفي أن نأتيها من حيث ترغب وتشتهي.

ثم تركت يدها اليمنى تتزحلق على يدي وتبحث أصابعها عن أصابعي لتشابكها في نعومة.

ـ إنهم يبيعون كل شيء. حتى الحق الأدنى للتنفّس.

ـ هكذا القتلة دائماً. فهل يُعقل أن يفسد البحر والسماء هكذا دفعة واحدة. وهل نحن أغبياء لهذه الدرجة لنترك كل شيء يمرّ أمام أعيننا بدون أن نجد وسيلة صغيرة لحمايته؟

ـ واش راح ندِيرو. فقد شوهوا البلاد في العمق لدرجة صارت تزحف نحو الموت بشهية كبيرة.

- مهما يكن، علينا أن نفتح هذه الظلمة، حتى عندما تنغلق على ذاتها. خياراتنا قليلة ومحدودة يا إيماش. ميّتون، على الأقل نحاول أن نعطي لهذا الموت بعض معنى.

كان البحر يسحبني باتجاهه. الموجات تتوالى في حركة رتيبة. لقد نفرتنا البلاد يا إيماش حتى صرنا نموت وكأنه كان يجب أن نموت. نُسينا بالصدفة وها هم يتذكرون أنه كان يجب محونا. صرنا أقلّية كما كنّا ولكن هذه المرة في عزلة مطلقة. أقلية متهمة بعدم فهمها لبلادها، لأنها خطت خطوات بعيدة في تحديث نفسها، وكان عليها أن تسير خطوة خطوة قبل أن تسقط من علوٍّ شاهق وتُكْسَر رقبتها. كان يوسف في لحظات صفائه يقول. أعرف جيداً أن اليد التي تقتلني لن تكون إلّا يد واحد من هؤلاء المنسيين الذين أدافع عنهم، بينما يتلذذ القاتل الحقيقي بالمشهد من وراء زجاج مسبحه الخاص. كل هذا أعرفه ولكنّي لا أملك شيئاً آخر سوى المشي باتجاه هذه التراجيديا. الله غالب. في المدرسة، في البيت، في العمل، علّموهم أن كل من يفكر بحرية خطر على البلاد. صارت البلاد والسلطة شيئاً واحداً. عندما تتخذ موقفاً صارماً من النظام، تصبح بالضرورة معادياً للشعب وللبلد. لا! يصرخ يوسف. لست معادياً لوطني، ولكن للذين حوّلوا المشافي إلى محتشدات، والقتل صناعة. والموت مسألة ثانوية جدّاً. ضدّ الذين ورثوا البلاد وكأنها ملكية خاصة واشتروها بالدينار الرمزي، وعندما رفض الناس، جلسوا في الظلمة وتحوّلوا إلى مافيا. حصروا قوائم كل الذين *يَخْلَون فمهم* وسلموها لقتلة لم يكونوا ينتظرون إلّا هذه الفرصة.

انحرفت إيماش بسيارتها باتجاه طريق الشطّ، فصارت محاذية للبحر تماماً. غيّرت حديثها نهائياً. شعرتُ بها ترغب في الخروج بسرعة من دائرة الخوف والظلمة.

- هاه آسِيدي. واش راها العزبَةْ ديالْنا. ربما. كيف صدرها. وَلاّتْ امرأة!

عرفت قصدها ومع ذلك انتزعتْ منّي ابتسامة ثم قهقهتْ.

ـ جاهل في مثل هذه الأمور. عندما رأيت نهديها الصغيرين قد انتفخا، خفت أن تكون مريضة.

ـ لو كان جيتْ امرأة تعرف من نفسك. أباؤنا لم يعلمونا ولكننا تعلّمنا من الطرقات والحومات.

ـ واش تحبّي. هذاك زمن، وهذا زمن آخر.

بالقرب من الصخرة العالية، أوقفت سيارتها. نزلنا. شعرتْ بترددي، ولكنها كانت تعرف أنّي مجنون بالبحر.

ـ هنا المكان جيد ومحروس. المقهى يعجّ برجال الأمن. فالمكان استراتيجي وقريب من المرفأ.

كانت الأمطار قد توقفت نهائياً، وبدأ بعض النور يتسرّب من بين كُتل الغيوم. لكن الهواء المتسرب من وراء صخور البحر، ظل بارداً وثقيلاً. كل هذا لم يمنع النوارس من ملء المكان والوقوقة بأعلى أصواتها.

وضعت إيماش يدها في عمق يدي وأشبكت أصابعها من جديد بأصابعي. نظرت إليّ. العين في العين، بعمق كبير. كانت تبحث عن شيء ضائع، ولكنني شعرت بخوف ما يتسرّب من خزرتها.

ـ تعرف أنّي أخاف عليك كثيراً.

لم أجد كلمة أخرى سوى الشكر، وبعدها صمتُّ.

نزعتْ حذاءها.

نزعتُ حذائي.

كانت ملوحة المياه تدغدغ أقدامنا. نشعر بالرمال وهي تتسرب من تحتها، كلّما تكسرت الموجات الآتية من بعيد عند حافة أجسادنا.

عرفته من صوته، إذ يدخل القلب كالإبرة الحادّة.

إذا نبكي من الهجران

إذا بكى العاشق يرتاح.

الشيخ العفريت، كان يأتي من البار المواجه للبحر.

أغمضت إيماش عينيها، أغمضت عينيّ. وبدأنا نمشي. دليلنا الموج، ورائحة الملوحة والرمال التي كانت تتكسّر تحت أقدامنا، وصوت الشيخ العفريت الذي كان يحمل شباكه على ظهره، ويقف عند مداخل البيوت. تطلّ النساء من فوق. يصدح بصوته وحنينه. يميّل شاشاته نحو اليمين ثمّ نحو اليسار. يشكرهن، ثم يمضي بحثاً عن امرأته داخل مدينة اختلطت مع البحر وسفن الصيد وصدى الموج.

مجرّد محاولة لنسيان الموت والخوف.

ـ أعرفك مجنون البحر، قلت على الأقل تتنفس هواء آخر، غير البارود والموت أو منفى المقبرة التي تسكنها. يا خِي قلتُ لك أرواح عندي. بيتي واسع لا أستطيع ملأه أنا وابنتي.

ـ فاطمة طيبة. لو خرجتُ الآن ستنزعج. حتى هي أصبحت في حاجة ماسة إلينا.

ـ أنت هناك بعيد عن المدينة.

ـ واش تحبّي نديرْ.

ـ ماشي، على الأقل أنت في مأمن.

كان الساحل مقفراً، إلاّ من صوت تكسر الموج وخطواتنا وأصداء الشيخ العفريت الذي كان مأخوذاً بشباكه وباتساع البحر وعيون النساء الجميلات اللواتي ينظرن إليه من وراء النوافذ العالية النصف مغلقة.

التفتّ باتجاه المدينة التي كانت تنحدر نحو الجبل سيلاً من البنايات التي تتسابق نحو حتفها جماعات، جماعات. بدت لي بعيدة،

بعيدة جدّاً. هل هي مدينة؟ حين لا تملك لا الحق ولا القدرة للدفاع عن نفسها من القتلة الذين ينتظرون الفرص المناسبة للإجهاز عليها. كل المدن التي استشهدت على عتبات البحر، دافعت حتى الموت قبل أن تستسلم بيأس ورجولة للنهايات التراجيدية الحتمية. أشعر أحياناً أن هذه المدينة متواطئة ضدّنا مع القتلة وتساهم كل مساء في التخطيط خلسة للجريمة. مدينة، لا نصير في عينيها كباراً إلّا عندما نغادرها نهائياً. فيتصبح لنا كل الحقوق التي لم نحصل عليها ونحن أحياء. لها تاريخها في النسيان السريع. فقد عشقت الإصبان. ونامت في حجر القراصنة قروناً متتالية وولدت معهم ثم تركت باياتها وداياتها لتلبس لباساً عسكرياً ثم مدنياً، ثم عسكرياً.

ثم عسكرياً.

ثم.... عسكرياً. ثم تصلبت على ذاتها كالصخرة وانغلقت على أسرارها المشبوهه.

شعرت بحرارة يد إيماش، وبأناملها تعود لها الحياة.

ـ تعرف، كلما تضايقت، تذكرتك، وجئت إلى هذا البحر، على الأقل أشمّ هواء آخر. غير الذي أتنفسه يومياً في المعابر، والأدراج والأزقة والشوارع.

ـ أوف. عندما يكون القلب منكسراً، لا نرى إلّا السواد.

ثم دخلت في حزنها الاعتيادي، الذي صار جزءاً منها. تحدثت عن زواجها الفاشل من رجل تقول أنها أعطته كل شيء ولم يعطها إلّا الكآبة وليست مستعدة للمواصلة.

ـ تعبتُ يا خويَا. بزّاف عليّ. الجامعة. البيت. البنت. وزدْ على ذلك الشتائم وأحياناً الضرب. في هذه البلاد المرأة، تظل امرأة ولو تطلع للسماء، وما دامت وضعية الدين ما تزال غامضة. صار الآن، ما دام هو الرجل، يقسم براس يَمّاه أنه سيخرجنا من البيت الذي نسكنه لأنه ملكه، بل باعه ونحن فيه. نتوهم أننا في هذه البلاد

بزواجنا، نخرج من دائرة الانغلاق والوحدة، ولكن مع الزمن نكتشف أننا ضحايا قدر صُنع لنا ولا يدَ لنا فيه. لا نحن قادرين على الاستسلام له ولا هذا القدر قادر على تفهمنا. المرأة في البلاد هكذا. كل العمق الذي تملكه والجمال الذي يختبئ فيها، بمجرد زواجها تُدفع إلى نسيانه والاستسلام لسلفية ميتة متأصلة في الرجل، إلّا من رَحِم ربك.

ـ لكن وضعك الآن تحسن بعد حَلّ مشكلة السكن نهائياً.

ـ ما يزال الوضع معقداً، ولكنّي استوليت على البيت. الله يخلف على الأستاذ الشرقي الذي أخبرني بانتهاء عقده وأراني بيته. وأعطاني نسخة من مفاتيحه. يوم خرج كنت هناك أنا وابنتي وأنتم جميعا. تعرف السكرتير العام للجامعة ماذا قال لي؟

ـ كالعادة، سنرفع بك قضية بتهمة الإستيلاء على أملاك الدّولة بطريقة غير شرعية. قلت له: وما هي الطريقة الشرعية في دغل كهذا؟ تعرف ماذا قال؟ أخرجي يا مدام وسنتكلّف نحن بتحضير عقد السكن ونسلّمه لك قانونياً. أقسم براس يمّا العزيزة أن السكن كان مبيوعاً وأنا أفسدت لهم الصفقة.

ـ خبثهم لا يتغيَّر.

ـ هو يبيع سكنات الجامعة. وحقّ ربّي مافيوزي. قلت له روح يا ولد الناس. هنا يموت قاسي. ملفاتي عندكم. وزرتك أكثر من عشرين مرّة في مكتبك، لم أتلقَ منك إلّا المواعيد خارج الجامعة، وأنا أتغاشم وأتهرب. أنا هنا، واللي في يديك دِيرو.

ـ طبعاً، هددك.

ـ هدد وأندب حتى عْيَى. هؤلاء النّاس عندما تسبقهم وتصبح في موقف قوة ينتهون مع الزمن إلى الإستسلام. هو الآن يحاول أن يربح على الأقل موعداً معيناً معي، ويعرف جيداً أنّي خرجت متعبة من تجربة زواج فاشلة.

ـ تربوا في نفس المدرسة.

- وصلت به الوقاحة إلى التواطؤ مع زوجي ضدّي. وجد فيه كل عقده وحالات إخفاقاته. قال لي: زوجك قال لي أنه ترك لك بيتاً. صرخت في وجهه. روحْ خذه. أبصم لك بالعشرة. فقد باعه على رأسي. وأعطيته نسخاً من كل الوثائق التي تحصلت عليها من المشتري. جربت كثيراً مع المحامي، لكنّه كان جشعاً، لم يأكل إلّا دراهمي. كان مثل البالوعة. ثم فكرت منطقياً في ظروف مثل هذه هل يمكنني أن أربح بيتاً بِيعَ وأنا ما زلت مقيمة فيه؟ لا! ثم جاءت فرصة الأستاذ الشرقي فقبضت عليها بأظافري وأسناني. خصوصاً وأنه لدي ملفّات عديدة بالمعهد والجامعة. والسكرتير العام كل مرّة يقول لي، ويقسم برأس أمه: والله يا مادامْ، غِ يَفْرَغْ بيتْ. أنت تاخذيهْ. كل الإدارة متفقة معي. ويوم أصبحت الفرصة حقيقية صار مثل المجنون وأقسم أن يحاكم الأستاذ الشرقي، لكن الأستاذ الشرقي كان في بلاده. وحياتك أيقظوا فيّ كل طاقات القتل والجريمة. حلفْتُ أن لا أخرج أنا وابنتي إلّا جثة هامدة من هذا المكان. لأن ترك الفرصة كان يعني ببساطة انتظار زمن آخر ربك وحده يعلم طوله.

هبّت نسمة خفيفة، باردة، ناجمة عن موجة تكسرت على الصخرة التي كنا نمرّ بالقرب منها، غيرت مسار الحديث والسواد. صرخت أيماش مثل الطفلة.

- واش قلت لك. البحر مجنون. عندما يعشق ينسى كل شيء.

شعرت بتصلب الرمال تحت قدمي العاريتين. كنا نمشي في منطقة، المؤكد أنها بركانية. كانت سوداء وقاسية في بعض أماكنها. ذكرتني بساحل جينوفا الإيطالي. كنت يومها بعيداً، في ندوة حول الكتابة والمنفى. فجأة نزل عليّ شوق غريب لمدينتي التي كنت أحملها، ولا أرى في شوارع جينوفا إلّا هذه المدينة بمقاهيها وباراتها ومسارحها، وأحياناً حتى ناسها. كنت أراها لا كما هي، ولكن كما كنت أشتهيها.

نزلت إلى ساحل جينوفا لألمس الموجات القادمة من بعيد،

بعدما يئست من صعود البحر إلى غرفتي. كان مهجوراً عن آخره، لا شيء فيه إلّا السفن القديمة، بعضها مهجور، والبعض الآخر حُوّل إلى مقاهٍ وبارات عائمة. ها هنا كان أجدادي، يشربون قهوة الفجر، يصلّون صلاتهم، ثم يشقون الموجات بحثاً عن رزقهم وتجارتهم. كُتُبٌ كثيرة تحدثت عن هذا الساحل الذي كان مغلقاً وصامتاً. من لا يعرف مرافئ جنوا التي سحبت نحوها كل غواة البحر؟

من الصعب تحمّل قساوة الغربة عندما تجد نفسك في مواجهة بحر يذكرك بكل التفاصيل الصغيرة: اللون. الحجارات الصغيرة. المحارات التي لا تُظهر إلّا ظهورها من داخل الرمال المحروقة. والقواقع التي ضيعت مع الزمن بياضاتها. وجوه النّاس الأليفة. مرفع الجدّة الأخضر الذي يتشبث بحائط قديم مثل الحشرة الكبيرة، والمرقط بالنجوم التي كانت الجدّة تلحُّ على أن تكون من زجاج المرايا. كانت تضع فيه ذهبها القليل وفضتها وخلاخيلها وكؤوس الحياتي كما كانت تسميها. كان إرثها الوحيد والثمين من زوجها الذي أكله البحر. من الصعب تحمّل قساوة الغياب البارد. عندما تفتح عينيك أمام هذا البحر المهجور وتجد نفسك عارياً مثل ميّت.

في لحظة من اللحظات تمنيت أن أغمض عينيّ أكثر وأن أندفن في صدر إيماش وأنسى نفسي قليلاً وأهرب من هذه الحالة نهائياً وأدخل في غمرة نشوة مجنونة حتى النهاية وأن أتلاشى بين موجتين عاشقتين أو داخل غيمة هاربة، لكن موت يوسف كان في كل مرّة يُرجعني إلى الأرض ويقتل هذه الرومانسية الزائدة.

لكن البحر يظل هو البحر. سيد الأخيار الكبار. يتحمل كل هذه الكآبات التي تأتيه من كل الأحداب والأصواب، ومن كل الأزمنة وتعرض أمامه شقاوتها. من العالم إلى السِكيّر، ينكفِئُون عند رجليه بحثاً عن نسمة تخرج من قلبه بسخاء. هنا يتراشق العشاق بالكلمات الممحونة. وهنا عندما تنغلق المدينة على ذويها، يأتي السكارى، يشربون قنّيناتهم ثم يقلبونها على فمها في تقليد دائم لشكر البحر

على تحمل كل حماقاتهم. لا يشربون إلا على الزرقة والنغمة والموجة.

لست أدري ما الذي فكرني بريما، ولكنّي فجأة وجدت نفسي آخذ يد إيماش من جديد. كانت ساخنة. التفتَتْ إلي. عيناها كانتا مبللتين ببعض رذاذ البحر وأشياء أخرى. الزمن كان يزحف بسرعة. من خزرتي عرفتُ كل شيء. نظرتُ إلى ساعتها.

عدنا على طريقنا باتجاه سيارتها.

ـ نروحو! ريما تنتظرك. سأزوركم غداً. أنت في البيت؟

ـ وين نروح داخل هذه الكارثة. أنا هناك داخل المربع الذي تركتني فيه في المرة الماضية.

ـ سأتفق مع فاطمة وريما وأختطفك غداً.

ـ ليكن.

9

17H - 02 MN

كان الشارع الخلفي مقفراً. الشيء الوحيد المطمئن فيه هو الإنارة المبكرة، في هذا اليوم المثقل بالهواء والرطوبة، الذي لا فصل له. لم تكن بالمكان إلّا سيارتي، صغيرة ومعزولة كجندي مهزوم، وبعض القطط الضالّة التي كانت تتقاتل بالقرب من الزبالة، وسيارات سوق الفلّاح الضخمة وكأن عمّال السوق يهيئونها للحرق خصوصاً بعد حملة حرق المؤسسات والحضائر والمدارس.

إيماش ظلت صامتة طوال عودتنا من البحر. لم تقل إلّا جملة واحدة ثم سكتت.

ـ ما نَمشيش حَتى تْقَلَّعْ. نستناك على الأقل. أربع عيون خير من زوج.

لم أردّ. كنت منكسراً داخل عيني ريما التي تركتها مريضة وداخل هموم يوسف وإيماش التي تحاول أن تنسى همّاً صار فيها.

أقلعت سيارتي. أخرجت ذراعي وأشّرت لها أن كل شيء على ما يرام. وأنا أنحدر باتجاه الشارع الرئيسي ديدوش مراد، رأيتها في الرّيتْروفيزور ورائي. وعندما اطمأنتْ عليّ أعطتْ إشارة ضوئية ثم انكسرت على اليمين باتجاه بيتها، ليبتلعها نهائياً زقاق صغير

تعبره أحياناً لتغيير مساراتها التقليدية، بينما انطلقتُ أنا بسرعة مجنونة داخل خوف الموت والمفاجآت.

أنا أصرّ دائماً على العودة على الطريق السريع حتى لو كلّفني ذلك كيلومترات إضافية. المكان الوحيد الذي يورثني الاطمئنان. فأنا أستطيع مراقبة هذا الاتساع من خلال الريتروفيزور، فهذه المرآة الصغيرة هي جزء لا ينفصل عن حياتي اليومية فأنا دائماً أفكر فيه قبل حتى التفكير في المحرّك والعجلات.

بعض الحذر لا يؤذي أحداً.

هكذا كان يقول يوسف دائماً. فقد رَكّبتُ ذهنياً كل سيناريوهات الاغتيال وكيفية تفاديها، حتى ولو اضطرني الأمر إلى الرجوع بشكل عكسي عبر الطريق الممنوع، خصوصاً في مثل هذا الوقت حيث تكون الحركة محدودة جدّاً.

لا أدري كم كانت سرعتي ولكنّي عندما وصلت الى وزارة التربية القديمة، تحت الجسر الذي ينعطف نحو القبّة، شعرت بوزن السيارة قد بدأ يخف ورعشات المقود تزداد أكثر فأكثر. فكرت في النزول، خفت أن تكون العجلة معطوبة لكنّي سرعان ما ألغيت الفكرة من ذهني وواصلت.

ثمّ ماذا، لو يحصل عطب الآن وسط هذا القفر؟ لا شيء سوى الموت المؤكّد.

استقامت السيارة من جديد وعادت إلى توازنها الطبيعي بعدما اضطررت إلى إنقاص السرعة. وعندما نزلت من الجسر ودخلت نهائياً في الطريق السريع، بدأ شعوري بالخوف يتسرّب بهدوء. كنت كلما تجاوزت سيارة وسط هذا الفراغ كلما تمنيت بروز أخرى تعطيني بعض الأمان، عندما أراها من بعيد، أزيد في سرعتي للاقتراب منها قليلاً ثم أتجاوزها. صحيح أنّي اليوم تأخرت قليلاً على غير عادتي، لكن الأمر ليس قاسياً إلى هذه الدرجة. ربما وفاطمة تعرفان أن برنامجي مكثّف وعلي أن أنفذه كاملاً لتفادي النزول مرّة أخرى. على كل الساعة لم تتجاوز الخامسة إلّا بقليل.

كانت مزبلة وادي السمّار قد بدأت تعلن عن وجودها بروائحها الكريهة وحرائقها اليومية ورماد أدخنتها الذي يكاد يغلّف المطار بكامله وطريقه السريع بسحابة داكنة. وَخذْ النَّهار تَضْرَى كارثة جويّة. حدثني صديق طيار، يسكن بنفس الحيّ الذي كنت أقيم فيه قبل خروجي، أنه كلما شرع في مناورات النزول على هذا المطار، كلما شعر بمغص قاسٍ في قلبه، فالأدخنة أحياناً تزحف نحو مدرجات المطار وتجعل الرؤية البصرية أمراً في غاية الصعوبة، والدولة لم تتخذ أي إجراء كعادتها حتى تحدث الكارثة، فتشكّل لجنة، وهذه الأخيرة تفتح تحقيقاً لا يؤدي في نهاية المطاف إلّا لمزيد من الفراغ، ومع الأيام تأتي قضية أخرى، تُنسي الأولى. وهكذا.

هذه الروائح الكريهة لن تنسيني تساؤلاتي. من كان يقول أننا نصل إلى درجة يصير فيها أكثر من ثلاثين مليون جزائري حالات باتولوجية مستعصية؟ سجناء بين موت هينّ أو موت قاسٍ. في أي شيء يمكن أن يفكر فيه الإنسان وهو يعبر فراغات الموت المتداخلة؟ في نفسه التي ترى الموت في كل شيء، في القهوة الصباحية، في السيارة، في الجسر، في المطار، في الطريق، في الإشارات الضوئية، في عيون الناس؟ أم في الآخرين الذين ما يكاد المرء يبتلع بصعوبة افتقاد أحدهم حتى يلحق آخر بالأول وهكذا؟ أم في الاثنين معاً؟ أم في نفسه وفي الآخرين الذين نعيش باستمرار على توقيتهم، لأننا قد نصير في لحظة من اللحظات من هؤلاء الآخرين الذين ينطفئون واحداً واحداً؟ في الحقيقة أنا لست مع نفسي إلّا في لحظة الموت، بعدها أجدني في وضع تثبيت! Le plus grave c'est ça! vivre dans une fixation qui nous bloque.. أبحث بخوف عن اللحظات الأخيرة للذين قُتلوا وهم يبحثون عن سُبلهم اليائسة للدفاع. قلم... فرشاة أسنان... مقبض مكنسة... آنية رخامية... حبل... كتاب... ثم يزفرون بيأس بعدما يتضاءل الخوف حين يصير هو نفسه موتاً: آه يا ربّي وغلاشْ خدعتني، لو كان

عندي مخْشوشَة وإلاّ فَرْدِي أو حتى فَرْدِيهْ. ولكن الزفرة تصطدم بالحائط البارد وبوجوه القتلة وعيونهم التي تتبع كل الحركات الأخيرة للضحية. يرى سكاكينهم الحربية تلمع في أكفّهم. يعوي مثل الذئب المجروح يطلب رصاصة الرحمة. تلمع في عيونهم علامات الانتصار. يرحم والديكمْ ما تذّبْحونيش قُدّامْ لَوْلادْ. وهل يرحمه القتلة الذين تلمع عيونهم فجأة تحت كثافة رغبة القتل والخوف. ها!! ها!! ها!! سنقطّعك، وننزع عيونك وقلبك أمام الجميع قبل أن نذبحك. لدينا كل الوقت الكافي للتسلّي بجسدك. أيّة بربرية؟ أشعر برغبة قصوى للقيء. أداريها شيئاً فشيئاً بعد أن أفتح زجاج السيارة متحمّلاً على مضض روائح وادي السمّار الكريهة وحرائقه. لقد تربّت لدي حاسة الدفاع الذاتي. كلما قُتل صديق، كلما تعلمت وسيلة أخرى للدفاع عن النفس. لا أملك شيئاً سوى هذه القنبلة المسيلة للدموع التي تشبه القلم، ومحارق الطفولة صغيرة، ووجّاطَة تحدث صوتاً مزعجاً أتحسسها كلما شعرت بخطر ما يملأني وبعض الحيل التي لا أعلم إذا ما كانت ستفيدني يوم أحتاج لها. معرفتي بهذه الأمور تكاد تكون مضحكة. عندما اشتريت القنبلة المسيلة للدموع أوّل مرّة من أحد أسواق باريس، اشتريتها لمريم حتى تستطيع الدفاع عن نفسها من السراقين وها هي ذي الدنيا تتغير وتنقلب فجأة رأساً على عقب بشكل عنيف وتصبح حياتي كلها معلقة على قدرتي وحيلتي في استعمال هذه القنبلة.

كانت السيارة تنزلق عبر الطريق السريع مثل الريح. لا أسمع إلّا تمزقات الهواء أو اصطدام الحشرات الكثيرة التي تلتصق بالزجاج الأمامي للسيارة. من حين لآخر أنظر في الريتروفيزور الداخلي والخارجي. أضبّطه من جديد. لا شيء يثير الانتباه على الإطلاق حتى الآن. من حين لآخر تتعقبني سيارة. أحتاط، ولكنها سرعان ما تمرّ مثل البرق من أمامي. لست أدري من كان خائفاً من الآخر، أنا أم سائقها، أم كلانا؟ إنها ساعة الخوف. مع ذلك يظل هذا الطريق هو المكان الأكثر اطمئناناً بالنسبة لي. هامشي للمناورة واسع.

وعلى الرغم من الشكوك، أشعر بلذة كبيرة وأنا أسوق فيه، وأسترجع كل الوجوه الضائعة التي سرقت في لحظة غفوتها، أو الطفولات المدفونة التي تقفز فجأة كلما أظلمت الدنيا في عينيّ.

ألتفت على يساري، أرى المطار القديم الذي هجره ناسه الذين كانوا يسافرون بالآلاف يومياً. ثم المطار الجديد بمدرجاته الكثيرة، وببرجي المراقبة العاليين، وكتله الأسمنتية المتصاعدة من كل الجهات. تسبقني ابتسامة تكسر حالة شرودي. مسكين هذا المطار! ربّما سيستعمله أولاد أولادنا في المستقبل البعيد. لا يمكن تفسير ذلك إلّا بالعجز، وحق ربّي Il n'y a pas autre chose. C'est l'incapacité. تأتيني كلمات مريم وهي تصرّ وتحتَجّ كلما مررنا علىالمطار، أو طريق ميترو الجزائر العاصمة.

ـ هل يُعقَلْ! أكلوا ميزانية الميترو وحوّلوا المشروع إلى نفقين صغيرين لا معنى لهما داخل المدينة. أيُّ مشكل حَلَّهُ نَفَقُ البريد المركزي، أو نَفَقُ عبّان رمضان؟ أنا قلت لك: Ce sont des incapables لا أكثر ولا أقل. Il n'y a pas d'autres qualificatif.

– Malheureusement oui. Rien n'a changé.

مريم لم تكن مخطئة. في السبعينات، على كل حماقاتها، كانت الجزائر تحتفل في كل مرّة بتدشين الإنجازات الضخمة. وكان الرئيس أو الوزير لا يتنقل إلى ولاية أخرى إلّا إذا كان الإنجاز وطنياً كبيراً، أمّا إذا كان صغيراً، فالوالي يتكفّل بذلك. الآن كل شيء تغير. كل يوم يفتتح التلفزيون الوطني نشراته المسائية بتدشين مسؤول كبير لمدرسة، أو ثانوية أو مصنع صغير، أو سوق فلاّح، أو بتدشين الوزير لموزع كهربائي في قرية، أو بئر ماء لتجمع سكني في الجنوب، أو لِوَعْدةٍ جهوية أو مركز ثقافي في المدينة. الدنيا تغيرت كثيراً وتعقدت، وعندما نريد أن نفهمها في أغلب الأوقات نشرع في تسطيحها.

بدأ المطار ينسحب شيئاً فشيئاً، قبل أن يغيب في الريتروفيزور برجاه العاليان وتواجهني فجأة مزبلة وادي السمّار بكل ضخامتها

التي تزداد كل يوم بعض الشيء، وتتسع لتشمل مناطق أخرى كانت تبدو بعيدة. مِبوَلَةُ المدينة مِخْرَأتها بكاملها تتجمع هنا. تستقبل يومياً 4000 طن من الفضلات ويصل ارتفاعها إلى قرابة العشرة أمتار من الزبالة الوطنية، في بعض الأماكن. كيف يأكل هؤلاء البشر ويشربون ويتناكحون داخل هذا القفر المدقع وينتشرون في هذا الخلاء كالدود؟ الولاّة الذين تعاقبوا على المدينة أعطوا وعودا كثيرة للتخلّص من المفرغة، ولكنّهم من كثرة مرورهم عليها بسبب كثرة سفراتهم، تآلفوا معها وتعوّدوا على روائحها الكريهة التي صارت جزءاً من متخيّلهم.

- عالم المسؤول في بلادنا لا يتجاوز عتبة بيته.

لقد صارت مثل الحيّة الزاحفة نحو الطريق السريع لابتلاعه. بدأت تصطفّ على الجنبات ككتائب عسكرية مرصوصة بشكل دائم. إذا بقي الوضع على هذه الحال ستبتلع المزبلة ضاحية وادي السمّار بكاملها. فقد علت عليها وغطّتها نهائيا كأنها مدينة أخرى بعلوّها ومنحدراتها وتشعّباتها وأدخنتها التي تخرج من عمقها وكأنها تخرج من مصنع. الكثير من الناس يقضون أيامهم فيها. هي وسيلة عيشهم الأولى. ينكشونها بفؤوسهم ومذاريهم بحثاً عن كلّ ما يرونه صالحا وعندما يتعبون، يظلّلون تحت امتداداتها، يتقاسمون خبزا يابساً ثمّ يعاودون بحثهم. البعض منهم، من كثرة جريه، ترك حياته وهو يقطع الطريق السريع. يلتصق لحمهم بالعجلات كالقطط الضّالّة. بعضهم الآخر تخصّص في تجميع الخبز اليابس. يبيعه لصُنّاع الكاران تيتا التي يتلذّذ الفقراء بأكلها أيّام الشتاء الباردة. عندما يُسأل بائع الكاران عن مصدر الخبز، يجيب بدون تردّد:

- من مصنع وادي السمّار. المكان الوحيد الذي يحترم الشروط الصحّية بصرامة. البقية لا أثق فيهم. تهمّني صحّة المواطن قبل الربح.

عمّال المزبلة يشتكون كثيراً من نقص العتاد وتخلّفه.

فالعاصمة التي تضع كل زبالتها في هذا المكان تحتاج إلى إمكانيات أكبر من هذه التي تملكها بلدية وادي السمار التي تشتكي من الروائح والأدخنة والكتل الفاسدة التي يمكن أن تنتشر من خلالها الأوبئة. إنهم يرمون في هذا المكان حتى الأدوية الخطيرة والأدوات الطبية، والمواد الكيماوية التي يمكن أن يؤدي حرقها إلى نتائج خطيرة.

الروائح الكريهة لا تطاق ومع ذلك لم أستطع غلق الزجاج. كنت في حاجة إلى قليل من الهواء حتى لا أنفجر. حتى ولو كان هذا الهواء ملطخاً عن آخره.

التفت آلياً نحو الريتروفيزور. تركت السيارة التي كانت ورائي تتجاوزني. عندما صارت بعيدة عنّي شعرت براحة داخلية كبيرة.

النّاس في هذه البلاد تقاسموا المدينة والمزبلة بشكل عادل. قسط منهم يعيش المدينة ويستهلكها ثم يرمي كل مساء فضلاته نحو المزبلة الوطنية الكبرى. سكان المزبلة، يستهلكون هذه الأخيرة ويصنّعون ما يمكن تصنيعه بها، ثم يعيدون بضاعتهم إلى المدينة التي تستهلكها وتعيد الدورة إلى طبيعتها، وهكذا. لا شيء يذهب هباءً ولا شيء يضيع. حتى الأفكار هي نفسها التي تستهلك ثم تُرمى، فتُصنّع من جديد ليعاد استهلاكها ولهذا نقضي العمر كله داخل هذه الدائرة بين المزبلة والمدينة. الشيء الجديد هو أنّ هناك مزابل صغيرة بدأت تنشأ هنا وهناك لتخفيف الحمل على وادي السمار. حتى القصبة التي تتحمّل ثقلاً أكثر من الثقل البشري الذي ينهكها وثقل السنوات، شقّت مزبلتها الصغيرة بالقرب من قصر الدّاي المواجه للبحر. كل الحمير الذين يشقون دروبها يومياً للتنظيف، يصبّون خِراجهم عند المنحدرات الملتصقة بالقصر. بعد سنوات قليلة سيتحول إلى مزبلة، خصوصاً مع انهيار كل أعمدته وكل بناياته التي لم تستطع اليونسكو حمايتها من التلاشي. حتى عندما فكروا في ترميمه، بدأوا الاستعانة بالفنانين والمتخصصين، طلبوا مساعدة البنّائين العاديين، فهي غير مكلفة على الإطلاق. وبدل ترميم الشقوق

بتربة مدروسة ومشابهة، رُممت بالأسمنت المسلح والجبس. بْلاد البِريكولاجْ يا خوُ. وغْلاهْ تْكسَّرْ راسكْ. لم يبق الشيء الكثير من المحروسة التي ردَّتْ هجومات الانكشارية والصليبية والإضبان والقتلة الذين جاءوا من بعيد على مراكب غامضة، شقت أطراف البحر وعمق البرّ. ماذا بقي اليوم من المساكن المفتوحة على السماء؟ ماذا بقي من مْرَاحات القصبة التي تبيت النجوم ساهرة في صحونها ونافوراتها؟ إمّا أنها سُدّت ضدّ النور المتسرب وأغلقت نهائياً، وإما أنها تهدمت لتنشأ بالقرب من خرابها مزابل جهوية صغيرة كل يوم تكبر قليلاً.

كانت سطوح القصبة مفتوحة على السماء والحياة وعلى أخبار النساء اللواتي لا مكان لنشر غسيلهن وأسرارهن إلّا هذا المكان. لكنّ السطوح أنشئت فوقها سطوح أخرى لا معنى للغتها. في القصبة، البيوت مثل الرجال، كل واحد يتكئ على الآخر، عندما يسقط بيت، يتعرّى الثاني، يصبح الثالث مهدداً، لأن الأول لا يُبنى أبداً، ويظل ركاماً إلى أن تزحف نحوه القذارات والمزابل، وبعدها تخترق ملوحة البحر الدار الثانية، وتبدأ في نخرها شيئاً فشيئاً بهدوء كالسّوسة.

شعرت وكأن السيارة لم تعد تمشي ولكنها متوقفة عند حدود مزبلة وادي السمار، فقد كانت روائح الحرائق الكريهة تملأ أنفي وتحرق حنجرتي وصدري. زحف هذه المزبلة مخيف. في وقت قريب ستتلاقى المزابل الصغيرة وتكّون معها وحدة كبيرة، يستحيل السيطرة عليها ويستسلم الجميع وقتها لقدرها. النّاس بدأوا يتعودون على الأدخنة والحرائق، والروائح الكريهة. هناك أجيال فتحت أعينها داخل هذا الجوّ ولهذا فهي ليست معنية كثيراً بغيره.

ضحكت عندما قرأت اللوحة الخشبية الموضوعة في مفترق الطرق عند مداخل المزبلة: Décharge interdite. ثم بعدها بقليل، وبخط عربي جميل: *مزبلة وادي السمار الكبرى*. كتبت فوق كتابة قديمة كتبها الإسلاميون عندما غزوا البلديات، لكن الخطوط القديمة ما

تزال باقية ويمكن أن تقرأ: *استغفر الله يا عبد الله، ولا تقل لهما أُفٍ ولا تنهرهما*. ورغم شكاوى بعض السكان، لوزارة الصحة والولاية بعد انتشار مرض الربو الذي أصاب أغلب المواليد الصغار بضيق التنفس والحروقات الجلدية، إلّا أنه لا أحد استطاع إيقاف الزحف. البلدية اشتكت للولاية. الولاية اشتكت للوزارة. الوزارة اشتكت للداخلية. الداخلية اشتكت للرئاسة. والرئاسة وضعت كل الأمر بين أيدي المواطنين، فهم سادة أنفسهم في وطن ديمقراطي يرفض الوصاية. وتحمّل الجميع مسؤلياتهم الكبرى أمام التاريخ بحيث لا أحد مسؤول عمّا كان يحدث بالقرب من عينيه والمزبلة كل يوم تحتل شارعاً أو حارة من وادي السمار. حتى مديرية المتاحف الوطنية قدّمت قسطها من الشكاوى حيث أنها أثبتت بالوثائق أن جزءً مهماً من المزبلة ينام على معالم تاريخية لسور قديم كان يحوّط مدينة أيقوشيم. التلفزيون الوطني حقق في القضية، وصور جزءاً من المزبلة بحضور خبراء الآثار الذين لم يذكر هويتهم، بأن كل ما يقال عن هذه المفرغة هو مجرّد دعاية، وأن زحف المزبلة مسيطر عليه وأن توجه أدخنتها مدروس بحيث لا تتم عمليات الحرق إلّا عندما تكون الرياح شمالية، بحيث يتبعثر الدخان على الطريق المزدوج ومدرجات المطار، وهي أماكن خالية من السكان. وكل ما حدث هو مجرّد دعاية بثّها علماء الحفريات الأجانب الذين طُرِدوا في اليوم الموالي لإعلان الخبر. وحتى الصحف المستقلة التي نشرت خرائط المدينة القديمة التي تبيّن فعلاً أن قسماً من السور يقع تحت مزبلة، أُقْفِلت لمدة شهر عقاباً لها على إشاعة خرائط مزيّفة وأخبار مدسوسة.

يبدو أن حالة الخراب كانت أكبر مما كنت أتحسس وأتصور. كل النّاس يريدون بقاء المزبلة. وهذا يعني أن هناك مصالح كبيرة تختبئ وراء ذلك. الخريطة التي نشرتها الصحافة مأخوذة من كتاب التاريخ المدرسي الذي يُعطى للأطفال في السنوات الأولى. كل النّاس يعرفون هذا ويصمتون. لماذا؟

أسئلة تبدو سخيفة. طرحها السابقون وماتوا. طرحها اللاّحقون وقُتل بعضهم ونطرحها اليوم، ونُباد واحداً، واحداً. لا. لا. الخراب كبير ولا يُحدُّ دائماً. الذين وضعوا الحجرة الأولى عندما بنوا هذه المدينة. وضعوها في غير مكانها. وكل ما شُيّد فيما بعد، كان على اعوجاج.

كانت أضواء الطريق السريع قد أُشعلت مما جعل حركة السير سهلة أكثر. الظلام الذي نزل باكراً على المدينة. انكشح فجأة وكأنه لم يكن. بدا الطريق أملَسَ ومشعاً بسبب الأمطار التي سقطت بكثافة في هذه الأماكن. مغرية جدّاً. شيء من الرومانسية لا يضرّ مطلقاً. وهل يجب أن نفكر في الموت دائماً؟ ها نحن هنا، وعلينا أن نعيش ولو دقيقة، نكاية فيهم على الأقل. فالموت يتحوّل أحياناً إلى حالة خطيرة من العبثية. اليوم وأنا أقطع الطريق كادت تدوسني سيارة. وضعت كل سيناريوهات الموت العالي، ولكن سيناريو هذا الموت الواطئ، الفجائي لم أتخيله مطلقاً. نحذر من كل شيء، وربما في الليل ونحن نيام نرى كابوساً مزعجاً، نقوم مرعوبين. نستيقظ. نلعن الشيطان ولد الحرامي، نقوم نحو الحمام. نغسل وجهنا ثم فجأة ننزلق. يصطدم الرأس برخام الحمام وينتهي كل شيء. الآن مثلاً! ماذا لو يتوقف محرّك السيارة؟ وتمرّ من هنا دورية عسكرية في الليل. أؤشر لها لمساعدتي، يبدو لها ذراعي من درجة الخوف سلاحاً مشهراً. فأُقتل وأبقى هناك مثل الجرذ. أو يكتشفني القتلة، يتسلّون بي ليلة بكاملها. فجأة أتذكر صديقي رابح.

ـ الله يرحمك يا رابح. قاومت موتاً ليقتلك موتاً آخر لم تنتظره أبداً.

رابح كان مهرباً صغيراً على الحدود. يشتري الكتان ويبيعه. ذات مرّة وقع في كمين نصبته له دورية جمارك. قف. قف. لم يتوقف وجرى. فخيّطَه أحدهم بسبع رصاصات في البطن، أُخِذ على أثرها إلى مستشفى المدينة القريب. وعد أمه أن يحجّجها مهما كان الأمر، وكان مقتنعاً بما كان يقوله. عندما أُخْبِرْتُ بأن، رابح تلقى

رصاصات عديدة في بطنه وحالته خطيرة، جريتُ إلى المستشفى. عبرت كل الطوابق الخمسة صعوداً ونزولاً لأجده أخيراً في الطابق الثاني. كان في غيبوبة مطلقة ورؤيته ممنوعة. سألت الطبيب الروسي عنه. قال. لقد نزعت كل الرصاصات ورقّعته. أكثر من خمس ساعات. على كل إذا لم تحدث له مضاعفات في هذا الليل، أعتقد أنه سينجو. وفي الصباح كان يحاول معرفة تفاصيل الوجوه التي لم ينسها مطلقاً. بعد أيام خرج وظل مع ذلك يجرجر رجله اليمنى ولكنه كان مصراً على تحريكها رغم الآلام التي كانت تخلفها، إلّا أنه كان مصراً على المحاولة مهما كلّفه ذلك.

كلما التقيت به في المقهى وهو يجهد نفسه، يلتفت نحوي. يمسح عرقه، ثم يبتسم.

ـ سأمشي وسأسبقك. سأمشي وأسبقك. راحْ تشوف.

من جديد. نبهته يوماً، بعدما قمنا بسباق في ملعب القرية، في المرتفع المطلّ عليها.

ـ يا رابح. بَرْكاكْ. شوف حاجة أخرى. الترابانْدو واعَرْ عليكْ.

ـ حتى أنا عييتْ. الجمارك يتسامحون أحياناً ولكنهم يُبَهدْلوننا. خلاص هذا العام تحجّ الشيبانية وأتوقف إن شاء الله.

كل صباح أراه يقطع الطريق الصغير المؤدي إلى الوليّ الصالح، يزوره ثم يغرق داخل الأشجار باتجاه المرتفع حيث مقبرة القرية الكبرى. يتجاوز أسوارها العالية. وعندما ينزل، تكون أنفاسه قد بدأت تتقطّع من كثرة التعب. أُصَبِّح عليه.

صباح الخير يا السي رابح. كيف أصبحتّ؟

«بخيـ...ر...بخـ..يـ..ر.. الجري مليح في الصباح. الواحد يصبّح على الأموات خير من اللّي يصبّح على أحياء في الظاهر، وقلوبهم ميّتة. على الأقل سكان المقبرة لا يؤذون أحداً ولا يحسدون أحداً. قَمْح المنحوس ما يْسَوسْ. الله يرحم سيدي عبد الرحمن المجدوب. وفجأة. ذات يوم وهو واقف على الرصيف. ينتظر مرور

سيارة أجرة تأخذه إلى المدينة لبيع كتانه، داسته سيارة 404 قديمة، ومغطّاة بِباشْ. ضربته بقرنها الأيسر وهي تحاول أن تتفادى كلباً قطع الطريق فجأة. بقي هناك ينزف وقبل أن يُؤخذ إلى المستشفى كان قد انطفأ، على شفتيه بقايا ضحكة ساخرة لم تكن كافية لتغطّي جملته الأخيرة:

- سبع رصاصات ما دَاروا وَالُو. وسيارة خانْزَة كلاتْنِي.

الجملة التي ظل سكان القرية يردّدونها كلما تعلّق الحديث برابح. هل يعقل أن تكون الحياة عبثية إلى هذا الدرجة؟ ما المانع؟ لا شيء يمنع، أنا الذي أقرأ الوجوه يومياً وأغوص في تفاصيلها، وأعبر الطرقات والأرصفة بحذر وأدخل الأزقة المتشابكة التي تحولت إلى خريطة تسكن دماغي وشراييني، لا شيء يمنع، من أن تنقلب أنا كذلك سيارتي هذه في منحدر من هذه المنحدرات الغميقة، وينتهي كل شيء.

- لا! لا. أنا أرفض هذا القدر السخيف.

لا أدري إذا قلتها بصوت عالٍ أم في خاطري ولكنّي شعرت بها تخرج من قلبي وأنا أنعطف بالسيارة نحو غابة بوشاوي وأغادر الطريق السريع لأدخل بين الأشجار العملاقة والأشكال الصامتة. كان المكان ساكناً وغير مضاء. يتهاوى شيء غامض في الأعماق يشبه أحجار الوديان الزرقاء. بدأت أشم رائحة البحر، لكن البحر بدا لي بعيداً على غير عادته. كلما اقتربت منه، كلما شعرت بأن الحياة ما تزال ممكنة في هذه البلاد، وكلما ابتعدت عنه أكلتني حالة نادرة من اليأس.

لكني في لحظة من اللحظات خلتني أرى الشمس وهي تغيب بسرعة وراء قلعة سيدي فرج وسرعان ما اندفنت لتحلّ محلها الظلمة التي قطعتها ومازلت أقطعها.

10

17H - 58 MN

ـ الآن تبدأ طقوس أخرى. طقوس الوصول!

الوصول إلى أين؟ إلى جهنّم أم إلى الجنة؟ أية جنّة وسط فراغ لملم فيه البحر حوائجه وهاجر على متن أوّل موجه هاربةً. لا. لا. لم يعد شيء يخيف حقيقة سوى موت الغفلة، قتلة الظهر، الخديعة، الطعنة التي رسمت بقعتها على ظهري حتى صرتُ أتحسسها يومياً، كلما خرجت أو دخلت، أحسّ بالدقة مسار شفرة السكّين وهي تفتح طريقها بين عظام الظهر، لتثقب القلب، وتخرج، من الجهة الأخرى، تحت حلمة الصدر. أعرف صوتها وهي تحدث خشخشتها داخل اللحم والأعصاب والعظام الرخوة التي تقاوم عبثاً مرورها، أعرف رائحتها التي يختلط فيها الدم والحيظ والنباتات البرّية، والعرق الذي ينزف شيئاً فشيئاً من جروح محسوسة وغير مرئية.

ـ الآن يبدأ طقس آخر قبل الإندفان داخل قبر إسمه البيت.

منذ أن خرجت من غابة بوشاوي وأنا أشعر بأشياء كثيرة تحوّلُ كل من تجانبه إلى رماد. كثيرة هي الوجوه التي انسحبت فجأة وتحوّلت إلى ظلال ثم، إلى تربة ثم إلى زهرة في الذاكرة. خوف ما يعتريني، لا يشبه بقية الخوف. كل خوف له طقوسه ونظامه ورائحته ومدّته. بذلت مجهوداً كبيراً لاسترداد هذه الوجوه ولكن

انكساراتها في داخلي مثل المرايا المشقوقة منعتني من ملامستها بصفاء. التعب يوسع من ثقوب الذاكرة ويزيد في بياضاتها التي تتنامى كلما كان الحزن كبيراً.

الظلام الذي نزل على المدينة مبكراً، بدأ يتحوّل إلى غشاوة على العينين وعلى القلب.

وضعت من جديد يدي على صدري بعد أن كنت قد ثبّتُها على رقبتي، منذ أن دخلت ظلام غابة بوشاوي. ربّما كانت هذه الحركة اللاشعورية هي وسيلتي الوحيدة للدفاع عن رقبتي الموضوعة رهن الذبح، ورهن المفاجآت التي تنتصب في كل المدينة مثل الأفخاخ المدفونة في عمق الأرض.

ريما تشغلني كثيراً. احتلت جزئيات مهمّة من حالات الصحو التي ملأتني اليوم. تركتها مريضة وتأخرت عنها ساعة تقريباً. ساعة، تقول أنها تتحملها، ولكن بألم.

- تعرف بابا. مش أنت اللي قلتْ، اللي ينتظر شخصاً آخر مجنون.

- طبعاً. لأن كل لحظة تأخر من المنتَظَر هي كَمّ لا يطاق من الأسئلة والآلام من طرف الذي يَنتظِر.

- أنا هكذا، كلما تأخرتَ عليّ.

- أعرف حبّوبة ولهذا لا أتأخر إلّا إذا كان الأمر ضرورياً جدّاً. ثم أنا لا أخرج تقريباً من البيت.

وتظلّ معلّقة على الشرفة كالطائر الحرّ. لا تدخل مطلقاً. تتحمل البرد. البحر. الرطوبة. مرضها. عيون الرائح والجاي. الخوف. المطر. الريح. الظلمة التي تنزل مبكراً. ولا تدخل. تظلّ هناك تمسح كل المحيط بعينيها الطفوليتين البريئتين، في رأسها كل حكايات الخوف والموت، بعد أن غادرتها حكايات العصافير، والألوان وأناشيد الورّام وهديل الحمام.

فجأة عندما تراني. تنتفض بشعرها. ترفع يديها عالياً. تلوح، ألوّح لها حتى قبل أن أوقف السيارة، أشعر بابتساماتها وهي تشرق بكثافة على وجهها، ثم تركض نحو عمق الدار، تخبر فاطمة أو مريم عندما تدخل مريم قبلي، ثم تخرج من جديد إلى الشرفة حتى أوقف السيارة نهائياً، فتركض عبر الدروج، تمسحها درجاً، درجاً بعينيها الحادتين كعيني عصفور. تعرف جيداً الزوايا التي يمكن أن يختبئ فيها القتلة. تفتشها. تفتح الباب الذي يحمي حاسوب الكهرباء والغاز والماء. تطمئن جيداً وتصل قبلي المدخل حتى قبل أن أضع الخطوة الأولى على الدرج، فترتمي على صدري، تتشعنق على رقبتي تاركة نفسها تنساب داخل عذوبة لا يقاسمها فيها أحد. تغمغم.

ـ خفت عليك يا بابا. بْطيْتْ بزّاف.

لا أجيب إلّا بكلمة واحدة.

ـ الخدمة.

تصمت نهائياً. أشعر بحرارة تنفسها تحت رقبتي، وهي تحاول أن تبحث عن توازن مسروق. تسمع دقات قلبي. تستأنس لها قليلاً. تحسبها. تقرأها. تشعر بانخطافاتها من حين لآخر. تتأهب لسؤال. بابا. واش قلبك يدق بالخفّ! سرعان ما تُرَكِّتهُ داخل ذاكرتها المتعبة خوفاً من الإثقال عليّ.

نصعد الأدراج، درجاً، درجاً، ولا تترك صدري إلّا عندما أصل الباب الحديدي وكأنها كانت تعد الأدراج واحداً واحداً. تنزل. تسبقني. تدقّ على الباب، بطرقة معينة وبعدد محدّد. تنتظر فاطمة صوتها.

ـ خنَا طاطا فاطمة. افتحي.

تفتح بهدوء. وتبقى ريما عند الباب حتى يدخل الجميع نهائياً. ثم تغلقه بإحكام. لا أسمع وأنا أتراخى على الصّوفة القديمة إلّا صوت القفل الخشن وهو يدور ثلاث دورات متتالية الواحدة تلو الأخرى. ثم تركض ريما نحو التلفزيون. تفتحه. وبدون انتظار للصورة، تستلقي من جديد على صدري ثم تنكمش مثل قطة صغيرة

تبحث عن دفء داخل فراش ساخن وتنكمش ولا تُبقي إلاّ زاوية صغيرة لعينيها، ترى من خلالها الصور المتلاحقة للتلفزيون التي لم يعد لها معنى سوى أنها تعطي الإحساس بحركة غير عادية داخل البيت. ريما ترتاح للأصوات والحركة. ترفض الصمت.

ـ السكات يخوفني بزّاف يا بابا.

أنبهها.

ـ ريما. لا يوجد أي شيء في التلفزيون. يُغلق أحسن.

ـ هاهاه! حْكَمْتَكْ. أغلقه ولكن تحكي لي حكاية.

ـ واش من حكاية!

ـ اللي تحب أنت. بشرط تكون طويلة.

ـ هيّا يا الله... كان يا ما كان... وحد النهار شِي بْنيَّةْ شابّةْ كالنوار. أوّل حرف من اسمها ريما، وآخر حرف...آخر حرف.. نسيته.

ـ خلاص يا بابا. يكفي. تتمسخر بي. قلت لك نْحَبْ حكايةْ. حابَّةْ نَرْقُدْ.

ـ حكاية... حكاية... حكايه.. هاه وجدتها. كان وَحْد النهار في بلاد كبيرة وحلوة وواسعة كالبحر والسماء وقلبها ضيّق كما الطفلة اللي رَحْلوا اصحابها لبعيد... وحد لَبنيَّةْ تحبّ ترسم وتلبس مليح، تكتب، تلعب،...

وأركّب حكاية من رأسي من مجموعة من القصص التي أستحضرها أو أبدعها، وأظل هكذا حتى أسألها إذا كانت ما تزال صاحية، فلا أسمع إلاّ غمغماتها، سرعان ما تنتهي داخل نوم هادئ، إصبعها في فمها، كطفلة سرق منها ثدي أمها مبكراً ويدي في عمق يدها، بالقرب من وجهها. من حين لآخر تضغط عليها وكأنها لتتحقق أنّي ما زلت هنا.

ـ هاه. هاذي البناية التي تقطن بها فاطمة.

أخيراً وصلت ليبدأ فصل آخر من طقوس الخوف وتلمس الأصوات الغامضة وتفكيكها صوتاً صوتاً، والخزرات ومحاولة قراءة ما يختبئ داخل العيون، والحركات التي تخبئ غير ما تظهر، والحذر المستميت من حالة السهو التي تخلفها رؤية البحر المليئة شوقاً واغراءاً.

لم أتوقف أمام البناية. ابتعدت قليلاً. بعد دورة عامة مسحت فيها المكان قاطبة. ثم توقفت في المكان الاعتيادي وبدأت أراقب حركة النّاس القلائل في هذا المكان. يجب اتخاذ كل الاحتياطات، حتى أكثرها يأساً وبؤساً وسذاجة والتي تعطيك الإحساس بحالة عبثية سلبية، أو كأنك ممثل رديء، مجبر على إدارة دور ضحية لا تملك أي وسيلة للدفاع عن نفسها. الصدفة الملعونة، أخت القدر المجنون، نتحايل عليها مثلما تتحايل لإيقاعنا في شباك الموت والنزف. من كثرة تكرار هذه الطقوس، تضخمت مخيلتنا أكثر. أصبحنا نتقن تفاصيل كل سيناريوهات القتل التي يمكن أن نتعرض لها، ولو أننا من حين لآخر ندخل في عبثية بدون نهاية، وفي أسئلة لا تفضي إلّا إلى الفراغ المهول. ماذا، لو يأتي القتلة بسيناريو غير محسوب على الإطلاق؟ أغلب الظنّ ستكون الأمور هكذا. ومع ذلك، لا مسلك آخر سوى هذه الترتيبات حتى ولو لم تكن ذات قيمة كبرى.

تقدمت بالسيارة إلى المكان المواجه لشرفة فاطمة. أوقفتها نهائياً. زمّرت مرة. مرتين كالعادة لأعلن عن وجودي رغم علمي بأن ريما مريضة وقد لا تظهر كالعادة لا في الشرفة ولا في المدخل. سيارة فاطمة الحمراء، كانت ما تزال في مكانها الاعتيادي. أفترض أنها خرجت ثم عادت بسرعة بسبب ريما التي تركتها وراءها مريضة، ولم تذهب إلى تمارينها على فلمها الأخير الذي لم تتخلص منه بعد أكثر من سنتين. تقول. كرهتُ ربّه. مرّة أزمة مالية. مرّة أمنية. مرّة هذا يْروح، هذا يجي. الممثل الرئيسي ذهب إلى فرنسا ولم يعد. المخرج مصرّ على إنهائه حتى ولو اضطر إلى ترك روحه فيه. أنا أتعاطف معه. مشيت معه بعيداً. والمصيبة تراوح مكانها.

مرّة نصور وعشر مرّات نلتقي ولا نفعل شيئاً، لأن الكاميرامان لم يستطع الحصول على الكاميرا، لأنها مشغولة في استوديو آخر، وهكذا. مسكينة فاطمة، أخشى أن أتسبب ذات يوم في طردها من عملها، فهي ممزقة بين عائلتها وابنها من جهة، وبين السينما والإذاعة الوطنية من جهة أخرى.

ربما كانت متعبة حين غادرت المكان، ولهذا ربّما لم أرها حتى الآن تطلّ من النافذة على غير عادتها. مرضها يكون قد أرهقها؟ لكن فاطمة عندما تلفنت لها من الجامعة، قالت هي بخير. وتحدثت هي نفسها معي. شعرت بسعادتها الغامرة وأنا أطمئنها أنّي وصلت إلى الجامعة بخير. الكلمة الوحيدة التي ترن دائماً في الأذن.

ـ بابا، ثُهَلاً في روحك، إبق على خير. باي.

بريما شيء آخر، غير المرض العضوي. ريما مرهقة نفسياً في سنّ لا يتحمل كل هذه الارهاقات، أعتقد أن إيماش على حق. ريما تحتفظ بداخلها كل ما يمكن أن يسبب لي إرهاقات الأجوبة عن أسئلة صعبة. رفعت رأسي باتجاه مدخل البناية، فجأة رأيت دِيدي (عبد القادر)، بيا ع السجائر المتنقل، هو وزميلين معه. غاب منذ مدة وها هو ذا يعود ثانية، إلى نفس مكانه مع شلته. يبيعون السجائر لمن في هذا الوقت المنكسر؟ ربّما للناس الذين يخافون من الذهاب إلى الدكان الوحيد القريب؟ الدكان يكون الآن قد أغلق أبوابه. ربّما كانوا يعرفون أحسن منّي أن الفجر، والمساء هما وقتهما الأساسي لربح بعض الدنانير.

ديدي ليس مؤذياً ولو كان مزعجاً من حين لآخر بكلماته البذيئة التي تُسمع من بعيد. كل يومين في الأسبوع أشتري من عنده السجائر، وأنا نازل إلى العمل قبل أن أضطرّ إلى حصر كل تحركاتي في يوم واحد، وفي زمن غير محدّد مما دفع بي إلى اتخاذ احتياطاتي فأشتري من المدينة حاجتي الأسبوعية من السجائر.

صديقاه اللذان يصاحبانه، أراهما من حين لآخر، ولكنّي لا أعرفهما على الإطلاق. يسكنان في البنايات المجاورة. يسهران دوماً معه، ويبقيان حتى ساعة حظر التجوّل، فيتزربعون.

ربما لا تحبّ ديدي كثيراً، فهو يزعجها بكلماته. كلما رآها متوجهة إلى المدرسة لوحدها يناديها بصوت عال:

- لا تْشي تْشي - لا تْشي تْشي - لا تْشي تْشي.

لا ترد عليه. عندما سألتني ماذا تفعل، أقنعتها بأن ما يقوله هو مجرّد مزاح وإن كان ثقيلاً والأحسن تفادي البشر قدر المستطاع لأننا لا نعرف النّاس بهذا المكان ولا نريد أن نسبب لفاطمة التي تعيش في عزلة، أية مشكلة.

ديدي شاب منكسر. كل سنة يتقدم بعشرات الطلبات للمؤسسات الوطنية والخاصة بدون أن يتحصل حتى على ردّ بسيط يعطيه ولو أملاً زائفاً في إمكانية الحصول على عمل. غادر المدرسة مبكراً وربما يكون قد نسي حتى الكلمات القليلة التي تعلمها بصعوبة، وأمه التي لا أعرف من إسمها إلّا الحاجة امرأة الشهيد. بعد الاستقلال تزوجت ثم طُلّقت بعد أن أنجبت ديدي الذي يجنّ كلما عرف أنه ليس ابن الشهيد. يصرخ عندما تنتابه نوباته العصبية، يجنّ. نسمع من فوق صراخاته المتوالية:

- ياالقحبَةْ، بنت القحبة! شْكون قالّكْ جيبيني؟ عْلاشْ ما ولدتنيشْ مع الشهيدْ كنت على الأقلّ وجدت عملاً! في هذه البلاد لاحق للمواطن الذي جاء بعد الاستقلال إذا ما عندوشْ ورَقةْ المجاهد أو ابن شهيدْ. لازم يَطْلَعْ للجبل حتّى يَشْتَعْرفوا به.

أمه الحاجّة. كل صباح، أراها من الشرفة، واقفة عند محطّة الحافلة، تنتظر طويلاً بدون كلل ولا يأس. أحياناً أصبّح عليها وآخذها في طريقي بسيارتي. فهي تشتغل منظفة مكاتب في العديد من المؤسسات. لا تحكي كثيراً، ولكنها بسرعة ألفت وجهي.

ـ واهْ يا وليدي. الرجل ماتْ بكري وقت الثورة. الله يرحمه. عاشْ ما كْسَبْ. مات ما خلّى. والرجل الثّاني، تزوّج على كبره، وترك لي عبد القادر (ديدي).

ـ الله يعينك يا يَمّا الحاجة.

ـ أنا خايفه على عبد القادر (ديدي) يا وليدي. ما يخدم ما يَلْطُمْ. زعْمَ سَمّيتُه على الشهيد باش تجي فيه البركة. زعْفتْ رَجْلي الثّاني. ما هْدَرش معي شهراً كاملاً. قال لي، ما وجدتِ غير هذا الاسم. ومن بعد قبض الأرض، وسكت.

ـ ديدي عْلاشْ ما كْتَبْشِ للشركات؟

ـ كتب حتى عْيَى وبعدها خْلَف ما يزيدش يكتب كلمة واحدة. ثمّ اِلتفت للترابـاندو والدخّان والزطلة مع أصحابه مرّة على مرة. هكذا أحسن ما يْصِيرْ سارِقْ وإلاّ قتّالْ.

ـ الزطلة تخوّف يا الحاجة.

ـ واش راح ندير؟ الله غالب. مرّة على مرّة عندما تنغلق عليه الدنيا يزطل باش يَنشى. يضربني في بعض المرات، وبعدها يضرب رأسه على الحيْط ويصرخ: عْلاشْ جبتيني؟

لا أجد إلّا بعض الكلمات الباردة. ما في قلب الحاجة كان يشبه بركاناً ولكنه بركان تتحكم فيه، بين يديها، وتخرجه قطرة قطرة، جمرة، جمرة. قالت وهي تسألني عن فاطمة:

ـ فاطمة ناس مْلاحْ. قريبها؟

تذكرت ما أوصتني به فاطمة.

ـ فاطمة أختي.

ـ سبحان الله، كي شفتك، قلت هذا ما يكون إلّا خُوهَا. خير الناس.

لا تعلق مطلقاً مثل الذي يعرف كل التفاصيل، ولا تثير أسئلة إلّا

من أجل التأكد. أرى عينيها الصافيتين، تبحثان عن شيء غامض من وراء زجاج السيارة. تبحث داخل حركة الأشياء التي كانت تمر أمامها بسرعة عن أجوبتها الضائعة. في عينيها دهشة وسخرية من هذا المحيط الذي يزداد كل يوم سواداً. بدأ يتكوّن لدي الإحساس بأنها كانت تعرف كل التفاصيل ولكنها تحتفظ بها لنفسها. طرحت السؤال مرّة واحدة ثم طوته نهائياً، لتعود في كل مرّة إلى وضعها الصعب.

- شفت يا وليدي واشَ صحْ لنا في هذه البلاد؟ ما عْليهش. ربّي خير منهم كلهم. منظفة أوساخ. وحتى هذا العمل مش دايَمْ. كل مرّة المسؤول يهدّدنا. الله يرحم الشهيد. مات على الخلاء. عاش ما كسب، مات ما خلّى. حطني هنا، يرحم والديك ويكثَّر خيرك.

أحطّها، ثم أواصل تحرّكي باتجاه وسط المدينة.

ربما لم تطلّ بعد من النافذة حتى بعد أن زمرت للمرة الأخيرة قبل أن أغلق باب السيارة. أتأمل من بعيد حركة الشبأن الثلاثة. يتضاحكون. يقهقهون!؟ من يدري؟ يجب أن لا نتهاون في التعامل مع الخطر، ولكن يجب كذلك أن لا نحمّل الأشياء أكثر مما تطيق. ليكن. أوقف القنبلة المسيلة للدموع في جيبي. أثبتها جيداً. حركة صغيرة يمكن أن تنقذني، وإهمال بسيط يمكن أن يرمي بي في جهنّم.

أضحك في أعماقي من هذه الحالة التي تقارب الجنون! معقول! أنا أعيش حالة استنفار، وهم يعيشون زَطْلَتَهُمْ وضحكهم وقهقهاتهم ونكاتهم البذيئة، ويتلذذون بالسجائر التي يلفونها في أكفهم، بعد أن يعجنون تبغهم المختلط جيداً؟

ربما لم تظهر على الشرفة، ولا فاطمة.

أتجه نحو مدخل البناية.

أتحسّس رأس القنبلة المسيلة للدموع، أضع رأسَ الشّاهِدِ عليه وأضغط قليلاً. شيء غامض يهتزّ في داخلي. كيف أواجه الموت

عندما يصبح حتمية؟ كيف تكون اللحظة الأخيرة عندما أسقط مجروحاً، عاجزاً عن كل حركة وأنا لا أصدق عينيّ وهم يستعدون للإجهاز عليّ نهائياً. يملأ الدم عينيّ. أغيب حتى قبل أن أسمع الطلقة الأخيرة وهي تملأ دماغي بصوتها الجاف. دقّات القلب لم تعد عادية. أوف! متى كانت عادية؟ وهل بقي شيء عادي في هذه البلاد؟

كانت خطواتي ترنّ على الإسفلت المندّى واحدة واحدة. أستطيع عدّها بكاملها لوضوحها. عيناي مرتشقتان في عيون الشباب الثلاثة الغارقين في لذة القهقهات والدخان. هل هم بيّاعو سجائر حقيقة؟ يبيعون لمن إذن في مثل هذه الوقت؟ ربّما هم عيون تترصّد. لكن لمصلحة من؟ من يعرفني أصلاً في هذا المكان؟ الصدفة التافهة. الصدفة القاتلة. ملايين الأسئلة، المتزاحمة في الرأس لم تمنعني مع ذلك من التخطيط لسيناريوهات الموت والمجابهة. هي سيناريوهات تتكرر يومياً العشرات من المرات. أحياناً أبتدعها وأنا أعبر شارع ديدوش مراد. أتألم. الألم جاف. فمي ينشف مثل الرمل.

أشعر بحدّ السكين وهو يرتعش على ظهري. قاطعاً، قاتلاً. أمد يدي نحوه. اليد التي رشقت السكين لا أراها. أتحسس البرودة الحديدية وهي تشق الضلوع وتخترق القلب والأوعية والأغشية وتخرج عند الصدر، تحت الحلمة بالضبط. أقاوم قليلاً لأبقى واقفاً على قدمي. أشعر بالفجوة، بالفراغ، بالثقب الذي اخترق القلب في منتصفه، وبالهواء الساخن يتسرب عبره، والدم يسيل داخلياً كأغنية مسروقة. أسمع صوت الشلالات بمياهها الباردة التي تملأ رأسي. أتحسس الفاجعة بمزيد من الصمت والخوف. أقاوم. أرفض أن أسقط على ركبتي مثل الجمل. الجمل عندما يسقط، يكثر ذُبّاحه. اليد الخشنة على رأسي، لا تنتظر إلّا ذلك لتجهز عليّ. أتحسس رقبتي التي صارت منكسرة ومهيأة للذبح. أبذل مجهوداً أخيراً. أرفض هذا الموت الغامض الآتي من طعنة أكثر غموضاً. أقوم وأحاول أن أركض باتجاه الجامعة المركزية. تحت اندهاشات النّاس الذين كانوا يصرخون، ويفتحون الطريق لي ولِدَمي الذي كان يتبعني

كالظل الأحمر. تأتيني قريتي دفعة واحدة، تجري من تحتها الأنهار وفوقها السماء والشمس والنوارس بوقوقاتها الكثيرة. الفقهاء وهم يُخْرِجون السّلْكَة على روحي ويَتَمنّون لي نعيماً وجنة تجري من تحتها الأنهار، ثم يضعون الرأس عند الرأس ويغمغمون: الله يرحمه، كان ولد امرأة ورجل. ناس ملاح.خسارة، تنقصه الصلاة فقط ليصير مؤمناً كاملاً. يقولون أنه شيوعي؟محال، حاشا أن يكون كذلك. لم يسرق ولم يكذب وأجداده قادمون من الأندلس. ويتجادلون طويلاً حول أن ما يفعلونه هو الدّين عينه. أمّي وحدها تبكي في صمت. تشعر بآلام الفقد والخسارة الكبرى. تنزوي. ترى نفسها تفتح الباب الخشبية القديمة. تراني في الحوش الواسع مع ابنة خالتي التي كانت مجنونة عليّ وتتواطأ مع أمّي، ننظّف البيت من أوراق الدّالية المتساقطة. نجلس نحن الثلاثة. تفتح الحُمّارة ذات الأرجل الخشبية الثلاثة وتبدأ في مخض اللبن، وعندما تنتهي تفرغ لنا كأسين طريين وهي تغمز ابنة خالتي:

ـ اللبن كالحليب، يقرّب بين الأحباب.

ثم تغمض عينيها وتقوم من الزاوية وهي تحاول أن لا تصدّق خبر موتي ململمة دموعها. الباب الخشبية العتيقة صارت موصدة ولن يفتحها أحد بعدي.

ـ الموت ابن الكلب، عندما يأتي لا يسأل.

لقد تغيّر ذلك الزمن يا أمّي. الموت اليوم صار يسأل ويختار.

وحدها أُمّي تبكيني بحزن وقساوة.

فجأة استفقت على قهقهات الشبّان الثّلاثة.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم! ما هذا الشؤم. أنا ما زلت حيّاً.

قهقه ديدي عالياً. بانت أسنانه المسوّسة من جراء الشرب والزطلة وتمور بسكرة. حتى عندما يكون الموت قريباً، نحن في حاجة ماسة إلى لمس أرق وتر للحياة في القلب ونسيان الموت ولو

للحظة واحدة. فالحياة التي بين أيدينا تستحق أن تعاش بعمق ولو اختصرت في دقيقة أو ثانية.

استقمت من جديد. شعرت بعظامي تتمفصل في أماكنها. القنبلة المسيلة للدموع تملأ جيبي. الشبان الثلاثة ما يزالون منهمكين في ضحكهم ونكاتهم ودخانهم. عندما اقتربت وحاولت أن أقرأ عمق عيونهم الستّ، صَعُبَ عليّ الأمر وبدت لي العملية سخيفة ولا معنى لها. شعرت بالمدينة تغيّر من عاداتها ومن ناسها بشكل مجنون، لم تعرفه من قبل. ساكن باب الزوار، غادرها وصار من سكان باش جرّاج، فهو لا يعرفه أحد هناك. ساكن باب جراج صار في الحرّاش، وصار بإمكانه أن يمرّ بدون أن يثير انتباه أحد. ساكن الحراش انتقل إلى باب الوادي. وساكن باب الوادي صار في بلكور. والبلكوري انتقل إلى المطار، في الدار البيضاء. والبيضاوي زحف إلى برج البحري. ما عدا الأبيار وحيدرة ومرتفعات تليملي، فقد بقيت في أمكنتها. ناسها، كانوا غير ناس المدينة الذين يموتون يومياً. ثم أنا. أنا لست من هذا الحيّ البحري. كنت في حاجة ماسة إلى هذا الإحساس لأستطيع السير، وقطع مسافة عشرين متراً كانت تفصلني عن مدخل البناية.

وماذا بعد؟ لا شيء. ألف كتاب نكتبه لا يساوي لحظة واحدة، بل متراً واحداً من الأمتار التي نقطعها باتجاه المدخل، ونحن لا نعرف مطلقاً إذا كنّا سنتخطى العتبة أم لا؟ ومع ذلك نكتب. يجب أن نكتب لكي نجعل من جنوننا أمراً ممكناً خارج أجسادنا التي لم تعد قادرة على تحمّل كل هذه القساوة. حتى لا نجنّ حقيقة ولا ننتحر، ونجعل من الحياة التي هي مجرّد احتمال في هذه المدينة أمراً ممكناً. مع ذلك، لا حرف يساوي اللحظة التي نقاوم فيها تراجيديا الموت بمختلف الأشكال اليائسة ونحن نخرج من بيوتنا صباحاً، أو ونحن ندخلها ونقفل الأبواب الحديدية وراءنا ونتمترس بالداخل ونحن غير متأكّدين إذا ما كنّا قد أغلقناها جيداً أم نسينا غلقها ونعود لها من جديد، فنجدها موصدة مثل باب سجن عتيق.

أستيقظ في ساعة متأخرة جدّاً من الليل. أزحف نحو الباب والنوافذ، في الظلمة حتى لا أوقظ ريما وفاطمة. أتحسّس الأقفال. ثم أعود من جديد، أدخل فراشي، أسترق السمع إلى الأصوات التي تأتي من كل الجهات، ثم شيئاً فشيئاً أنام عليها لأجد نفسي في غمرة كابوس بدون ألوان. كابوس، ليس كالحلم، واضح الوجوه والتفاصيل. أراهم من فوق، من الطابق الخامس، وهم يطعنون رجلاً يشبهني. أنا. مكتّف كالخروف، وهم، سبعة، يتناوبون بمقترحاتهم. أتمنى أن يكون واحداً منهم إنساناً، ويرحمني برصاصة. ولكنهم يتنافسون على أكثر طرائق الذبح ضرراً، بالمنجل، بالسكين، بالسيف، بالفأس، بالشاقور، بالبوسعادي، أو بقضيب حديد البناء الذي حُوّل إلى كتلة تشبه الحربة؟ أقوم مذعوراً. أغسل وجهي، أنتظر الصباح لأخرج نحو موت آخر.

الشبان الثلاثة يتمازحون. لا يوجد بينهم ما يثير الانتباه على الإطلاق سوى حركاتهم الزائدة، وقهقهاتهم العالية.. ثم.. ثم.. غياب ريما عن الشرفة، يشغلني. أستأنس لوجودها عادة. تشعنقها في الشرفة كالتفّاحة البعيدة، ثم ركضها في الأدراج الذي يورث لديّ بعض الطمأنينة. إذا كان لا بدّ من الموت، على الأقل أغلق عينيّ عليها لآخر مرة، وعلى بقايا البحر والشمس والوردات القليلة التي لم تقتلها الشمس القاسية أو الأقدام الثقيلة أو الأيادي المسنونة. أريد أن أموت وأنا أرى النور ومن أحب وأن أغلق عينيّ على أَلَقِهم بدل أن أغلقهما علىالفراغ والظلمة ووجوه القتلة الصدئة.

كان الشبان الثلاثة يغلقون باب المدخل. ديدي جالس بالقرب من كرّوسته والشابان محوّطان به، واقفان، ثابتان كالمسمارين. أيديهم مكشوفة، يلوحون بها في الفضاء.كلما كانت الضحكة كبيرة ويضربون بها على صدورهم وركابهم. هذا مهمٌ جدّاً. يَدٌ واحدة في الجيب تثير آلاف الشبهات، ولهذا عندما اقتربت منهم لم تعد وجوههم تشغلني ولا تفاصيلهم ولكن حركات أيديهم.

عندما حاذيتهم بمترين تقريباً، فتحوا لي تلقائياً الطريق، وهم

ما يزالون منشغلين بقهقهاتهم التي لم تتوقف أبداً. فكرت أن أمسّيَ عليهم وأن أمازحهم لكن رأسي كان مغلقاً مثل صندوق حديدي قديم ضُيعت في البحر، المفاتيح الوحيدة القادرة على فتحه. خفت أن تُحْسَب تحيتي لهم علامة من علامات الخوف منهم، فعدلت نهائياً عن الفكرة وعبرت المدخل مُغَنْزِراً. وبدون أن التفت ورائي مطلقاً، بدأت أقطع الأدراج، درجاً، درجاً وأتنفس بعمق. ثم فجأة بدأت أسخر من نفسي وأتمرّغ في داخلي، وأقهقه مثلهم من تضخيماتي التي لا معنى لها. فقد قَتَلْتُ نفسي وأنا حي؟

ولكن كنت صامتاً إلى أعمق نقطة في داخلي.

ثم بدأت أعدّل من هندامي بحركات تلقائية. مسحت وجهي بكفّ يدي اليسرى ثم واصلت تسلق الدرج باتجاه الطابق الخامس.

عندما وقفت أمام باب البيت، كنت منهكاً. أغمضت عيني. نظرت من فوق إلى تحت. لا شيء. تنفست بعمق ثم دَقَقْتُ على الباب بهدوء. ثم مرّة ثانية. ثالثة. بدا لي كأن البيت كان خالياً. دققت بقوة أكثر، لم أسمع إلّا الصدى يتردد عبر الطوابق السبعة. بدأت أثير انتباه السكان. فقد خلت كل الرؤوس ملتصقة بعوينات الأبواب، تتحسس هذا الطارق الغريب.

فجأة سمعت خطوات متسارعة، عندما التفت صوبها، كان جاري الذي يسكن في آخر طابق، يصعد جارياً مثل المذعور. لم يحيِني على غير عادته. سمعت بابه الحديدي وهو يُفتح، ثم وهو يُغلق بعنف بمفاتيحه الثلاثة التي تحدث غزغزة وصريراً واضحاً، قلتُ له ذات مرّة زَيّتْها لترتاح من صوتها ولكنه لم يفعل.

ـ أوف. يدبّر راسه. ربّما هو كذلك خائف منّي.

داخل صمت الخوف، سمعت زوجته وهي تصرخ في وجهه.. واشْ بِكْ يارَجَلْ؟ مجنون؟ حبّيتْ تْهبّلنا معك؟ رَاها فايْتةْ الساعة السِتّة. تأخّرت بزّاف؟

دققت على الباب بعنف أكثر. لا شيء.

ثم انتبهت فجأة لبقع الدم التي كانت تنطلق من داخل البيت، وتنزل حتى الدروج. يا ربّي يا سيدي واشْ كايَنْ؟ فركت عينيّ من جديد. بدأ رأسي يغلي. تحسّست بعيني بقع الدم، كانت ناشفة. مرت بذهني كل الصور المنكسرة والمعوجّة والتي لا شكل لها. قلت، بعد أن تذكّرت، ربّما تكون فاطمة قد رَعَفَتْ بسبب الضغط الدائم في رأسها ربّما ريما! فهي ترعف كثيراً، خصوصاً عندما تكون قلقة ومريضة!

دققتُ. ناديتُ بصوت عالٍ.

ـ ريما. فاطمة.

لا شيء.

شعرت بجسدي يتقلص، وصراخاتي، تختلط بخطوات جديدة، كانت تصعد الدروج بسرعة نسبية وثقة وثبات. لم أفكر في شيء خاص سوى في محاولة فتح باب عدّاد الغاز والماء والكهرباء، والاختباء فيه. ولكنّي لم أفعل. فقد تسمّرت في مكاني. من جديد سمعت الأبواب تُغلق وصرير المفاتيح يزداد حدّة، وألواح النوافذ الخشبية وهي تصطفق بعنف لتغلق. لكن الخطوات ظلت تملأ ذهني. فقد حدّدتها، بل صرت أستطيع عدّها واحدة واحدة. خطوة، خطوة. هي أربع خطوات متعاقبة في المرة الواحدة تقريباً.

لا بدّ أن يكون الصاعد اثنان.

أتأكد. هما اثنان.

طيب! أين بقي الثالث؟ الخشن هو الذي بقي يحرس المدخل، والخفيفان دخلا حتى تتم العملية بسرعة. ديدي وصاحبه. فالخطوات خفيفة. بل إن بعض الخطوات الخفيفة نفسها أخف من الأخرى.

يصعدان وأحاول جاهداً أن أفتح الباب الحديدي الموصد.

تنتابني حالة يأس. ثم فجأة يأتيني صوت امرأة من داخلي، أو

من داخل البناية، لا أدري، وهو يرتفع عالياً في صرخة تشبه الندب. احزر روحك يا ولد الناس. القتّالين طالعين يذبحوكْ. احزر روحك. نقّز. اهرب. طِرْ. ما تبقاشْ في مكانك كما الحجرة. أين أذهب؟ من أين أُنقّزْ وسط هذه البناية المغلقة؟ بأية أجنحة أستطيع الطيران والإنفلات من هذا الخراب المسدود من كل الجهات؟

تحسست أسلحتي للمرة الأخيرة. قنبلة مسيلة للدموع، جاهزة للإستعمال. صغيرة مثل القلم ولكنها مفيدة. محفظة، وبعض الموت الذي يقفز تحت الألبسة مثل المجنون. رنّ التلفون داخل البيت. رنّ طويلاً. ثلاث مرّات. لا أربع. ثم سكن. لا بدّ أن تكون إيماش، تلفنت لتطمئن عليّ وعلى وصولي سالماً. هل تعرف إيماش أنّي الآن مثل جدّي دون كيشوت أواجه الموت عارياً. لا أواجه فقط طواحين الهواء، ولكن أواجه طواحين بشرية قتلت رجالاً كثيرين وهاذي الآن تقف في حلقي كالسدادة الخانقة. بعض الرجال سحقتهم وحولتهم طحيناً وتراباً، البعض الآخر مزقته رغم أنه أختبأ داخل علبة حديدية تشبه البيت. البعض الثالث حمل حقائبه وركب أوّل طائرة أو سفينة تقصد المجهول والبقية المتبقية، تشبهني ولا تشبهني. من صَمَتَ، صمتَ. من قلَبَ الفيشتا قلبَها. ومن أختبأ من وراء بابه الحديدية، يتأمل المقتلة من وراء العوينات، فعل. ومن حمل جسده بين كفيّه ورماه بعنف داخل الشوارع اليومية، مثل حالي، فعل كذلك وهو لا يعلم متى يشقّه سكّين بارد من الصدر حتى أسفل البطن.

رنّ التلفون مرّة أخرى، ثلاث مرّات ثم سكن.

لا أحد يفعل ذلك في مثل هذا الوقت إلّا إيماش. هي تريد أن تطمئن وأن تتحدّث قليلاً عن حزنها الذي يملأها.

ـ شفت يا خويَا. كرهت رَبُّه. شاف روحه كبير. ظنّ روحه يحكم في كل الدنيا! تْهنّى منّي وتهنّيت منّه. تخلصنا من ثقل بعضنا بعضاً. ولهذا أنا أنانية تجاهك. أريدك أن تأتيني، فأنا أحتاج إلى وجودك. وعندما أراك في أسفل البناية تستعد للدخول. أخاف عليك

من القتلة، وألعن أنانيتي. هذه الأنانية السافلة. تعالَ. أرواحْ لعندي. بَدَّلْ شوي هذا الإنغلاق وهذا الموت الذي تشربه جرعة، جرعة. حتى أنا عندي البحر. أنا نفسي بحر. ثم تضحك عالياً. قبل أن تعود إلى صرامتها وجدّيتها.

يملأني وجهها المشرق دائماً رغم متاعبه.

- شفت واشْ قالْ لي؟ خَلّي الجامعة وتلهَّي بتربية البنت. وعندما صرخت وأصرّيت. صرخ هو بدوره وأصرّ وشتم: واش من جامعة أنتاع العطاية ولَقْحابْ. لمْرا تظلّ لاصقة في الرجل والرجل يظل لاصق في المرا. يرحم والديك قل لي فَاشْ يختلف عن القتلة؟ يتحركون ضمن نفس نظام التفكير. الخطير جدّاً هو هذا العقل الواثق من كل شيء إلاّ من تخلّفه.

عندما يواجه الإنسان موته وحيداً، تعبره تفاصيل حياته في ثانية واحدة. لكنّي أنا لم أمت وما زلت واقفاً ها هنا، متكئاً على جدار ميّت. يدي اليمنى في جيبي، وشاهدي على رأس القنبلة المسيلة للدموع، أسمع الخطوات وهي تتقطع مثل قطرات ماء حنفية مغلقة بشكل سيء. وأبدأ في تعيين مكان الضربة الأولى. كل شيء يتعلق بالضربة الأولى، إما أن تكون جيدة وصائبة وإما خاسرة، ومعها تخسر روحك. لهذا يجب أن تكون في العيون، وبعدها أدفعهما بسرعة، وأنزل عبر الدروج ولا ألتفت ورائي. النّاس هنا ماتوا. لم يعد شيء يحركهم. الخوف أكلهم واحداً، واحداً. لا أحد معك يا ابن أمّي سوى الحائط والفراغ وسرعتك وهذه القنبلة المسيلة للدموع التي تتحسسها في كل لحظة وتتمنّى أن لا تخونك عندما يُنفَخُ في البلاد والصّور.

يقولون إن القاتل يأتيك من حيث لا تنتظره. فأنا إذن محظوظ جدّاً. ها هو يأتيني من حيث أنتظره.

صارت الخطوات قريبة، ولا أدري ما الذي كان يشدني إلى هذا الحائط وهذا الباب. الخطوات خفيفة. نقرات أحذية نسائية. تتسارع

أكثر! لا أتصور امرأة قادرة على ارتكاب الجريمة... ضدّ نفسها. تركيبها الرهيف. أمومتها. عنفوانها. يمنعونها من القتل. أنت غالَط يا ولد الناس. هذه رومانسية فارغة. يحشون رؤوسهن بالرماد ويرسمون لهن جنة تحت أقدامهن يتحولن بعدها إلى قنابل موقوتة.

سمعت همهمات الصاعدين. تأكدت من أن الصوت كان نسائياً. فجأة ظهر رأس فاطمة بعصّابتها على رأسها، وراءها ريما وهي تجهد نفسها للصعود. خفت أن يكون ما رأيت هو مجرّد هلوسة ولكن ريما كانت قد ملأتني والتصقت بصدري.

- بابا، بطينا عليك.

لم أقل شيئاً ولكن أشياء كثيرة كانت تتساقط بداخلي كالتين اليابس.

- ريما رَعَفَتْ واحنا خارجين. شريت لها شوية دواء. وبعدها مشينا عند جارتنا لتنقل دروسها من صديقتها. عندما رأينا السيارة واقفة، عرفنا أنك وصلت. فجئنا. واش بك. وجهك صار أصفر كالليمونة.

- أوو..لا..لا..أنا.. متعب من رحلة اليوم.

فتحت الباب. دخلنا. كانت رجلايٍ ترتعشان. شيء ما كان يولَد فيّ، يشبه الخوف ولكنه لم يكن خوفاً على الإطلاق.

سألت ريما.

- ألم يزعجك ديدي عند مدخل البناية؟

- لا. لا. ما كاين حتى واحد. المدخل خالي.

شعرت بشعر رأسي يتقنفذ ويقف كالشوك وكالمسامير. ثم تدخلت فاطمة.

- واش من ديدي؟ ديدي راح من زمان. أمه تقول راحْ عند أخواله. فهي تخاف عليه كثيراً.

ـ ما كاين حتى واحد عند المدخل؟

ـ وعلاشْ، شفتِ شي واحد؟

ـ لا. لا. وجارنا اللي يسكن في الطابق السابع؟

ـ مسكين من كثرة خوفه من الموت، ترك عمله. هذا الصباح وهو نازل، سقط في الدروج وانكسرت رجله اليمنى وهو في بيته بعدما أخَذتُه إلى المستشفى وجبَّروه. رَيَّح نهائياً. أخذته وأخذت معي ريما بالمناسبة عند الطبيب وطمأنوني عليها.

ـ لا يستطيع المشي نهائياً؟

ـ كيفاش تحبه يخرج وهو مهرّس! قلت لك هو مجبرّ.

شعرت برغبة كبيرة، كبيرة، للصراخ. كنت متعباً، ولكن لا يُعقل أن يكون كل ما رأيته هو مجرّد حالة مجنونة. لا. لا. مستحيل. هل بدأت أتضاءل مثل الشمعة؟

رنّ التلفون. مرة. مرتين. لم أردّ. قلت ربّما مجرّد حالة هذيان. نبهتني ريما.

ـ بابا تردّ وإلاّ أردّ؟

جريت. أخذت السماعة. إيماش..

ـ الحمد لله. لا. لا. وصلت بخير. راحْ أشوفْ. أتفق مع فاطمة وريما ونْجيك. Ce n'est pas vrai, moi aussi j'ai envie de rester un moment avec toi. سأتدبّر الأمر.

ارتميت على الصّوفة. كانت لذيذة. حاولت أن أنام. أن أغفو قليلاً. أن أرتاح. تأكدت بعينيّ من أن الباب مغلق. فقد أغلقتْه ريما بحركة تكاد تكون آلية، ولكن مع ذلك التأكّد واجب. يجب عدم ترك مثل هذه الفجوات التي يمكن تتسع وتصير فراغات.

أغمضت عينيّ قليلاً وبدأت أنزل نحو عذوبة لأول مرّة أشعر بلذتها. فجأة سمعت خطوات خشنة في الدرج ثم دقاً عنيفاً على الباب

الحديدي. قفزت من مكاني. رأيت فاطمة قبالتي، جالسة على الطاولة تقص شيئاً في المطبخ. قلت لريما التي ظلت منهمكة في ألعابها عند رجلي، بالقرب من الصوفة.

ـ ريما ما تفتحيش. أنا أفتح الباب.

وقبل أن أتسلح بالقنبلة المسيلة للدموع، وأرى من الطارق من العوينة الزجاجية، قالت.

ـ بابا. لا يوجد أي دق على الباب.

لم أتكلم ولكنّي عدت الىالصوفة، وتمددت هذه المرة بكل طولي، بعد أن ملأني وجه نواره وهي تنحب يوسف وتبحث عن مكان لها داخل مستشفى المجانين.

كنت منطفئاً. قلتُ لريما التي عادت لألعابها:

ـ ريما. أرجوك أدلي الستائر أريد أن أنام قليلاً.

لم تقل شيئا ولكنها مدت يدها اليمنى بشكل آلي نحو الستائر. سحبتها بهدوء ثم انغمست في لعبها.

شتاء 1995

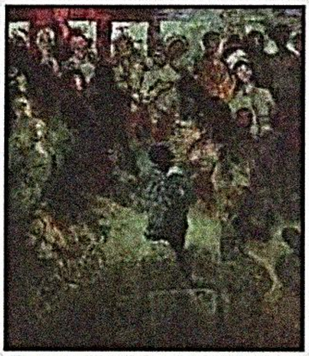
الجزائر ـ باريس (ومدن أخرى)

الفهرس

صدر للكاتب

* البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل). دمشق ـ الجزائر 1980.
* طوق الياسمين (وقع الأحذية الخشنة). بيروت 1981.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2002).
* ما تبقّى من سيرة لخضر حمروش. دمشق 1982.
* نوار اللوز. بيروت 1983 ـ باريس الترجمة الفرنسية 2001.
* أحلام مريم الوديعة. بيروت 1984.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).
* ضمير الغائب. دمشق 1990.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).
* الليلة السابعة بعد الألف: رمل الماية. دمشق ـ الجزائر 1993.
* المخطوطة الشرقية. دمشق ـ 2002.
* سيدة المقام. دار الجمل ـ ألمانيا ـ الجزائر 1995.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).
* حارسة الظلال. الطبعة الفرنسية. 1996 ـ الطبعة العربية 1999.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).
* ذاكرة الماء. دار الجمل ـ ألمانيا 1997.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

* مرايا الضّرير. باريس الطبعة الفرنسية. 1998.
* شرفات بحر الشمال. دار الآداب. بيروت 2001.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ 2002 Libre Poche).
* مضيق المعطوبين. الطبعة الفرنسية 2005.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ 2005 Libre Poche).
* كتاب الأمير. دار الآداب. بيروت 2005 ـ باريس الترجمة الفرنسية 2006.
* حارسة الظلال. دار ورد. دمشق 2006.
* طوق الياسمين. دار ورد. دمشق 2006.
* سيدة المقام. دار ورد. دمشق 2006.
* نوار اللوز. دار ورد. دمشق 2007.
* أحلام مريم الوديعة. دار ورد. دمشق 2008.



ذاكرة الماء

علي مولا

«إن هذا النصّ يجهد نفسه للإجابة عن بعض مستحيلاته بدون أن تخسر الكتابة شرطها.

كُتِبَ داخل اليأس والظلمة بالجزائر ومدنٍ أخرى على مدار سنتين من الخوف والفجيعة بدءاً من شتاء 1993، أي منذ ذلك اليوم الممطر جداً، العالق في الحلق كغصّة الموت والذي لم تستطع الذاكرة لا هضمه ولا محوه بين دهاليزها ورمادها، وأُنهي بالجزائر في سنة 1995، ذات يوم شتوي عاصف على واجهة بحر خالٍ لم يكن به إلاّ أنا وامرأة من رخام ونور ونورس مجنون كان يبحث عن سمكة مستحيلة ضاعت داخل موجة جبلية».

واسيني الأعرج. مواليد 1954، بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. ويعتبر أحد أهم الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لاتستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

* في العام 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.
* تحصل في العام 2001 على جائزة الرواية الجزائرية.
* اختير في العام 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث، في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.
* فاز في سنة 2007 بجائزة الآداب الكبرى (الشيخ زايد) عن روايته: كتاب الأمير.
* تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية والإسبانية.